المشرق
مجلة

الرابعة والثلاثون
كانون الثاني – اذار ١٩٣٦

الاحابيس
والنظام العسكري في مكة
زمن الهجرة

بقلم الاب لامنس اليسوعي

١

لم تكتفِ مكة ، في الجاهلية ، بكونها مدينة تجارة واسعة يتّجر بها الرأسماليون والمرابون . بل كانت ، فوق ذلك ، مركزًا دينيًا يؤمّه ، في المواسم ، كثير من القبائل العربية . الا ان مكانها من [illegible] كان يجلب اليها[1] عددًا كبيرًا من شذّاذ القفر الخارجين عن نطاق قبائلهم، من أولئك « الخلعاء » و« الصعاليك » و« الفتّاك » و« المتشيطنة » و« اللصوص »

١) اليعقوبي: تاريخه (Houtsma) ٢: ١٤–١٥ ؛ الاغاني ٢١: ٦٢، ٦٨

و«الذؤبان»[١]. ولا يخفى ان تعدّد هذه الاسماء يكفي للدلالة على عدد اولئك الشذّاذ، وعلى ما كان من ضعف في تنظيم السلطة العربية القديمة. وقد اشرنا مرارًا[٢] الى تلك الطبقة من الشذّاذ الذين كانت قبائلهم «تخلعهم» رسميًّا، «فتبرأ من جرائرهم»[٣]، وتتخلص من تبعة اعمالهم.

من اهم صفات «الخليع» الجرأة والبطش، وانه ليفرق بهما اشهر ابطال العرب وابعدهم صيتًا من الذين كانوا يتحيّنون الفرص في اظهار شجاعتهم، ويراقبون الاحوال فيستغلّون ظروفها في العمل على نشر تفاصيل سطوتهم وبطشهم، كما روي عن عنترة، وهو اوسع ابطال الجاهلية ذكرًا، من انه سُئل عن اسباب شهرته فقال: «كنت اقدم اذا رأيت الاقدام عزمًا، وأحجم اذا رأيت الاحجام حزمًا، ولا ادخل موضعًا لا ارى لي منه مخرجًا.»[٤]

اما «الخليع» فانه كان على نقيض هذا القول يندفع مهتاجًا فلا يبالي، ولا يفتش عن المخارج. فكان من تأثير هذه الصفات السيئة ان الكثيرين من بني قريش، من ارباب الاموال، واصحاب القوافل، ينفروا من تكاثر الشذّاذ والخلعاء في ارض الحرم. لانهم كانوا يرون فيهم من ذوي اموال لم يبذلوا الجهد الكثير في تحصيلها، فينفقونها بسهولة في حوانيت مكة. وكانوا يرون فيهم، فوق ذلك، معاونين و«حلفاء»، يستأجرونهم للمحافظة على قوافلهم الغنية في رحلاتها البعيدة[٥]. وكان لكل من اسياد مكة جماعة من

---

١) الواقدي: تاريخه (Kremer) ٥٨: الطبري ١: ١٤٢٨؛ الا... ٨: ٦٥. وقد سمّي هؤلاء اللصوص ذؤبانًا لانهم يشبهون الذئاب (ابن الاثير: النهاية ٢ ... ٥). وهناك «الريله» او «الرئبال» وهو اللص الذي يفتك وحده كالذئب (ابن الاثير ٢ ... ٦) ويذكر بين هؤلاء الذؤبان بعض الصحابة او اصحاب النبي (اسد الغابة ٥: ١٧٨)

٢) اطلب كتابنا *Le Berceau de l'Islam*, I, 193-194

٣) الاغاني ١٣ : ٢

٤) الاغاني ٨: ١٥٢، وقول عنترة هذا يعاكس قول عباس بن مرداس (اسد الغابة ٣ : ١١٢):

أقاتل في الكتيبة، لا أبالي أفيها كان حتفي ام سواها!

٥) راجع *Berceau*, I, 334؛ الازرقي ٤٦٢؛ الواقدي ٣٠

الشذاذ ينتسون اليه ، ويختصون به ، فهو « مأوى المطرد »[١] ، على قول الشعراء ، وهم رجاله وحلفاؤه ؛ فالبراد ، وحاجز ، وابو الطمحان ، والحرث ابن ظالم يبذلون نفوسهم في سبيل الامويين ، والمخزوميين ، والهاشميين[٢] ، ويلقون الرعب في انحاء الجزيرة بذكر فتكاتهم واهوالهم . وكذلك نرى امراء غسان ، وملوك الحيرة ، واقيال اليمن يعملون على ان يقربوا منهم اولئك الشذاذ فيحسنون صحبتهم ، حتى اذا ارادوا تنفيذ خطة او نصب مهلكة ، قذفوا بهم فكانوا لهم خير عون . وقد رأينا عدداً من سادة القبائل ، اذا احتاجوا الى ذوي جرأة وبطش ، اتوا الحرم فاستأجروا من صادفوا فيه من « الصعاليك »[٣] . وهي عادة عهدها ارباب السلطة منذ القدم . أوَ لم يستأجر أبيملك ، بسبعين من الفضة ، « رجالاً بطالين اشقياء »[٤] فتبعوه في غزوته ؟ أوَ لم يستأجر امرؤ القيس « اخلاطاً من شذاذ العرب »[٥] في طلبه بثأر ابيه !

اذا دقق الدارس في اخبار مكة في العصر الجاهلي ثبت لديه ما كان يقوم به القرشيون من محاولات في سبيل توسيع تلك المنطقة المتازة الواقعة تحت شعار العاطفة الدينية ، المعروفة بالحرم . وذلك ان هذا الامتياز الديني كان يضمن لهم ، على الغالب ، سلامة ارزاقهم ؛ وكان يضع حوانيتهم وبيوت اموالهم على مسافة بعيدة عن جيرانهم من ذوي المطامع الجريئة التي كانت تدفعهم احياناً الى غزوة منطقة الحرم نفسها فينهبون حتى الكعبة[٦] . كان اولئك البدو شر سكان تهامة يرودون حول الحرم ، كما كانت قريش نفسها قبل ان ترتقي الى مركزها الحالي ، ترود حول تلك المنطقة ، فتؤجر دوابها ، وتسير في خدمة القوافل هادية محافظة ، هذا اذا لم ترابط متسترة في غوري

١) زهير (Ahlwardt) ٣ : ٢٤ ؛ الاغاني ١٠ : ٢٨ ، ٣٢
٢) الأغاني ١٢ : ٤٩ ؛ ١٩ : ٧٦
٣) الاغاني ٢١ : ٦٢ ، ٦٨
٤) سفر القضاة ٩ : ٤
٥) الأغاني ٨ : ٦٨—٧٠ ، وفيه (ص ٧٣) ذكر « لذؤبان من قيس »
٦) الاغاني ٨ : ١٨٦

تهامة ، منتظرةً مرور القوافل فتهجم عليها وتنهبها . لقد طال عهدها بحياة التشرّد هذه ، فرن اربابها على الاحتيال والنهب ، حتى اهاب بهم سيد جري. هو قُصَيّ فاخرجهم من فوضاهم ، وادخلهم قلب مكة فاقامهم فيها اسياداً .

لم يكن عهد قريش ببعيد بهذه الحياة . الا ان سادة البطحاء ، واصحاب المصارف الكبرى ، وارباب المضاربات المالية ، كانوا ينفرون من تلك الذكريات ، دون ان يهملوا الحذر ممن حلّ محلهم في مرتفعات تهامة المجدبة ، ولاسيا بنو غفار[1] المتصلون مثلهم بجذع كنانة . ولم نذكر غفاراً ، بين القبائل الضاربة حول الحرم ، الا لانها تمثل خاصة تلك الطوائف الفقيرة الجزينة التي كانت تحتال على الحياة ، في جوار مكة[2] ، بجميع الطرق المشروعة وغير المشروعة . ولم تكن غفار وحدها في تلك المنطقة ، بل هناك قبيلة بني أسلم[3] وهي لا تقل عن الاولى في شيء من الخبث ، والدهاء ، وعدم التحرّج . وكثيراً ما جمعها اصحاب كتب « الصحيح » ، بل ان النبي نفسه جمعهما في دعائه[4] .

وبنو اسلم يمثلون في قبيلة خزاعة ما يمثله بنو غفار في قبيلة كنانة المنافسة ، على فرق ان الخزاعيين تقربوا من النبي ، منذ اول عهده ، نكايةً بالقرشيين منافسيهم وخلفائهم في مكة[5] . ولهذا رأينا ان نذكر منذ الآن غفاراً واسلم[6] ، على ما بينهما من عداوة اصيلة[7] . وذلك ان قريش اعتادت ان تختار من هاتين القبيلتين ضباطاً لعسكرها المأجور المعروف باسم « الاحابيش » . على ان هذه العلاقات بقريش ما كانت تمنع افراد القبيلتين عن متابعة مفاسدهم فتراهم ينهبون ، ويقتلون من يستفردونه من اهل مكة ،

١) الاغاني ١١ : ٤٧

٢) وقد ذُكر بعض النغاريين في ارض المدينة (الاغاني ٤ : ٢٠) وهناك احد صنارهم يرشق نخل الانصار (ابو داود : السنن (طبعة الهند) ١ : ٢٥٦ ؛ الذهبي : الميزان ١ : ٤٥٥)

٣) الأغاني ٢١ : ٦٨

٤) الترمذي : الصحيح (طبعة الهند) ٢ : ٣٢٤ ؛ الطبري ١ : ١٦١٦

٥) لقد انتزع قصيّ الرئاسة من خزاعة ، على انه لم يطردهم من ارض الحرم .

٦) الجاحظ : البخلاء ٢٤٨

٧) حسّان بن ثابت : ديوانه ١٦٠ : ٩ يذكر معاً غفاراً واسلم

دون ان يستثنوا المسلمين انفسهم[1] ، وهي مآثر قد تمتاز بها غفار على اسلم . اما الاوتار بين افراد القبيلتين ، بدواً وحضراً ، فكانت دائمة كلما انقضى وتر منها تجدد آخر[2] . وكان الغفاريون مشهورين بالتلصص ونهب المسافرين حتى الحجاج منهم ، فسُمّوا « سُرّاق الحجيج »[3] ، يفعلون ذلك فلا يحترمون ارض الحرم ولا الأشهُر . وكانوا ينزلون منطقة بدر[4] وارض فُرع[5] ، فيجتمعون شذاذاً من السراق والفتّاك[6] ، يعرقلون سير القوافل ، ويغدون على تجار مكة آمالهم ومساعيهم . وقد ظلّ البرّاد مثالاً اعلى لاولئك الخلعاء الغفاريين ؛ يقوم بمغامراته خفيةً ثم ينشرها في انحاء الجزيرة بكل ما تقتضيه شروط التمثيل المسرحي من ظهور وافتخار . حتى ضجّ القرشيون من اعماله فاستلحقه بنو امية وجعلوه حليفاً لهم ، وانزلوه مكة . بيد انه لم يفارق ما شبّ عليه من اعمال النهب والسلب ، فعاد القرشيون الى التذمّر منه . فترك المدينة دون ان يترك حلف الامويين . ثم علقت الاسطورة بمغامراته وما اتصفت به من جرأة وحيلة وبطش ، فتوسعت فيها ، وولدت منها آثاراً أُضيفت في ما بعد الى المجاميع الادبية المختصة « باللصوص »[7] .

واذا ذكرنا بني غفار وبني اسلم فاننا لا ننفي وجود الخلعاء في سائر القبائل والبطون . فلكل قبيلة ، شريفة كانت او حقيرة ، لصوصها وخلعاؤها تدفعهم فطرتهم الفوضوية الى الخروج عن الانظمة والشرائع . حتى انه ليصعب علينا ، اذا ما دققنا البحث في حياة كبار السادة انفسهم كحاتم طي ، ،

---

١) الواقدي ٢١ ؛ ابن هشام : سيرة الرسول ٤٢١ ؛ اسد الغابة ٣ : ٣٢٥

٢) ابن هشام : السيرة ٤٢١

٣) الطبري ١ : ١٦٣٠ ، ١٦٥٠ ؛ الاغاني ١٦ : ٦٢ ؛ ابن هشام : السيرة ٨٠٢ ؛ اسد الغابة ٣ : ١٥٠ .

٤) السمهودي : وفاء الوفاء ٢ : ٢٥٩

٥) السمهودي : وفاء الوفاء ٢ : ٣٤٠ .

٦) مسلم : الصحيح ٢ : ٣٦٧-٣٦٨ ؛ ابن سعد : الطبقات ٤ : ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤

٧) الاغاني ١٩ : ٧٥-٧٦ ؛ واطلب ابن عبد ربه : العقد ٣ : ٩٣ ؛ ابن هشام : السيرة ١١٨-١١٩

وعروة بن الورد ، وتوبة بن الحُمَيِّر ، ان نميّز في شخصياتهم اخلاق الفارس الكريم من صفات اللص الصعلوك ؛ كما انه يصعب علينا ان نفصل ، في تلك الحروب العربية ، بين النزوة المشروعة في نظر البدو ، والسرقة البسيطة . ولم يكن هذا الجمع بين صفات الفروسية .ومظاهر الصعلكة ليجحف بمجدّ اولئك السادة ، او يحطّ من قدرهم في نظر السلف[1] . فان شريعة الثغر ما كانت لتصم هذه الاعمال بالوصمة الشائنة ، بل جلّ ما كان ينال الصعلوك تعرّضه للخطر ، وتعريضه قبيلته للثأر بعض الاحيان. اما ما سوى ذلك من عار او احتقار فلا وجود له . وكثيرًا ما كان الشعراء من اولئك الصعاليك يفتخرون ، بكل اخلاص ، بانهم يعرتون ، كما عاشوا ، على سُنّة الإباء والشرف[2] .ولم يرتفع صوت واحد منهم فيخرجهم من غرورهم وادّعائهم . اما الفرق بين النزوة والسرقة فهو ان النزوة كانت شرطًا من شروط الحياة البدوية ، بل هي صناعة وطنية في ذلك الثغر[3] ، لا يُلام عليها الا اذا خرجت عن كونها عمل الجمهور فانفرد بها واحد او اثنان في سبيل منفعةٍ خاصة لا تهمّ القبيلة بجملها . على انه ، حتى في هذه الحالة الخاصة ، لم يكن البدو ليخفوا اعجابهم باعمال الصعاليك الجريئة ، وخصوصاً بحيلهم الغريبة . وكثيرًا ما كان الصعاليك يتّحدون فيؤلفون جمية من اللصوص لا تقف في وجهها العقبات ، كما نرى في بني غفار نفسها ، وقد ساعدهم في اعمالهم هذه ان بلادهم كانت على ممرّ القبائل من مكة الى الشام[4] . والاغرب ان سادة هذه القبيلة لم ينكروا بخلع هؤلاء الصعاليك[5] . حتى عُرفت قبيلتهم بهذا ، ورأى بعض الشرّاح انهم

---

١) *Le Berceau...* I, 191 etc.

٢) الاغاني ١١ :٤٥ ؛ *Berceau*, I, 159

٣) *Berceau*, I, 177

٤) أسد الغابة ٥ :١٨٧ ؛ وفيها ان غفارًا كانت تنزل في عَرْج ، متوسط الطريق بين مكة والمدينة(٥ :١٤٣)؛ وفي الكتاب نفسه ان بني اسلم كانوا ينزلون ذاك المنزل(٥ :١٤٣)

٥) بل قد يفتخرون بهم كما قالوا ، وقد رأوا رجلًا مجهولًا لا يحترم الكعبة : « ما اخلق ان يكون من بني بكر ! » (اسد الغابة ٣ :١٥٠) . اما التسمية ببني بكر فان غفارًا كثيرًا ما دُعيت « بكر بن عبد مناة »

هم المقصودون بحملات القرآن على البدو في مثل الآية: «وممن حولكم من الاعراب منافقون.» [1] فاذا صح هذا الشرح، كانت هذه الآيات ترقى الى عهد كانت غفار لا تزال على حلف قُريش تحدها في صفوف الاحابيش. ولكن لم يكن العهد بعيدًا بيوم يُغدق فيه النبي الدعوات والبركات عليها، وعلى منافستها قبيلة بني أسلم.

واننا نفهم الآن لماذا كان يتردد الغفاريون في ذكر نسبهم امام اهل مكة، وقد سبق ان آذوهم بنهب اموالهم. وقد كان يجتنب ذكر هذا النسب حتى مَن يُقبل على الاسلام من الغفاريين، وكأنهم يستحيون من ذكره امام النبي نفسه، كما حصل لابي ذرّ عندما التحق بالنبي، فقال بعد ذلك: «كره اني انتسبت الى غفار» [2]. وكان ابو ذرّ، اول امره، من اولئك الصعاليك. ثم قدّسه الاسلام، واتخذته الشيعة خاصة من اوليائها [3]. بيد ان الغفاريين ادوا خدمات جليلة للنبي، فوجب على كتب الحديث ان تدوّن مناقبهم [4]. وقد اكتفى النبي، في عقابهم على سيئاتهم المديدة، بان اظهر اسفه [5]، طالبًا من الله ان يعفوا عن هذه السيئات، مستندًا الى الاشتقاق البياني مقابلًا بين اسم القبيلة «غفار» وفعل الغفران، قائلًا: «غفار غفرها الله!» [6] ولا يخفى ان

---

١) القرآن ٩: ١٠٢؛ راجع الواحدي: اسباب النزول ١٩٤؛ الطبري ١: ١٦١٩؛ ابن هشام: السيرة ٨٦٦، ٩٢٧

٢) ابن حنبل: المسند ٥: ١٧٥

٣) ابن سعد: الطبقات ٤: ١٦٣؛ اسد الغابة ٥: ١٨٧–١٨٨؛ مطهّر المقدسي (Huart) ٥: ٩٣

٤) مسلم: الكتاب المذكور في الموضع المذكور؛ ابن حنبل: المسند ٢: ٣٢٠، ٣٦١، ٤٢٠، ٤: ٥٥، ٥٧؛ الدارمي: المسند (مخطوطة ليدن) ٣١٣–٣١٤؛ البغاوي: المصابيح ٢: ١٩١–١٩٣؛ الترمذي: الصحيح (طبعة الهند) ٢: ٣٢٣–٣٢٤؛ ابن الدَّيبَع: تيسير الاصول ٣: ١٠٩؛ وقابل بما ورد في السيوطي: موضوعات ١: ٧٥

٥) ابن سعد: الطبقات ٤: ١٦٤؛ ويدعى بنو غفار «بكر بن عبد مناة»، كما قدمناه. الاغاني ١٩: ٧٤–٧٦

٦) اسد الغابة ٣: ١٧٨، ٢٩٨ ... مسلم: الصحيح ١: ٢٥٤؛ ابن الاثير: النهاية ٣: ١٦٥؛ ٤: ٢٣٢

حاجته الى من يتكل عليهم في مقاومة اعدائه دعت به الى التسامح، والتجاوز عن مساوئ رجاله[1]، فضلاً من كون الاسلام «يجبّ ما كان قبله» اي يمحو ما تقدّمه من السيئات[2]. فعمل على استجلاب شذّاذ النفاريين، عاهداً اليهم بقيادة الغزوات المخطرة، تلك التي كان يخشى من السير فيها بعض الصحابة من قريش[3]. ذلك ان النبي، وهو القرشي، لم يكن لينسى شجاعة هؤلاء الشذّاذ وتفوّقهم الحربي على المهاجرين من التجار والسماسرة الذين اقتلعتهم الهجرة من حوانيتهم ومصارفهم في مكة. وفي اثناء تغيّباته عن المدينة، كان يعهد للنفاريين ايضاً[4] في السهر على نظام العاصمة الجديدة؛ او في غير ذلك من الشؤون[5]، حتى كان منهم احد خدمه[6]. على انه لم يكن يهمل مراقبتهم والحذر منهم احياناً[7].

***

اما وقد تحققنا صفات النفاريين هذه، فسهل علينا ان نفهم رغبة اهل مكة في جذبهم الى حلفهم، واسراعهم الى الاحتفاظ بهؤلاء الجيران المندفعين الى النهب[8]، المضطرمين رغبةً في الافساد، حتى انهم كثيراً ما ازعجوا القائمين

---

١) اطلب بحثنا في Ziād ibn Abīhi, 3، وفي Mo'āwia, 423؛ وابن حنبل: المسند ٤: ٧٤

٢) اسد الغابة ٥: ٥٤، ابن هشام: السيرة ٧١٧–٧١٨

٣) الطبري ١: ١٥٧٥

٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٤٤، ٧٧، ٨٧. وذلك لانهم، وهم من كنانة، كانوا ابعد من ان يتحدوا مع العناصر الوطنية او تلك العناصر المضطربة المتذبذبة في المدينة، قابل بها في اسد الغابة ٤: ٣٥٠؛ وقد ذُكر ابو ذرّ بين اولئك النفاريين (الطبري ١: ١٦٢٧)؛ ابن هشام: السيرة ٥٤٠، ٦٦٢، ٦٦٨، ٧٢٥، ٩٠٥، ٩٦٦

٥) ابن هشام ٧١٦، ٧١٩

٦) اسد الغابة ٥: ٧٧

٧) قابل بها في اسد الغابة ٤: ١٣٧؛ وفي مصدر آخر ان بعض النفاريين حضروا يوم بدر حضور الشاهدين المنتظرين غاية العراك ليسلبوا المغلوبين (اسد الغابة ٥: ٢٦٠). على ان غيرهم من السيد النفاريين كانوا يحاربون مع النبي في بدر (اسد الغابة ٤: ٢٢٨؛ ابن الاثير: النهاية ٢: ٦٦)

٨) جاء في اسد الغابة (٣: ١٩)، ان اخت ابي سفيان كانت زوجةً لسيّد غفاري من حلفاء قريش.

بسوق عكاظ[1] . فوجب من ثمَّ ان يعمل القرشيّون على صرف هذا النشاط وتسيير تلك القوة الى ما فيه مصلحتهم والدفاع عن منافعهم السياسية والتجارية . وهكذا نشأت فكرة استخدام اولئك البدو ، بدو تِهامة ، سواء أكانوا ينتسبون الى كنانة او الى خزاعة . فجعل القرشيون يختارون منهم عددًا من العسكر المأجور ألّف النواة الاولى ، او الضُبّاط الموظفين او « اركان الحرب » ، كما نقول اليوم ، في ذاك الجيش من « الاحابيش » المتصف بالشهرة الواسعة في « المغازي » ، او حروب محمد . ولما تمَّ ملاك الجيش الخارجي باولئك البدو المأجورين ، عمد بنو قريش الى تعبئة اقسامه بعدد من الافريقيين النازلين مكة[2] . وقد كان من تقاليد العرب ان يستخدموا ، عند الحاجة ، من كان يرتزق في بلادهم من الافريقيين عبيدًا كانوا ام فَعلةً ومَهنةً ؛ وذلك لما عُرف من شجاعتهم ، وجلدهم ، وطاعتهم . حتى ان سادة القبائل الحجازية ، و« ملوك العرب » ، كانوا يؤلفون من اولئك الحبشان حرسهم الخاصّ . وهذا ابن سعد يذكر عن احد سادة هذيل انه كان « يمشي وراءه الاحابيش »[3] . وليس من شك في ان هؤلاء « الاحابيش » من سودان افريقية ، لا من العرب احلاف بني قريش . وهذا صاحب الاغاني يذكر ان الملك سيف بن ذي يَزَن قد استخدم في جيشه رجال أبرهة ، بعد تلك النزوة الاكسومية التاعسة[4] . ومهما يكن من خطر في اتخاذ هؤلاء العساكر ، فان خبراء العرب بالشؤون الحربية كانوا يفضلون السودان لحسن طاعتهم[5] على رجال البدو النافرين من كل نظام ، الرافضين الحرب الا اذا كانت منفعة قبيلتهم الخاصة تدعو اليها .

---

١) الاغاني ١٩ : ٧٤ ؛ المقدسي ٣ : ٩١ ، وان العشرة الاميال المذكورة في الصفحة ٦٢ ، السطر الاول ، لا تمثل المسافة بين عكاظ والطائف ، كما يتوهم المؤلف ، بل هي طول سوق عكاظ .

٢) الاغاني ١ : ٥٢ ؛ الطبري ١ : ١٦٢٠

٣) ابن سعد : الطبقات ٢ : ٣٦

٤) الاغاني (طبعة ساسي) ٣ : ٥٢ ؛ وقابل بالاغاني ١١ : ١٢٢ ، ١٦ : ٧٥ ؛ الجاحظ : البخلاء ٢٤٩ ؛ H. Grimme, *Mohammed* (1904) p. 7

٥) الجاحظ : رسائل الثلاث (طبعة Van Vloten) ٦٥ - ٦٦

وفي عصرنا هذا لا يزال افراد الجيش ، في حضرموت ، من المستعبدين[١]

واذًا فقد كان ابناء جبال الحبشة ، قبيل الهجرة ، رجال الجيش وافراد الشرطة في بلاد العرب . ولم تكن من صفاتهم النالبة الامانة والاخلاص ، بل قد يرتدون على ساداتهم ويقتلونهم[٢] . على انهم كانوا يتصفون بالشجاعة الجريئة ، والهزء بالخطر ، والخضوع للنظام . وهي صفات اختصّ بها عنصرهم على ممرّ الاجيال[٣] . وكان من حقّ العرب ان يعجبوا بها وهي قليلة في ما بينهم . حتى غدا اشجع العرب ، واجرأهم ، وافتكهم ، اولئك الابطال من ذوي الدم المختلط بالدم الحبشي او السوداني[٤] ، الـذين دعوا بحقّ « اغربة العرب » ، وكان اشهرهم عنترة بلا خلاف . وليس بعيدًا ان يكون لبيد قد اشار الى هذا الحرس الافريقي في قوله :

. . . حُبشًا قيامًا بالحراب وبالالال[٥]

ولابن ذنبة ، احد شعراء ثقيف من غير المشهورين ، ابيات يشهد فيها بتذكار ما تركه في مخيّلة ساكني جبل سراة والحجاز مرور الحبشيين ظافرين في سهول تهامة ، وقد دخلوا بلاد اليمن واخضعوها ، قال[٦] :

---

١) Snouck Hurgronje dans *Zeitschr. f. Assyr.* XXVI, 223, 236, n. 3

٢) الاغاني ١٦ : ٧٥ ؛ اسد النابة ٥ : ٢٠٥

٣) وقد استخدم علي بك الكبير هذه الصفات ، فجيّش في مصر أيالات من السودانة (راجع de Vogüé, *Hist. orientales*, 177) وكذلك الكلام عن الجيش المصري قبل محمد علي وبعده (اطلب J. Maspero, *Organisation de l'Égypte byzantine*, 64)

٤) الجاحظ : رسائله ٦٥ – ٦٦ ، وكل رسالته المعنونة : « كتاب فخر السودان على البيضان » في المجموعة المذكورة ، ص ٥٧ . . . ؛ الاغاني ٧ : ١٥٠ ؛ البلاذري : الانساب (Ahlwardt) ٢٠٦–٢٠٧ ؛ *Berceau* I, 192

٥) الجاحظ : الكتاب المذكور ٧٠

٦) ابن هشام : السيرة ٣٧ ؛ الطبري ١ : ٩٣٦ ؛ Noeldeke, *Perser-Araber*, 194 وفيا خصّ الشاعر ذا جدَن يقول نولدكه : « يظهر ان الشاعر يرى ما يراه الحديث التقليدي بالنثر » ، قلت : ولا غرابة في الامر فان الحديث جرى هنا ايضًا على طريقته المروفة ، فاستقى معلوماته من الشعر . ولعلنا نوفق يومًا الى اقرار هذا المبدأ الاساسي في نقد « السيرة » و « الحديث » .

ابد قبائل من حِمْيَرٍ ، أُبيدوا صباحاً ، بذات العِبَرْ
بألف الوف وحُرَّابة كمثل السماء قُبيل المَطَرْ
يُصمّ صياحهم المقربات ، ينفون من قاتلوا بالزَّفَرْ
سعالى كمثل عديد التراب ، ييبس منهم رطاب الشَّجَرْ

ولم يكن النبي ، وقد اصبح امير المدينة ، ليخرج عن هذه العادة . فكان عنده من « الاحابيش » بلال، واخوه ابو رويحة[1] – وهي كنية بعيدة الدلالة – وكان بلال يمشي امامه مشتملاً سيفه . على ان الاخوين لم يكونا الوحيدين من بني جلدتهما في بلاط يَثْرب . فقد اشار المحدثون الى وجود غيرهما من الحبش في حاشية النبي ، حتى انهم ذكروا من هؤلاء اخا النجاشي نفسه[2] . وقد اهتمت « السيرة » ببلال اهتماماً خاصاً ، لانها رأت فيه « سابق الحبشة » ، كما تسميه تراجم الصحابيين[3]، اي السابق من رجال الحبشة

١) اسد الغابة ١ :٢٠٧ . وهناك ابو رويحة آخر ، من العرب ، وعد صاحب «اسد الغابة» (٣ :٢٠٠) بان يتكلم عنه في باب « الكُنى » من المجلد الخامس . وقد قام بوعده فوق المقصود (٥ :١٩٥–١٩٦) اذ جعل من ابي رويحة الواحد رجلين اثنين تكلم عن كل منهما . على ان احدهما مثل، دون شك ، دوراً حربياً لا بأس به ، فعهد اليه النبي في حمل الراية (٥ : ١٩٦،٤) . وفي المجلد الخامس نفسه من « اسد الغابة » بعض الصحابة ازدوج عددهم فولّد كل واحد منهم صحابيّين ، وذلك في الصفحات ٥٨، ٦٢، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٧–٨٨، ١١١، ١١٩، ١٢١، ١٢٥، ١٢٥–١٢٦، ١٦٤، ١٧٧ ؛ وكذلك في الجزء الثالث في الصفحات ٢١٦، ٢٠٨، ٢٢٢، ٢٤٦، ٢٦٣، ٢٩٧، ٤٠٤، ٤١٣، ٤١٧ . . . بل هناك من الصحابة مَن تثلّث عددهم فولّد الواحد ثلاثة صحابيين كما نرى في المجلد الثالث ص ٢٠٢، ٢٩٧ ؛ والمجلد الخامس ، ص ١٤٨ . على ان ابن الاثير شعر بشيء من هذه الازدواجات والتعدّدات ، فشكّ في حقيقتها ، او اشار اليها صراحة كما في ٣ :٢٤، ٢٥، ٢٩–٣٠، ٢٥، ٤٥–٤٦، ٥٧–٥٨، ٩٢–٩٣، ٩٤، ٩٩–١٠٠، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥، ١٤٦، ١٦٥، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٣، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٩، ٢٨٨، ٢٨٩ فتأثل ان الالتباس بين «الاب» و«الابن» حمل على تكثير الصحابة ٣ :١٦٥ ، ٢٨٨، وفي هذه الصفحة ذكر لصحابي وهمي لم يوجد . وفي ٥ : ٥٠ – ٥١ ذكر لصحابي من الجنّ . . .

٢) راجع في ما تقدم اسد الغابة ٣ :٢٦؛ ٥ :٢٨٦؛ ابن حنبل : المسند ٤ :٩٠ ؛ ابو يوسف : الخراج ١١٩ ؛ وكتابنا في *Fāṭima* , 66, 69 – وقد ورد ذكر عدد من السودان في حرس بعض الاسر المكية الكبيرة (اسد الغابة ٤ :٢٥٢)

٣) اطلب ترجمته في اسد الغابة لابن الاثير ، وفي الاصابة لابن حجر

الى الدين بالاسلام . ثم صار بلال ، بعد ذلك ، في نظر ارباب الحديث ، مثالًا لجميع المؤذنين، اولئك الاشخاص ذوي المركز المتضع في الجماعة الاسلامية وذوي الفائدة الجمة اذ يدعون المؤمنين الى الصلاة . بيد ان هذه النزعة في اصحاب الحديث لاظهار بلال على هاتين الصورتين قد اهملت ، دون شك ، كثيرًا من المعلومات عن بلال الحبشي فانسدت ما كان من الممكن ان نستخلصه عن دور بلال في حاشية النبي قائمًا بما كان يقوم به امثاله من الاحابيش في حاشيات سراة القوم من القرشيين. ولعلنا كنا توقفنا الى وجود نظام «للاحابيش» في المدينة ، كما وجدنا نظامًا لهم في مكة[1].

كان المكيون ينتخبون رجال شرطتهم من جمهور بدو تهامة ، وعبدان افريقية ، فيؤلفون القوة العسكرية المدافعة عن تلك الجمهورية التجارية . وكان الغاريون كثيرًا ما يتولون قيادة تلك القوة فيكون الملاك او اطار الجيش منهم، اما المادة فمن « الاحابيش »[2] . وليس في هذا الجيش المأجور من العناصر الوطنية المكية ما يستحق الذكر . ذلك ان قريش كانت قبيلة قليلة العدد حتى انها لم تكن لتحتلّ منطقة الحرم بكاملها . فكانت كلها تنزل وادي الكعبة الضيّق[3] . ولا نرى ان عدد القرشيين ازداد منذ ان ترك اجدادهم حياة البداوة ، فتحضروا في مكة . بل اننا ، لولا من كانوا يستلحقونهم بهم من الحلفاء ، لتحققنا نقص عددهم الاصلي . ولا يخفى ان مرافق الحياة في ذلك الوادي ، وادي الثّور ، الضيّق المعرّض دائمًا للفح السموم ، الخالي من الماء ، ومن الهواء اللطيف ، ومن الشجر — حتى نعته القرآن بانه « غير ذي زرع »[4] — كانت ابعد من ان تسهل النموّ الطبيعي في حياة شعب حضري.

١) قابل بما سنورده ادناه من ان النبي استقبل بجفاوة عددًا من سودان مكة . وهناك غيرهم من السودان كانوا يرافقونه مسلّحين في غزواته (ابن سعد : الطبقات ٢ : ٩٠)

٢) في الاغاني ١٩ : ٧٦ ذكر لاحد الغاريّين سيد الأحابيش. واني اميل الى الرأي بان الغاريين الذين قادوا رجال النبي في المدينة ، كانوا اولًا من سادة احابيش مكة . .

٣) قابل بما في ابن هشام : السيرة ٧٣ ، وهو يشرح اسم « بكة » بما كان فيها من الازدحام.

٤) « وادٍ غير ذي زرع » القرآن ١٤ : ٤٠ . وقد طلب القرشيون آية على صحة نبوة

ولهذا لم يوافق نموّ القبيلة ازدهارها الاقتصادي العجيب ، فكان بعض كبارها يتذمّرون من مناخ مكة ، فيقولون ما قاله صفوان بن امية وزملاؤه من رجال « الملأ » او مجلس الشورى القرشي : « ليس لنا بها مقام »[1] هذا على الرغم من انهم كانوا يتمتعون بالراحة المستطيلة مدة الصيف في قصورهم البهجة في الطائف[2] وجبل سراة .

وعليه فقد اضطرت مكة الى استخدام المأجورين في سبيل المحافظة على الامن الداخلي ، والدفاع عن منافعها التجارية ، وان تعرّضت احياناً الى مخاطر سياسية كان تتخلّص منها بالدهاء والحيلة . وفضلاً عن ذلك ، فان اولئك المأجورين من الشذّاذ والفتاك والخلعاء واللصوص والاحابيش اللاجئين الى ضواحي مكة او «الظواهر» كانوا يفرقون بما لا يُقاس رجال قريش ، « قريش البطحاء » او « قريش الوادي » ، اي سكان وسط المدينة من السراة ، رباطةَ جأش ، وشجاعةً ، وجرأةً . ولنا شاهد في يوم بدر ، وقد انتصر فلاحو المدينة على القرشيين على رغم الزيادة في عدد هؤلاء ، والتفوّق في تسلّحهم ، وذلك لان القرشيين لم ينتظروا تنظيم الاحابيش .

***

يدفعنا كل ما تقدم ، وما سيلي ، الى الاقرار ان البدو لم يكونوا يعتبرون في شيء شجاعة القرشيين . ولم يشأ شعراء الجاهلية ان تجهل ذلك . وهو رأي جدير بان نقف قليلاً في تفهّمه ، وقد يكون منه فائدة في تمحيص تلك الاساطير المتعدّدة التي حاكتها المخيلات حول ابطال « المغازي » ، اذا توقفنا يوماً الى درس القسم الحربي في سيرة الرسول[3] .

وقد اثار هذا المشكل احدُ مترجمي النبي من الاوروبيين ، في سيرة كتبها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ؛ وجرّب ان يحلّه بشرح رأينا ان نورده

محمد ان يوجد لهم نخيلاً وجنائن (القران ١٧ : ٩٢ ؛ وراجع اسد الغابة ٣ : ١١٨) واطلب شهادة القديس يوحنا الدمشقي الموردة في *Zeitschr. für Assyriol.* XXVI, 182

١) الواقدي ١٦٦

٢) راجع كتابنا في *Taïf à la veille de l'hégire*, chap. III, 45 sqq.

٣) اطلب الجزء الثاني من طبقات ابن سعد ، وهو مختص بالمغازي .

على طوله ، قال: « قد يبدو غريباً ان يكون العرب، ولاسيا المكيّين منهم ، الغارقين بالشؤون التجارية ، قد ظهروا دائماً على قسط من الشجاعة والميل الى الحرب . ولا يخفى ان شعباً دائم الاهتمام بكثر الاموال لجدير بان يعرض عن ذاك المجد الذي يوليه الرأي العام حملة الاسلحة . ولكن التجارة في بلاد العرب كانت مرتبطة بمهنة الحرب . كان لا بدّ من اجتياز المفازات المقفرة . . . بحيث فيها الشذّاذ فينهبون المسافرين . . . فوجب الاستعداد الدائم للهجوم او للدفاع ، لنهب القوافل او للمحافظة عليها . وهكذا غدت حياة العرب حالة حرب دائمة ، فألفوا المخاطر ، وكان لهم ما يعزز شجاعتهم القومية »[١].

هذا ما حاول توربَن ان يشرح به تلك الشجاعة المنسوبة للمكيّين . وهو يظهر طبيعياً لاول وهلة ، حتى اننا لا نكاد نتردّد في اثباته لو لم يكن هناك ، قبل تأليف « السيرة » ، وخارجاً عنها ، تقليد ادبي شعري يناقض هذه النظرية المتأخرة المنشأ . وقد كنا تجرّأنا على الشك في صحة هذه النظرية ، اذ عرضنا لتلك الاعمال البطولية الجبّارة المنسوبة لعليّ بن ابي طالب، ولحمزة[٢]. فردّ علينا المرحوم كليمان هوار قائلًا : « ان اولئك العرب كلهم ، حضراً كانوا او بدواً ، كانوا يولدون رجالَ حرب ».[٣] والحال ان هؤلاء البدو انفسهم يعلنون ، بلسان منشديهم وشعرائهم ، اعراضهم عن تلك الاناشيد المأتمية التي تُردّد على قبور الابطال ، ونفورهم من ان يكونوا في تلك القبور . ذلك انه مهما يبالغ النساء في الندب والبكاء ، ومهما يردّدن « لا تبعد ! » ، فان تلك الاناشيد لا « تعيد البطل الى الحياة »[٤].

اما قبيلة قريش الحضرية فقد اهتمّت شديد الاهتمام بان تؤيد شهرتها ، فتحمي نفسها، بعدد من الاقوال والوصايا منسوبة للنبي[٥]. ويراها المطالع مبسوطة

---

١) Turpin, *Histoire de la vie de Mahomet*, Paris, 1773, I, 304-305

٢) راجع كتابَينا في *Fâṭima*, 29 ; *Berceau*, I, 191..., 332, 334

٣) *Journ. Asiat.*, 1913¹, 216 وهي حجة توربَن المذكورة سابقاً .

٤) اطلب في ذلك Rhodokanakis, *Al-Ḫansâ' und ihre Trauerlieder*, 58

٥) راجع مثلًا : ابن الديبع : تيسير الوصول ٣ : ١٠٨ ، ١١٠ ؛ ابن سعد : الطبقات ٤ : ٢

في كتب « الصحيح » ، « والسُنن » وكلها تنطق بيقظة الخلافة العباسية ، وغيرتها على حفظ هذه الشهرة السائرة . وان يكن وصل الينا شيء من الشعر البدوي القديم يناقض هذه الشهرة[1] ، فلا شك في ان ذلك من نتائج الصدفة التي ابعدته عن عيون المراقبة العباسية . فعرفنا ، بالاستناد الى هذا القليل من الشعر ، ان البدو كانوا ينظرون الى قريش غير نظرة جُمّاع الاحاديث . كانوا يرون في قريش تجّاراً لا همَّ لهم الا جمع المال والاكثار من الارباح ، وهم ما عدا ذلك ، جبناء لا يجرأون على تسيير قوافلهم الا اذا دفعوا لبعض سادة القفر مبلغاً من المال في سبيل خفارة تلك القوافل[2] فتسير آمنة « بما فيها من الحُماة والخفراء »[3] . ثم ان البدو كانوا ينفرون من الاقامة بمكة ، لانها كانت تمثّل لهم مكاناً لا راحة فيه ،

ولا مرتع للبين ، او متنفَّس ؛ ولكنَّ تجَرْاً ، والتجارة تُحقرُ ![4]

وهم يفتخرون احياناً بانهم يفلقون جماجم اولئك التجار ، ويشقّون زقاق خمورهم ، فيتنعّمون لانفسهم او لذويهم ، وقد اجحف القرشيون بحقهم ، في تلك الايام العصيبة التي كانوا يلجأون بها الى مكة فيقفون على ابواب المصارف القرشية يطلبون قليلاً من المال على سبيل القرض[5] . فكان لا بدَّ من اخذ الثأر ، ومن ان ينتصر البدو لانفسهم من اولئك التجار الذين اهانوهم فآلموا كبرياءهم . ولهذا كانوا ينتظرونهم خارج مكة ، فيهاجمونهم على رغم ما كان

١) كذلك الشعر الذي حذفه ابن هشام ، عندما اعاد النظر في « السيرة » ، ص ٥٧٣

٢) وهو امر لا بدَّ منه . اطلب العقد ٣ : ٩١ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٥ - حتى ان محمداً يذكر من العجائب انه يأتي يوم تسير فيه المرأة بلا خفير ، اسد الغابة ٣ : ٢٩٢

٣) الجاحظ : رسائله ٦٦ ؛ العقد ٢ : ٨٠ - واطلب ، في شجاعة المكيين ، الاسانيد العديدة التي يوردها Snouck Hurgronje, *Mekka*, I, 31, 32 . حتى ان القرشيين تركوا الغزو لما كان يعرّضهم له من السرقة والنهب . . . السيرة الحلبية ١ : ٢٢٢

٤) الجاحظ : رسائله ٦٣ . ويقول الطبري في تفسيره ٣٠ : ١٧٢ ، عارضاً للسورة ١٠٦ من القرآن ، ان البدو كانوا لا يتعرّضون لقوافل قريش . وهذا من تأثير تلك النظرية الرسمية الرامية الى اقرار السيادة القُرشية حتى في العصر الجاهلي . . .

٥) راجع كتابنا في *La Mecque à la veille de l'hégire*

يطلقه القرشيون على انفسهم من لحا الشجر ليموّهوا على الناس انهم حجّاج فلا يتعرّضوا لهم. ذلك ما نستنتجه من قول الشاعر معاوية بن أوس، وهو جاهلي:

وذي سَبات لذي مَنْجرٍ أُسَيْود كالرجل الاسحم
ضربت بجيبه على غره، وقائمه كيد الاجذم
الى التاجر الربيّ الشحيح او خمر ذي النُطف الطماطم (١

ومن شرح الجاحظ: «اراد بهذا كله قريش. يقول هم تجار، وقد اعتصموا بالبيت، واذا خرجوا علقوا عليهم المُقل ولحا الشجر حتى يعرفوا فلا يقتلهم احد»[٢]. وكان البدو، اذا اكتشفوا هذه الحيلة، تردّاد نقمتهم على أكلة «السخينة»، والسخينة نوع من الطعام يُتخذ من الدقيق ويؤكل في شدّة الدهر وغلاء السعر، وكانت قريش تأكله فعيبت به وهُجيت[٣]، حتى لُقّبت «بالسخينة». قال خداش بن زهير:

يا شدّة ما شددنا، غيرَ كاذبة على سخينة، لولا الليلُ والحَرَمُ

وقال عبد الله بن همام:

اذًا لضربتهم حتى يعودوا لمكة يلعقون بها السخينا (٤

واننا لنسمع صدى هذا اللقب، خمسين سنة بعد الهجرة، في اهجية مرّة للنجاشي لذع فيها القرشيين، حتى ان ابن قتيبة، المتعصب للعروبة زمن العباسيين، لم يغفر له هذه الجرأة، فقال عند ذكره: «هجا قريشًا لعنه الله!»[٥]. اما الابيات فهي:

سخينة حيٌّ يعرف الناسُ لؤمَها قديمًا، ولم تُعرف بمجد ولا كرَمْ
فيا ضيعة الدنيا، وضيعة اهلها، اذا ولي الملكَ التابِلة القُذُمْ

---

١) الجاحظ: رسائله ٦٢؛ البكري: المعجم ٦٦٩؛ الازرقي ١٥٥، ٤٨٩

٢) الجاحظ: ك. م. ٦٣

٣) اطلب المصادر في كتابنا Yazid, 45, n. 3؛ ابن هشام: السيرة ٧٠٥؛ ابن الاثير: النهاية ١: ٦، ٢: ١٥٢ – ١٥٣، ١٩٤

٤) الجاحظ: البخلاء (Van Vloten) ٢٥٨

٥) ابن قتيبة: الشعر والشعراء (de Goeje) ١٩٠. – اما في شأن عصبية ابن قتيبة للعرب وسيادة قريش فلتراجع رسالته المنونة «كتاب العرب» المطبوعة في «رسائل البلغاء» الطبعة الثانية، نشر محمد كرد علي. ويبقى ان تثبت نسبة الكتاب لابن قتيبة.

هذا الهجو المؤلم اذاعه الشاعر في عهد معاوية الاول ، فدلّ على ما كان لا يزال واقرًا في اذهان العرب من ازدراء قريش ، على رغم ما اتاه ذاك الخليفة الكبير ، بشخصيته الجذابة وبانتصاراته السياسية ، في تقريب العرب من الاقرار بسيادة قبيلة . ومن ذاك العصر ايضاً اهجية اخرى للنجاشي في قريش منها هذا البيت الذي يفرق ما تقدّم ايلاماً ولذعاً :

وحُقّ لمن كانت سخينة قومه ، اذا ذُكر الاقوام ، أن يتقنّعا (١

وهناك امر آخر كان يحطّ من شجاعة المكيين في نظر البدو ، هو ما أشرنا اليه من تعوّد القرشيين في الجاهلية الالتجاء الى مأجوري الاحابيش في الدفاع عنهم والمحاربة دونهم . وقد ذكر الرواة مقطعاً شعرياً مزدوج الفائدة لانه يطلعنا على قدم هذه المادة في اتخاذ « الاحابيش » ، دالًا على انها ليست من الطرق التي لجأ اليها القرشيون مرةً مفردة او مرارًا قليلة ، في عصر قريب من الهجرة ؛ كما يطلعنا على تلك الناطقة المتأصلة في سكان البادية تجاه هذا المظهر القرشي : ذكر صاحب الاغاني المقطع المذكور ، واشار الى قدمه قائلاً : « هذا شعر هجوا به قديماً » [٢] ، وهو :

فضحتم قريشاً بالفرار ، وانتم غدون سوداناً عظامَ المناكبِ
فاماً القتال ، لا قتال لديكم ؛ ولكنّ سيرًا في عراض المواكبِ

واذًا فلم يبقَ من شك في ان المكيين كانوا يستأجرون « السودان » الافريقيين في حروبهم ، سوداناً لا شك فيهم ، « عظام المناكب » . ولا يخفى ان هذا الوصف ذو قيمة جليلة لانه يطلعنا على ابناء حام فيحول بيننا وبين ما قد يتوهمه البعض ، اذ ينفون وجود السودان ويفترون « الاحابيش » بالعرب المسودّة وجوههم بتأثير شمس الحجاز ، او المنسوبين الى ما يتصوّره اللغويون من وجود جبل اسمه الحُبشي او الحُبشي ... مما سنعود اليه . هؤلاء سودان يختلفون ، « بعرض المناكب » ، عن العرب المسوّدة وجوههم في مناطق الغور .

ولكن مَن كان بالحقيقة اولئك « الاحابيش » الذين ذكرناهم مرّات في

١) ابن قتيبة : الكتاب المذكور ، ص ١٦٠

٢) الاغاني ١ : ٢٠

الصفحات السابقة ؟ يحلّ ولموسن المشكل بكل بساطة اذ يحكم ، بالمجاز المتاد ، انهم « حلفاء قريش السياسيون » [1] ، وهو قول « البدعة » ترجمه الى مدلوله المصري ولغته الالمانية . على ان لفظ الاسم ، وما يثيره من تفكير بسكان الحبش ، يحولان بيننا وبين الايمان المطلق بالشرح التقليدي [2] . ولا يخفى ان اسم الجنس « حبش » يُجمع على « أحبوش » و« أحبوش » يجمع على « احابيش » [3] . وكلتا اللفظتين تدلّ على السودان ، على سكان حدود اريترية . وكانت تشير في اوائل القرن السابع خاصة الى اولئك العساكر السودان المأجورين [4] . ذلك ان اقيال اليمن ، على الرغم مما تناقلوه اباً عن جدّ من التذكارات المؤلمة عن احتلال الحبش بلادهم ، كانوا يتخذون حرسهم من رجال الحبش ، كما قدّمنا . حتى اصبح الامر زيّاً معروفاً يتبعه الامراء والسادة ، وقد كان من الدوافع اليه نفور العرب من الخضوع للنظام العسكري . فاصبح لكل بلاط في اليمن ، مهما كان حقيراً ، عدد من اولئك « الاحابيش » ذوي الحراب ، يقومون بما كان يقوم به في اوربة الحرس السويسري . ولنا في شعر ابي الطمحان صورة حية لهذا الحرس الاسود ؛ وابو الطمحان من جملة الصعاليك الشعراء المخلوعين الذين عرفناهم بين اللاجئين الى مكة . ولا شك في انه خدم القرشيين خدماً تُذكر حتى

---

١) Wellhausen, *Reste arab. Heidentums*, 86, n. 3

٢) قابل بما ذكره كليمان هوار في : Cl. Huart, *Nouvelles recherches sur la légende de Selmân du Fars*, p. 3 فقال : « الاحابيش . . . لا يسعنا الا ان نقارب بين هذا الاسم واسم الحبش »

٣) ابن دريد : الاشتقاق ١١٩ ؛ تاج العروس ٤ : ٢٩٢ ؛ Dozy, *Supplément*. I. 245 ويجمع ايضاً على « حُبشان » الاغاني ٢ : ٦٨ . اما في قول ابن قيس الرقيات (ديوانه ص١٧٩ البيت الاول) : « رجال من الاحابيش » فان اللفظة تعني هنا البدو ، وسنرى سبب ذلك في ما يأتي .

٤) الاغاني ١٦ : ٧٣ ، ٧٥ ؛ الجاحظ : الكتاب المذكور ٧٠ ؛ ابن السكيت : تهذيب الالفاظ (طبعة شيخو) ٥٢ وهو يورد قول العجّاج «أحبوش من الانباط» ، واذاً فهو غريب عن العنصر العربي . وفي غير ذلك « الاحابيش » = السودان كما في الجاحظ : الحيوان ٣ : ١٦٧ ، وفيها يذكر خصياناً من السودان فيقول : « فتيان من الاحابيش » ؛ وراجع ابن جبير : رحلته ١٩٤ ؛ ابن بطوطة ١ : ٢٧٨

شرّفوه برتبة « الحليف »[1] . على ان ما يهمنا الآن شهادته القيّمة بشأن « الاحابيش » ، قال :

ولو كنت في ريمان يحرس بابه اراجيلُ أحبوشٍ ، وأغضفُ آلفُ
اذًا لاتتني ، حيث كنت منيّتي ، يخبّ بها هادٍ باري ، قائفُ[2]

***

واذًا فان « احابيش » السيرة والحديث يؤلفون هذا الجيش الاسود ، وتكون مكة قد حلّت مشكل تجنيد السودان[3] قبل اوربة المتمدّنة بثلاثة عشر قرنًا . فلا عجب ان صادفنا في جيش القرشيين فرقًا من هؤلاء السودان ، ونحن لا نزال نسمع الكثير من شجاعتهم واعمالهم حتى في عصر العبّاسيين ، بعد ان نُظّم الجيش العربي في القرن الاول للهجرة[4] ، بمساعي معاوية الكبير ،

---

١) كان حليفًا للزبير بن عبد المطلب الهاشمي ، وهو رجل لا نعرف عنه شيئًا .

٢) الاغاني ١١ : ١٢٢ ؛ البحتري : الحماسة (طبعة شيخو) الرقم ٤٤٠ . وراجع ، بشأن ريمان القصر اليمني ، الهمداني : صفة جزيرة العرب ٢٢٤ ، وبشأن اراجيل ، وهو جمع رجال او رجالة ، ابن الاثير : النهاية ٢ : ٧٠ ؛ وبانت سُعاد (طبعة Guidi) ١٦٦ – وفي حماسة البحتري فصل كامل (الفصل الثالث والخمسون) لما يشبه بيتي ابي الطمحان في ذكر الموت وشموله وادراكه الانسان حيث كان . وما أشبه قول الشاعر العربي بمقطع مالرب (Malherbe) على لن يدل اللوفر بقصر ريمان ، والحرس السويسري بالاحابيش :

Le pauvre en sa cabane, où le chaume le couvre,
Est sujet à ses lois ;
Et la garde qui veille aux barrières du Louvre
N'en défend point nos rois.

راجع ، في ذلك ، فؤاد افرام البستاني : توارد الخواطر بين بعض ادباء العرب وغيرهم من ادباء الاجانب (المشرق ٢٧ [١٩٢٩] : ٦٠٢-٦٠٣)

٣) اطلب في هذا الموضوع : *L'armée noire* dans la *Revue des deux mondes*, 15 Août 1912, p. 849-870

٤) الجاحظ : رسائله ٧٠ ، ٧١ ؛ الازرقي ؛ ١٩٤ ، وفيه ذكر لجنود من السودان في جيش الحجّاج محاصرًا مكة ؛ البلاذري : انساب الاشراف (مخطوطة) ص b٦٦٧ . وهناك ذكر لشرطة من السودان في المدينة على عهد المروانيين ، الاغاني ٣ : ١١٢ ؛ ولحرس اسود في حاشية خالد القسري ، ابن عساكر (طبعة بدران) ٣ : ٤١٢

وبفضل تجنيد عرب الشام الذين كانوا قد الفوا نوعاً ما النظام الروماني . وقد دفعت هذه الذكريات الجاحظ الى تأليف رسالة ظريفة في « فخر السودان على البيضان » يُرخي فيها العنان لبلاغته وظرفه، فيدلّ على تفوّق السودان في الحروب خاصة على البيضان ، اي على العرب[1] .

ولنعد الى زمن الهجرة فنرى من مآتي « الاحابيش » فيه ان اهل مكة ، لما اسرعوا الى موقعة بدر ، لم ينتظروا تجييش « احابيشهم » . وكان ذلك ، كما قدّمنا ، من هفوات زعمائهم ارباب المصارف الذين لم يتعوّدوا الحروب . فكان انهم اكتفوا ببعض الرجال من الحبش انفسهم خرجوا « يتقاذفون بالحراب » كما يقول الواقدي[2] ، ونحن نعرف ان الحراب سلاح الاحباش العادي[3] . ولا يخفى ان الحُبش هنا لا تفيد العبيد ، فان المكيين كانوا ابعد من ان يسلّحوا عبيدهم السلاح . وكذلك القول عن وَحشي الاسود قاتل حمزة ، وابن الاثير يعدّه « من سودان مكة »[4] ، وقد كان دون شك من اولئك الجنود الذين الفوا مهنة الحرب ، وكان يستعمل الحربة كغيره من ابناء جلدته « وقلّما اخطأ بها شيئاً » ، على قول الواحدي[5] . وقد شاء ابن هشام[6] ان يخرج وحشياً من المعركة ، بعد قتله حمزة ، ليوهم ان السودان لم يكونوا يحاربون كعسكر منظّم . ولكن لا مستند لقوله . بل اننا نرى وحشياً يحارب حتى في عهد ابي بكر ، فيشترك في حرب مسيلمة . وليس لنا ما يدلّ على انه كان

---

١) طُبعت الرسالة في مجموعة من ثلاث رسائل : « مناقب الترك ، فخر السودان على البيضان ، التربيع والتدبير» وقد اهتمّ بطبعها Van Vloten ، فظهرت بعد وفاته ، سنة ١٩٠٣

٢) الواقدي (Kremer) ٣٢

٣) ابن هشام : السيرة ٥٨٢ ؛ الطبري ١ : ١٣٨٥ في كلامه عن وحشيّ : « يقذف بحربة له قذف الحبشة » ؛ السمهودي : الكتاب المذكور ١ : ١٨٧ ، ١٨٦ ؛ وراجع بيت لبيد المذكور سابقاً ، ص ١٠

٤) اطلب ترجمته في اسد الغابة ٥ : ٨٣

٥) الواحدي : اسباب النزول ٢١٥–٢١٦ ؛ واطلب ، في مهارة الاحباش بالبراز واستعمال السيف والترس ، صحيح مُسلم ١ : ٣٢٨ ، وصحيح البخاري ١ : ١١٦ ، ١١٧ ؛ ٢ : ٢

٦) ابن هشام : السيرة ٥٦٤

وحيداً من ابناء جلدته؟ بل اننا لا نخطئ اذا اعتبرنا كلّ الحبش الذين حاربوا في بعوث قريش، في بدر وأحد، من اولئك «الاحابيش» النظاميين؟ فخالفنا بذلك اقوال مؤرخي المغازي، وكأنهم يضنون على السودان بهذه الصفة، فلا يرون فيهم الا عبيداً غايتهم الماء سادتهم بالباب السيف والترس، كما كانت تلهيهم بالغناء تلك الجواري اللواتي كان يشتريهن تجار قريش بالثمن الغالي. حتى ان كتب الحديث تذكر لنا في المدينة بعض الحبشان يسلّون عائشة لاعبين بالسيوف. اما نحن فيمكننا ان نرى في اولئك العبيد السود فوق ما يريد ان يراه ارباب الحديث، فلا نتراجع عن السؤال: أوَ لم يكن حبشان المدينة المذكورون من حرس النبي الاسود؟

ولنتقدم في ذكر النصوص القديمة في الحبش والاحابيش. ذكرت السيرة انه كان في معركة أحد «الاحابيش وعبدان اهل مكة»[1]. ولا يخفى ان واو العطف لا تفيد هنا التفرقة بل الشرح. فنتج ان «الاحابيش» المذكورين لا يمكن ان يكونوا الّا من اهل الحبش، وهو معنى «العُبدان» ايضاً. وذلك ان الاكثرية الساحقة من الرقيق في بلاد العرب الغربية كانت من السودان في هذا العهد. وقد مال بعض العلماء المسلمين الى هذا الشرح منذ اقدم العصور. فتخيلوا، في ما تخيلوه من شروح لاسم «الاحابيش»[2]، ان هؤلاء المحاربين سُمّوا كذلك «لاسودادهم»[3]. كلّ هذا يدفعنا الى الاستنتاج ان الاحابيش كانوا من عنصر افريقي، وكانوا يؤلفون كتائب سوداء، في الجيش العربي، وما اشبهها بكتائب السودان في الجيوش الاوربية اليوم، بكتائب «العسكر» الاريتري في الجيش الايطالي، وقد كثر الكلام بشأنها في يومنا هذا. يسمي الايطاليون هؤلاء الجنود الافريقيين (askari) من لفظ المفرد عسكري. ومن

١) ابن هشام: السيرة ٥٦١–٥٦٢؛ الواقدي: ك. م. ٢٢١، ٢٧٨–٢٧٩، يذكر «عبيد قريش» (من السودان) يحاربون في أحد، وبينهم وحشي، وصؤاب. وسنعود الى ذكر هذا الاخير.

٢) ابن الاثير: النهاية ١: ١٦٦؛ واطلب ما سيلي من الشروح اللغوية للفظة.

٣) تاج العروس ٤: ٢٦٣

غرائب الاتفاق ان اللفظة نفسها: «عسكر»، «عساكر»، كانت تدلّ في عرف العرب الاقدمين، على المحاربين المأجورين، بخلاف مَن كانوا يقاتلون في سبيل الذود عن قبيلتهم ومنازلهم. هذا ما يظهر من قول قيس بن الخطيم، الشاعر اليثربي، المتوفى قبل الهجرة بسنوات قلائل[١]. ولعله فكّر، في قوله ذاك، باخلاط البدو والسودان اللاحقين بالجيش القرشي، ملمّحاً الى ان قومه آنف من ان يقبلوا معاونة «العسكر» المأجور؛ ولا زانا مبالغين في استنتاجنا هذا، اذا ما انتبهنا لتلك المنافسة الدائمة بين المدينتين: مكة ويثرب!

***

بيد ان ما توصلنا اليه من نتائج بشأن المكيين واستخدامهم «بالاحابيش»، وباصل هؤلاء ومركزهم من الجيش القرشي، لأبعد من ان يُقرّ به التقليد الاسلامي المستند خاصة الى حوادث «السيرة» و«المغازي»، وكلها متأثرة بالرأي العام الاسلامي، على عهد العباسيين، من سيادة قريش، وشجاعتها، وتقدمها في كل شيء منذ العصر الجاهلي. ولا غرابة في الامر. فان ما يُنسب الى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[٢] وغيرهما من كبار القرشيين، قادة الفتوح العربية، لا يتفق وما ذكرناه من ميل قريش عن الحرب والكفاح الى التجارة وتدبير الاموال، وما يتبع ذلك من تأصّل الحذر والخوف الدافعين الى الجبن. ولا يخفى ان هذه الصفات تُلقي ظلّاً من الشك يخفف من لمعان تلك المآثر الاسطورية المنسوبة الى علي وحمزة[٣] وغيرهما من ابطال «المشاهد» او معارك الجهاد الملحمية. وانا نكتفي الآن بالاشارة الى هذا التناقض. على ان قدماء المؤلفين انفسهم لاحظوا شيئاً من ذلك، فحاروا في تعليل تلك الاعمال الخطيرة المنسوبة الى العبيد من السودان، فاخذوا يخرّجونها على طرق متنوعة،

---

١) راجع ديوانه (Kowalski) ١٨: ٢.

٢) كان عمرو، قبل هجرته الى يثرب، ينفق كل وقته في اعمال التجارة والمناقشات المالية والادارية.

٣) يذكر عن حمزة انه قتل بيده، في يوم أُحد وحده، ٣١ رجلًا (اسد الغابة ٣: ١٨٥). اما علي فراجع ملخّص مآتيه في اسد الغابة ٤: ١٦-٢١

منها ما توفقوا فيه ، ومنه ما ظهر تكلّفه وتمحّله . من ذلك انهم جعلوا « احابيش » مكة يلتحقون ، في يوم أُحد ، بالبثربي ابي عامر الراهب[1]. فاصابوا هدفين : عللوا شجاعة الاحابيش بطريقة لا تنال من شجاعة قريش المزعومة ، وعملوا على خفض شأن السيد النصراني وقد غدا مكروهاً في نظر التقليد المدني لانه فضّل استقلاله الشخصي على الخضوع للنظام الشديد الذي سنّه النبي في المدينة . وهناك رواية ثانية عملت على انكار شجاعة الاحابيش انكاراً تاماً ، فزعمت ان قريش منعتهم الاشتراك في المعركة ، وتركتهم يحفظون الاعتدة والامتعة[2] . وكلها محاولات تنمّ عن حيرة الرواة الاقدمين . والغريب انها لم تلفت نظر علماء المستشرقين قبل عهدنا ، فظلّوا مدة على اعتقاد ولموسن بكون « الاحابيش حلفاء قريش السياسيين ».

هكذا يحاول الرواة ومؤرخو المغازي الحطّ من عمل الاحابيش في موقعة أحد ، وفي غيرهـا من المواقع ، ليظهروا شجاعة قريش ، حتى في زمن كانت لا تزال فيه على شركها ، فتناوئ النبي وتكسر جنوده وانصاره كما حصل في موقعة أُحد نفسها . على ان التاريخ ينسب هذا الانتصار لشجاعة الاحابيش وكثرة عددهم في الجيش المكي . ولكن لا بأس بذكر شيء من تلك المحاولات ، سواء أكانت في تخفيف وقع الانكسار على النبي وانصاره ، ام في الاشادة بشجاعة القرشيين المنتصرين . ولا يخفى ان موقف مؤرخي المغازي هنا على غاية من الدقة والحرج ، فهم في حيرة مزدوجة ، ولا مصادر لهم في الحقيقة الّا ذاك الشعر القليل الراقي الى عهد الحوادث او الى ما بعدها بقليل . فكان لا بدّ لهم من استغلاله ، الا انهم لم يصرّحوا بهذا الاستغلال ، بل عرضوا ما استفادوه من الشعر ، كأنه معلومات مستقلة ، ثم اتوا بالابيات المستقلّة شواهد عليها . بيد ان النقد الحديث كشف الستار عن هذه العملية ، اذ تحقق وهن معلومات السيرة حيث لا شعر يسندها ، ولاحظ توافُق معلومات السيرة والشعر القديم في مواضع النقص والاهمال . اما في ما يهمنا من موقف قريش والاحابيش اثناء

١) اطلب هذا الاسم في فهرس ابن هشام : السيرة ؛ السمهودي ١ : ٢٠٣

٢) الواقدي ٢٢٧ ؛ الاغاني ١٤ : ١٢

المعركة ، فان حسّان بن ثابت ، الشاعر اليثربي ، ذكر ان لواء قصيّ ، جدّ القرشيين في مكة وواضع دستورهم ، نُقل من واحد الى واحد في معركة أُحد حتى قُتل من حَملته عشرة رجال[1] . فأسرعت السيرة الى تدوين هذا الحادث ، وفيه تظهر شجاعة قريش . ولقد كاد اللواء يؤخذ ، بعد مقتل هؤلاء العشرة ، لولا ان تقدّمت امرأة من اللواتي كان القرشيون قد اتوا بهنّ الى المعركة « لئلا يفرّوا »[2] ، واسمها عَمرة الحارثية[3] ، فخاطرت بنفسها ورفعت اللواء . وهذا ما يشير اليه حسان بقوله :

... فلولا الحارثيةُ ، اصبحوا يباعون في الاسواق بيع الجلابب[4]

وهو لا يدع تلك الفرصة تفوته ، فيحمل على القرشيين ويعيّرهم بان رجالهم لم تطق حمل اللواء ، لان اللواء لا يحمله الا « الاشراف المرقون » وهو معنى « النجوم » في قوله :

لم تُطق حملَه العواتقُ منهم ؛ انما يحمل اللواءَ النجومُ ![5]

ومهما يكن من تلميحات السيرة ، فان السودان ، فضلًا عن وحشي ،

---

١) حسّان : ديوانه ٥ : ١٧ ؛ الواقدي ٢٢٢

٢) الطبري ١ : ١٣٨٥ ؛ ابن هشام : السيرة ٥٥٧ ؛ السمهودي ١ : ٢٠٠

٣) تجد نسبها في الواقدي ٢٠١

٤) ابن هشام : السيرة ٥٧١

٥) الديوان ٥ : ٢٢ ؛ وشرحه ، ص ١٩ – ولا بأس بايراد عدد من ابيات هذه القصيدة ، فتدلّ على روح حسّان الهجائية ونقمته على قريش ، كما نشير الى المقطع الذي استقى منه مؤرخو « السيرة » ، في وصف تلك الحادثة . قال مخاطبًا بني عبد الدار بن قُصَيّ ، وهم من المشركين ، يومَ أُحُد :

وليَ البأسَ منكم ، اذ حضرتم ، أسرةٌ من بني قُصَيّ ، صميمُ .
تسعةٌ تحمل اللواء ، وطارت ، في رعاعٍ من القنا ، مخزومُ .
لم يُولّوا حتى أُبيدوا جميعًا في مقامٍ ، وكلهم مذمومُ
بدمٍ عاتكٍ ، وكان حفاظًا أن يُقيموا ، ان الكريم كريمُ !
واقاموا حتى أُزيروا شَعوبًا ، والقنا في نحورهم محطومُ ،
وقريشٌ تلوذ لنا لِواذًا ، لم يقيموا ، وخفّ منها الحلومُ ؛
لم تطق حمله العواتقُ منهمُ ؛ انما يحمل اللواءَ النجومُ !

قد اشتركوا في معركة أُحد . وها ان احدهم صُؤاب الحبشي [١] ، يتناول اللواء اخيرًا فيحميه حتى يُقطع عليه . ولم يغفل حسان عن هذا الامر ، فاستغله على طريقته من هجو القرشيين بذلك الاسلوب اللاذع ، فقال :

جعلتم فخركم فيه لعبدٍ   من ألأم من بطا عَفَر التراب [٢]

من الحقّ ان حسان مرّ الهجاء ، لاذع اللسان ، وافر الفحش [٢] . ولكنه يبذل جهده في تجريح انكسار قومه في أُحد ، وبالتالي فشل المسلمين . وما كنا لنلومه في هذا الاجتهاد . اما الغريب فهو ان تكتفي السيرة بجلّ ابيات حسان مقتنعةً بمعلوماته وحدها في تأريخ الحوادث ، فتذكرها دون اسناد ، او باسنادٍ غامض لا قيمة له كقولها : « حدثني بعض اهل العلم » [٤] . بيد اننا لا نأسف لهذه السذاجة التي تطلعنا ، من حين الى آخر ، على طرق السيرة في جمع الاسانيد ونقد المعلومات ، فترفع ما قد يعلق في ذهننا من شكّ في سياسة القرشيين النفعية ، وعدم تعرّضهم ، ما امكنهم ذلك ، لمخاطر الحروب .

وقد شعر البدو ، منذ القِدَم ، بهذه الصفات في اهل مكة ، فعبّروا عنها باسلوبهم الشائق ذي الصور الفطرية ، مشبّهين قريش بالضبّ ، لانها تتراجع فتحتمي بالحرم اذا ما احسّت بالخطر ، كما فعلت في اوائل حرب الفجار ، وذلك قولهم : « سُمّي قريش البطاح الضبُّ للزومها الحرَم » [٥] . « وقريش البطاح » ، تعني سكان اوساط مكة ، وهي احياء السراة من كبار الرأسماليين ، مقابلةً

---

١) وقد شاء بعض المؤرخين ارضاء الجميع ، فجعلوا صؤاب المذكور عبدًا لبني عبد الدار ، حمَلة اللواء الرسميين (الواقدي ٢٢٥ ؛ ابن الاثير : النهاية ١ : ٧٠) . على ان السيرة لا تذكر كيف انتقل اللواء من عَمرة الى صؤاب . وانّى لها ذلك ولا مصادر لديها الا بيت حسان المذكور (السيرة : ٥٧٠-٥٧١ ؛ ٦١٠) ، فحيثما كثر الشعر القديم زادت معلومات السيرة ، والعكس بالعكس .

٢) الديوان ٢٠٠ : ٢

٣) حتى ان ابن هشام يحذف عددًا من اياته بسبب اقذاعها (السيرة : ٥٢٢ ، ٥٢٤ ، ٥٧٣ ، ٥٨١) .

٤) ابن هشام : السيرة ٥٧٠ . اما الواقدي فيحذف هذا الاسناد في سبيل ايجاز روايته .

٥) البلاذري : الانساب ، المخطوطة المذكورة ، ورقة ٢٢ قفا .

« بقريش الظواهر »[١] . وكذلك الكلام عن اهل المدينة من الانصار ، وهم اخبز من غيرهم بالقرشيين ، واقلّ تلطفاً في نعتهم ، اذ كانوا يشبهونهم بالعجائز الصُّلع في جبنهم وضعفهم في مواطن القتال[٢] . حتى ان يهود يثرب انفسهم تهروا النبي كي لا يغترّ بانتصاره على قرشيّ مكة لانهم «اغمار لا يعرفون القتال»[٣] . ولقد ازداد احتقار اليثربيين لاهل مكة ، دون شك ، كما يُستنتج من احتجاج النبي امــام الانصار ودفاعه عن شجاعة قريش[٤] ، كما دافع ايضاً عن جمالهم ، امام انصاره المدنيين انفسهم[٥] . ولا بأس في ان نذكر من جملة تلك المنازعات بين القرشيين والمكيين، ما وقع لحسّان بن ثابت، والحرث بن هشام المخزومي. وقد فرّ هذا في وقعة بدر، فهجاه حسان وعيّره جبنه وفراره. فلم ينكر الشاعر — وقد كان الحرث شاعرًا — ولم يجد غير هذا العذر دفاعاً عن موقفه ، بل فراره المخجل ، قال :

وعلمتُ اني ، ان اقاتلْ واحدًا أُقتَلْ ، ولا يضررْ عدوّي مشهدي[٦]

أو هناك اوضح من هذا الاقرار بجبنه وجبن قومه ، وفرارهم جميعاً ؟ على ان هذا البيت المشؤوم،الذي لا ينتهي جامع المنتخبات الادبية من الاعجاب به[٧] ، لم يمنع الشاعر المخزومي من التمتع باحترام عشيرته ؛ فعندما اراد هجر مكة ، لعشر سنوات مرّت بعد الحادثة ، ودّعه سكانها وداعاً قلّ ان يحدث مثيله ، فشيّعوه والحسرة في قلوبهم ، والدموع بعيونهم حتى « لم يُرَ يوم كان اكثر

١) اطلب اسد الغابة ٣ : ٢٧٢ ؛ ... Lammens, *La Mecque*, 53

٢) قابل بابيات كعب بن مالك في يوم بدر ؛ ابن هشام : السيرة ٥٢٨ ؛ ابن الاثير = النهاية ٢ : ٢٧٢

٣) ابن هشام : السيرة ٢٨٢ ؛ الواقدي ١٧٨ ؛ ابن الاثير : النهاية ٣ : ١٧٠

٤) الواقدي : ١١٠، ١٧٨

٥) اسد الغابة ٣ : ٣٧٢

٦) ديوان حسان ٣ : ١١ ؛ ١٠١ ؛ ابن قتيبة : المعارف (الطبعة المصرية) ٩٥ ؛ ابن هشام : السيرة ٥٢٢ ؛ ثم ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٦٦

٧) راجع العقد ١ : ٤٢

باكياً وباكيـة »[١] . ولا شك في ان اولئك الرجال تدارسوا بعضهم بعضاً ، فتفاهموا ، وتساءروا مـا قد يعده غيرهم من مخازي الرجولية . يؤيد ذلك ان النبي نفسه شمر بالحاجة الى تحليفهم اليمين كي لا يفروا في الحُديبية[٢] . كلها اسباب دفعت مؤلفي السيرة وارباب التأريخ الرسمي الى العمل على اخفاء بعض هذه المخازي ، متناسين مقاومة قريش المستطيلة للنبي ، مجتهدين في سدل الستار على مظاهر جبنهم ، واتقائهم مخاطر الحرب ، يوم أُحد ، باحابيشهم وعُبدانهم . وهل من حاجـة الى المراجعة واقرار الترادف بين هاتين اللفظتين ؟ الا يكن الاحابيش « حلفـاء قريش السياسيين » ، على ما يريد ولهوسن ، فاي معنى يحتر في اسمهم ، وكيف صارت اللفظـة « احابيش » من اقـذع الشتائم واقبح النعوت كما نزاها في فم نابغة الهجاء حسان ، وهو من اعرف ابناء عصره بقيمة الالفاظ الهجائية ، ومواضع السباب ، اذ نزاه لا يتردد في استعمالها ، عندما اراد هجو بعض اعداء النبي ، من البدو ، فقال :

انتم احابيش جُمِّعتم بلا نسب[٣]

هذا السهم الدقيق المسدّد يقع دون الهدف ، وبالتالي فلا يخلق بحسان ان يريشه ، اذا فهمنـا « بالاحابيش » مـا يقصد المحدثون ان يفهمونا اياه من كونهم « حلفاء قريش السياسيين ! » وهم لا يتعبون هذا التعب الا في سبيل تخليص قريش من عـار الالتجاء الى عبدان اجانب عن العرب . فتراهم يتعللون للفظة « احابيش » ، شروحـاً تُرضي السيادة القرشية ، مسلّمين بان قوم ابن جدعان ، وابي أُحيحة ، وابي سفيان ، كانوا يلجأون الى جيرانهم البدو ، الى الخلعاء ، الى اللصوص من أسلم وغفار . ولا بأس في ذلك ما دام هؤلاء من العرب . وهو ما تفهمه السيرة بلفظة « احابيش » . أوَ لم يقرّ معاوية الكبير هذا

---

١) والتعبير من القوالب التي يردّدها الحديث مئات المرّات . اطلب الاغاني ١١ : ١٥٢ السمهودي ١ : ٢٢٧ ؛ ٢ : ٤٠٩ ؛ *Le Berceau*, I, 196

٢) اسد الغابة ٣ : ٢٦٥

٣) الديوان ٦١ : ٢

الحـادث ، وهو اشهر مَن يمثّل العلم السياسي عند العرب[١] ، فهذا البدو على محاربتهم في سبيل قريش[٢] . وقد كان خليقاً بهذا السياسي الداهية ان يتكلم بما شاءت له مهارته البليغة . على انه لم يتوصل الى اقناع شعراء البدو ، وفيهم من كان يجمع السذاجة الظاهرة الى دقة الملاحظة وتفهم حقيقة الامور، فيقول:

توكّلت قريشٌ لذّةَ العيش ، واتّقت بنا كلَّ فجٍّ من خراسان ، اغبرا (٣

هذا في الاسلام ، وقد اخذت الامبراطورية العربية تنشر السيادة القُرشية بانتشار اعلامها وجيوشها . اما قبل الفتوح فلم يكن البدو ليصبروا على ادعاء القرشيين ، ولا ليحترموا « سخينة » . وشاهدنا ذلك الشعر الجاهلي الذي يفتخر فيه اربابه بانتصارهم على اهل مكة ، وبحملهم على « سخينة » حملات لم يوقفها الا الليل ومنطقة الحرَم . وقد ذكرنا شيئاً من هذا الشعر في ما تقدّم . ولا بأس باعادة بعضه . من ذلك قول خداش بن زهير :

يا شدّةً ما شددنا ، غير كاذبة على سخينة ، لولا الليل والحرَمُ ! (٤

بيدَ ان بني غِفار لم يكونوا ليحترموا الحرَم ، كما تقدّم لنا فذكرناه في اول هذا المقال . اما غيرهم من البدو فكانوا يتجاوزون ذلك في ذكر شجاعتهم وبطشهم بالقرشيين ، فيقولون ما قال عبدالله بن همام :

اذًا لضربتُهم حتى يعودوا لمكة يلعقون بها السخينا (٥

---

١) أطلب كتابنا *Mo'âwia* ، واستنتاجاتنا في Bereeau, I, 332-334

٢) العقد ٢ : ٤١ – كان النبيّ افضل من يمثّل الشجاعة المكية ، في نظر المسلمين ؛ النبي ثم ابو بكر ، وقد ظهر كلاهما في العريش ، اي الخيمة من ورق الشجر ، في بدر ، يراقبان تطورات المعركة ، ويصدران الاوامر عن بعد (اسد الغابة ٣ : ٢١٢) . حتى ان الملَك جبريل لام النبي بكل بساطة ، فقال : « انت في الظلّ ، واصحابك يقاتلون في الشمس ! » (اسد الغابة ٥ : ١٦٦) .

٣) ابو تمام : الحماسة (Freytag) ٦٦٧ ؛ قابل بابيات عمرو بن معديكرب ؛ (الاغاني ١٤ : ٤٠) . وفي اسد الغابة (٣ : ٣٨٠) ، ان البدو « مادة الاسلام » ، راجع Bereeau, I, 332

٤) الجاحظ : البخلاء ٢٥٨ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٦ ؛ العقد ٣ : ٦٤

٥) الجاحظ : البخلاء ٢٥٨ ؛ Yazid, 46 – وهناك بيت في هجو « سخينة » اورده صاحب الاغاني (١٥ : ٢٩) وهو :

همّت سخينة ان تغالب ربّها وليُغلبنّ مغالب الاغلابِ

وانّنا لنخطئ اذا صدقنا هذه الاقوال ، كما هي . ولكن مهما كان فيها من المبالغة ، فان القرشيين كانوا ، في العصر الاسلامي ، يشعرون بشدة وطأة تلك التذكارات القديمة ، وبعدم توافقها والسيادة الحالية على العالم العربي . فكان لا بدّ من محوهـا شيئاً فشيئاً ، والعمل على ان تبدل بها سيادة قرشية تستند الى اقدم العصور . هذا ما كان من واجبات المؤرخين الرسميين ، وهم يكتبون تحت مراقبة خلفاء بغداد ، اشهر من يهمهم هذا الابدال.

***

ولنعد الى الاحابيش او العساكر السود . فكّر النبي ، بعد فتح مكة ، بالسير على بني هوازن . فنصحه ابناء وطنه ان يستخدم ، في ذلك ، الحبشان واكثرهم من رقيق بني مخزوم[1] . واذا فقد كان هذا النوع من التجنيد معروفاً . على ان النبي اجاب ، كما يزعمون ، بقوله : « لا خير في الحبش ؛ ان جاعوا سرقوا ، وان شبعوا زنوا »[2] . واي حكم اوضح من هذا ، واشدّ وقعاً ! وكيف لنا بالبرهان على شجاعة القرشيين المشركين ، الذين كُروا في بدر ، والخندق ، ويوم الفتح ، وكانوا يدفعون بالعسكر المأجور ليحارب عنهم ، حتى انهم حضروا وقعة حنين حضورَ المشاهدين لبس غير . ولم يخطئ الانصار اذ وصفوهم فقالوا : « كثير شحم بطونهم » . وهي صفة رجال الاعمال المستقرّة ، والتجارة المطمئنة ، لا رجال الكدّ والسفر والحروب . وهناك مشكل جديد يقتضي بعض الشروح . وهو ان النبي نفسه الذي يحكم الحكم الشديد على الحُبش في هـذا القول فينفي صلاحهم للحرب ، يمدح ، في قول آخر ، خالد بن الوليد لانه وقف « رقيقه في سبيل الله »[3] ، اي في سبيل الجهاد ، في سبيل الحرب المقدسة . ولم يكن رقيق خـالد ، وهو مخزومي ، الا من اولئك العبيد . لان الرقيق

---

١) الاغاني ١ : ٢٢

٢) الاغاني : الموضع نفسه ؛ والسيوطي : الموضوعات ١ : ٢٢١

٣) ابو عُبيد : غريب الحديث (مخطوطة كوپرولو ، ستانبول) ، ص ١٠ ؛ ابن الاثير : النهاية ٢ : ٢٠

الابيض كان نادرًا في مكة آنذاك[١]. ومهما يكن من امر، فان المؤرخين الرسميين لا يرضون، بحالٍ من الاحوال، ان يخلط بين هؤلاء العبيد الحبشان «وأحابيش» قريش. وهم يزعمون ان «الاحابيش»، بدو من قبائل تهامة، وقبائل جنوبي الحجاز، من كنانة[٢] وخزاعة. واذًا فهم عرب خُلَّص[٣]، كانت قريش، استنادًا الى معاهدات ومحالفات سابقة، تستدعيهم للاشتراك معها في الحروب. وهذا معنى ما يوردونه من اقوال عن قريش وانها كانت «تستجلب العرب في بواديها»[٤]، واحيانًا كانت تستأجر حيًا كاملًا من قبائل العرب[٥].

اما من لا يكتفي بهذه الشروح الواضحة في نظر المؤرخين الرسميين، فلا يستحق الجواب الشافي. على ان هناك مشكلًا لم يُحلّ، وهو الشبه الغريب بين لفظ «الاحابيش»، واسم سكان حدود الابرتره الغربية. وهنا اخذت مخيلات لغويي العرب بتوليد الشروح والمشابهات المتنوعة، ولا شيء يصدّ تلك المخيلات في سبيل الشرح والتعليل. فكلما غرب اللفظ غرب شرحه وبَعُد استخراجه. يسهّل ذلك ما في اصول اللغة من مرونة، وما في تصاريفها وصيغها من لين وتنوّع. فكانت النتيجة ان من يشرح لفظ «الاحابيش» بقرابته مع «الحَبَش» و«الاحبوش» يضلّ ويضلِّل. أوَ ليس في اللغة فعل «تحبّش»

---

١) راجع الاغاني ١ : ٢٢

٢) قابل بشطر يورده ابن هشام : السيرة ٧٠١، لشاعر مكّي معاصر :
جمع من كنانة غير عُزْلِ

٣) ابن قتيبة : المعارف (طبعة مصر) ٢٠٧ ؛ المبرد ٣ : ٤٧ ؛ الازرقي ٧١ ؛ البكري : معجم ٢٦٢ - ٢٦٤ ؛ ابن دريد : الاشتقاق ١١٦ ؛ ياقوت : معجم (طبعة مصر) ٣ : ٢٤١ ؛ الاغاني ١٩ : ٧٦. وقد ذكر ميل خزاعة الى محالفة محمد منذ الهجرة خاصة، الواقدي ٣٦٩ ؛ الطبري ١ : ١٥٢٥

٤) الواقدي ٢١١ ؛ وقابل بقول حسان المذكور اعلاه :
انتم احابيش جُمِعتم بلا نسبٍ !

٥) الواقدي ٢٦٣ - او يصحّ ان نرى الاحابيش في اولئك الشذاذ من «اوباش واتباع قريش»، الذين قاوموا خالد بن الوليد، يوم الفتح ؟ الطبري ١ : ١٦٣٥ ؛ الحازمي : ناسخ ومنسوخ ١٥٤ ؛ ابن الاثير : النهاية ٤ : ١٩٠ - وعلينا ان نشير هنا ان مادة «الاحابيش» غير موجودة في دائرة المعارف الاسلامية !

بمنى « اجتمع » ، يعززه عدد من اقوال الائمة ونصوص القدماء[١] ؟ واذا « فالاحابيش » غير سكان بلاد الحبش. يُسلّم اللغويون والمؤرخون بانهم من العسكر المأجور الذي كانت تستخدمه قريش ، لانهم لا يمكنهم انكار كل الحقائق التاريخية. على انهم يتراجعون امام الفكرة بان قريش استعانت بالحبش. فيجعلون الاحابيش من العرب ، تحالفوا مع قريش ، قديماً[٢] ، فكانت تستعين بهم لتعبئة جيوشها[٣]. اما اسم « الاحابيش » الذي يُطلق على هؤلاء العساكر فيشتقه اللغويون من اسم جبل حبشي الذي تحالفوا عنده. وهذا قول ابن دريد عنهم : « حلفاء قريش تحالفوا تحت جبل يقال له حبشي فسموا الاحابيش »[٤].
اي شرح ابسط من هذا ، واقطع للسؤال والاستيضاح والنقد. على ان النقد لا يؤمن بهذه البساطة ، فيسأل : ولماذا سار المكيون بعيداً ، ففتشوا عن موضع لاجراء ذلك التحالف ، خارجاً عن حرمهم ؟ ولا يخفى ان المعابد كانت كثيرة في مكة ، ويقول الحديث ان العرب كانوا يقدمون اليها من جميع انحاء بلادهم ، بل من الشام والجزيرة ليعقدوا محالفاتهم او ليجددوها ![٥] ولا يمكن القول ان موقع الحلف اختاره « الاحابيش » انفسهم واضطروا قريش الى قبوله. فان اولئك المعاهدين ، في نظر الرواة ، كانوا من خزاعة ومن كنانة. ويظهر ان بعض المؤرخين شعروا بامكان هذا الاعتراض ، فحاول اليعقوبي التخلص منه واضعاً في فناء الكعبة مكان حلف الاحابيش[٦]. ولاشك

١) الطلب ابن السكيت : تهذيب الالفاظ (طبعة شيخو) ٥٢ ، ٧٠٦ ؛ ابن قتيبة : المعارف ٣٠٢ ، نقلا عن حماد الراوية ؛ حسان بن ثابت : ديوانه ٦٣ : ٢ ؛ وابن هشام : السيرة ٢٤٦ ، ٢ : ٨٠

٢) الطلب رواية نقلها صاحب الاغاني (١٦ : ٦٦ ، ٦٧) ، ولكنها غير قديمة ، وعليها مسحة الوحي العباسي.

٣) وهو معنى « استأجر » الواردة في كثير من النصوص القديمة. الطلب الاغاني ١٨ : ٢١٣

٤) ابن دريد : الاشتقاق ١١٦ ؛ ابن هشام : السيرة ٢ : ٨٠

٥) ابن سعد : الطبقات ١ : ٤٤ ، وهكذا يميل المحدثون على جر قبائل كلب وتغلب الى مكة احياناً . . .

٦) اليعقوبي : تاريخه ١ : ٢٧٨ ، ٢٧٩. وقد استند التاريخ الى الشعر على طريقته المرونة. قابل بما في ابن هشام : السيرة ٥٥٦ ، وهو يذكر المطيم . « والمطيم » معبود لم تحقق هويته بعد.

في انه بهذا الوضع اولى الحلف روعة دينية لم تكن له. ولكنه ، بجذفه جبل « حبشي »، افسد على اللغويين شرحهم واجتهادهم في تخريج اصل « الاحابيش » من غير سكان الحبش. . .

بيد ان هؤلاء لم يتنازلوا عن جبلهم «حبشي»، بل ظلّوا متمسكين به، على حيرتهم واضطرابهم في وضعه من تلك الارض . وهو بحث سنعود اليه، فنزيد معلوماتنا عن اصل « الاحابيش »، في جزء مقبل من « المشرق »، ان شاء الله ا



الارز

عن « الجبل الملهم » لشارل قرم*

نقلها سعيد عقل

ايها الارزُ ، غابةَ الربّ ، ايّ العبقريين لا يهي في نشيدِكْ !
انتَ ، يا شاهد الممالك والآزال تنهار في ظلال خلودِكْ !

يا سخيًّا على سليمان ، يبني منك ، في قدسه ، قبابَ الهيكلْ ؛
زارعَ البحرِ والعصور الخوالي سفناً كنْ للبريّة ِمشعلْ .

ارزَ لبنان ، ارزَ بحرانِنا الحلوِ ، وارزَ الذهولِ والخُيَلاء ،
قبسٌ منك ، فوق راحة لونجين ، ارتمى تَذمُرًا على الصحراء !

يا عطوفاً بالظلّ من معطفٍ اخضرَ ، والفوحِ من طيوبٍ زكيّهْ ،
بمُنوج الحرير والدرّ يحمي حقّنا بالحياةِ والحريّهْ !

خاطبِ القبةَ الحنونَ ، ولا تقطعْ مع الله من حديثك شيّاً ؛
ضجّ باللحن فوق اعوادك الجُهمِ ، وبالصوت خافقَ النبض حيّاً !

---

*) النقل محظور.

ايُّ داودٍ يغنّيك : سماء ، وقبابْ ،
حيث لا فاتحَ الا ارتدّ : طَرفاً ، وحرابْ ،
واكتسى لون العذابْ !

ايُّ فكرٍ يتقصّاك : جباهاً ، وقُلَلْ ،
وقصوراً من زهورٍ وعناقٍ وقُبَلْ ،
انت ، يا ارزَ الازلْ !

ايُّ سحرٍ علويٍّ يملأ الارض فتونْ ،
والاساريرَ رضًى أنورَ ، والقلبَ جنونْ ،
منذ تلقاك العيونْ !

كيف تبدو ، يا مزيجاً من شِمَافٍ وضياءْ ،
جامماً في اجنحِ الاملاك ، في وهم الفضاءْ ،
بين ارضٍ وسماءْ !

انتَ ظلّلتَ قلوبَ الاهلِ ، ظلّلتَ الوطنْ ،
عهدَ كنّا ، في النوايا البيض ، اهلًا للرسَنْ ،
تحت افياء القُنَنْ !

قانعٌ انتَ بتلٍّ ، قبلُ جلّلتَ سفوحَهْ ،
قانعٌ بالجذع يسقيك – ولو تدري طموحَهْ ! –
دمَ لبنانٍ ، وروحَهْ !

يا رعاك الشملُ ، فوق التلِّ ، ورديّاً ، أجدْ ،
ملأت اغصانُك الخضراءُ آفاقَ الجَلَدْ ،
عانقت وجهَ الابدْ !

هوَذا سورك يحني دونه شُمَّ الجباه ،
تُنسي البابِ والنُّبوة ، تلقاه الشفاه
بخشوعٍ وصلاهْ !

جوّه ينقل من سرٍّ الى سرٍّ عميقٌ ،
باعثاً في الفيءِ شدواً ، وعلى التلّ بريق
من الـهٍ يستفيق !

ايها الارز ، ذخيرات الزمان الاقدسِ ،
حضن ابراهيم انت ، ارتاح بين السندسِ ،
يا نعيمَ الانفسِ !

هوَذا واحدة منك اكتست ثوب الجدودْ ،
جذعها ضعة عشر من جبيلات القدودْ ؛
عمرها بعض الخلودْ !

هوَذا واحدة ، كالليلة القمراء ، تنعسْ ،
تتهادى بين جذعين من الصلبِ ، فتلبسْ
رمزَ ثالوثٍ مقدسْ !

هوَذا واحدة كالربِّ بين الرُّسلِ ؛
كبرت ، واسمَ لامرتين ؛ ولمـا تزلِ
في فضاء النزلِ !

هوَذا واحدةٌ أحرقها النازي ضحيّهْ ،
وتَراها لم تزل تُلوي على اخت فتيّهْ ،
تنهل الخضرة حيّهْ !

هوذا واحدةٌ تنشقُّ عن نبعِ مياهْ ؛
يملأ الزائرُ منها كفَّه ، يروي اللهاهْ ،
بعد حجٍّ وصلاهْ !

***

وأرى الولهى من الادواح ، والحرّى السُّهادْ ،
وأرى الكلمةَ ، أمَّ الدهر ، والاسمى مرادْ ،
ارزةً رامزةً ، او ارزةً فوق العبادْ ،
وأرى الرُّؤيا بحبِّ الناس ، والغضبى الفؤادْ ؛
ارزنا اجمع يستهويه غفرانُ الذنوبِ ،
والتفاتٌ للقريبِ ؛
فهو حُبٌّ وجهادْ !



الملكيون

بطريركيتهم الانطاكية ، ولغتهم الوطنية والطقسية

بقلم الخوري اسحق ارملة السرياني

تمهيد

١ : الملكيّون

الملكيّون ، والملكائيون ، والملكانيّون ، جمع ملكيّ ، وملكانيّ ، وملكانيّ ، من السريانية ܡܠܟܝܐ و ܡܠܟܝ̈ܐ ، باسكان اللّام مطلقاً[1] ، هم المسيحيّون الشرقيون المنتمون الى الكرسي الانطاكي ، الخاضعون لملوك الروم ، المعتقدون بتقرير المجمع الخلقيدونيّ المسكونيّ ، المحافظون على عهود الولاء والطاعة للكرسي الرومانيّ ، اوّلِ الكراسيّ الرسوليّة الاربعة .

واسم « الملكيّ » هذا قد أطلقه عليهم ، منذ اواسط القرن الخامس ، اخوانُهم السريان الذين كانوا مثلهم ثابتين في المعتقد القويم . وأسموهم ايضاً « روماً » و « خلقيدونيّين » و « يونانيّين » ، لانهم قالوا بمقالة مرقيان ملك الروم (٤٥٠ – ٤٥٧) ، واتّبعوا معتقد المجمع الخلقيدوني المنعقد عام ٤٥١ ، وتركوا على تراخي الزمان طقسهم الانطاكيّ السريانيّ القديم وبدّلوا به الطقس البوزنطي اليونانيّ . قال ابن الصليبي الكاتب السرياني المشهور († ١١٧١) : « ويسمّون ايضاً ملكيين لانهم تركوا ايمان الآباء وتبعوا رأي مرقيان الملك »[2] . وقال طيمثاوس ، جاثليق السريان النساطرة (٧٧٩ – ٨٢٣) : « لمّا استخرجنا كتاب

1) وهكذا شبهه الفرنج نقلاً عن السريان ، فقالوا : Melkite

2) ܘܡܠܟܝ̈ܐ ܩܪܝܢ ܕܫܒܩܘ ܠܗܝܡܢܘܬܐ ܕܐܒ̈ܗܬܐ ܘܢܩܦܘ ܠܬܪܥܝܬܗ ܕܡܪܩܝܢܐ. (مقدّمة القدّاس) . اما زعمه انهم « تركوا ايمان الآباء » ، فلأنّ الكاتب ابن الصليبي كان مونوفيزيتياً مخالفاً لعقيدة مرقيان والمجمع الخلقيدوني .

التيكون من السريانية الى العربية . كان معنا (في بغداد) قومٌ يونان بينهم بطريرك الملكيّين »[1] . وكتب الى ماران زخا ، اسقف نينوى : « ان الايمان والعماد والكهنوت واحدٌ عندنا وعند الملكيين وعند السُّوريّين »[2] . وكتب المؤرّخ الرهاويّ عن يوحنا بن عبدون ، بطريرك السريان المنوفيزيتيين (١٠٠٤ - ١٠٣٠) ، انه لما ارتحل في ستة اساقفة وعدّة رهبان الى قسطنطينية كان معهم : « يوحنا اسقف ميافرقين الملكي »[3] . وكتب المؤرّخ عينه عن مرديانا ܡܪܕܝܢܐ ، اسقف ماردين ، انه في نحو السنة ١١٩٤ « ظعن الى قسطنطينية وصار خلقيدونيّاً وولَّاه الخلقيدونيون أبرشيّة ميافرقين . وهم ملكيّون يقضون صلواتهم وطقوسهم باللغة السريانية »[4] . وكتب المفريان غريغوريوس ابن العبري في معرض كلامه عن الأَديان الشائعة في عهده : « ومن النصارى من تحرّى طريقة وسطى بين طريقتي اليعاقبة والنساطرة فقالوا بالاتحاد الاقنومي الطبيعي . وهم اليونان ، والروم ، والملكيون السريان ، والموارنة السريان »[5] .

وما عدا السريان ، فان الملكيين انفسهم قرّروا ان اسم « الملكية » أُطلق عليهم منذ عهد مرقيان . قال سعيد ابن بطريق (✝٩٦٠) : « وخلف مرقيانَ الملكَ لاونُ وكان حسنَ الايمان ملكيّاً »[6] . وكتب عن انسطاس الملك انه

١) هو ثاودوريط بطريرك الملكيين (٧٨٧–٨١٣) وسيأتي ذكره في محله .

٢) ܗܝܡܢܘܬܐ ܐܦ ܡܥܡܘܕܝܬܐ ܘܟܗܢܘܬܐ : ܚܕ ܗܝ ܠܘܬܢ ܘܠܘܬ ܡܠܟܝܐ ܘܣܘܪ̈ܝܝܐ . واراد « بالسوريّين » اتباع سويرا ، بطريرك انطاكية (٥١٢–٥١٨) ، الآتي ذكره .

٣) ܝܘܚܢܢ ܐܦܝܣܩܘܦܐ ܡܠܟܝܐ ܕܡܝܦܪܩܝܛ : الرهاويّ ٦٣ من التاريخ البيعي . وميخائيل الكبير ٥٦٣ .

٤) ܐܬܚܠܩ ܠܩܘܣܛܢܛܝܢܘܦܘܠܝܣ ܘܗܘܐ ܟܠܩܝܕܘܢܝܐ . ܘܐܣܡܟܘܗܝ ܟܠܩܝܕܘܢܝܐ ܡܛܪܢܐ ܕܡܝܦܪܩܝܛ : ܘܐܝܬܝܗܘܢ ܡܠܟܝܐ . ܘܡܫܡܠܝܢ ܬܫܡܫܬܐ ܣܘܪܝܝܬܐ ١٠١ من التاريخ البيعي . واطلب مقالتنا في المشرق ١٠ [١٩٠٧] ٦٦٦ .

٥) ܘܐܝܬܝܗܘܢ ܐܢܫܐ ܡܨܥܝܐ ܒܝܢ ܬܪܬܝܢ ܐܘܪ̈ܚܬܐ ܗܠܝܢ . ܘܚܕܝܘܬܐ ܩܢܘܡܝܬܐ ܟܝܢܝܬܐ ܐܡܪܝܢ . ܘܐܝܬܝܗܘܢ ܝܘܢܝܐ ܘܪ̈ܗܘܡܝܐ . ܘܡܠܟܝܐ ܣܘܪ̈ܝܝܐ . ܘܡܪ̈ܘܢܝܐ ܣܘܪ̈ܝܝܐ . منارة الاقداس ف ٣ ق ٦ اساس ٤ .

٦) تاريخ ابن بطريق ، طبع بيروت ، ١ : ١٨٤ و١٦٣

« كان يعقوبياً مخالفاً لمقالة الملكية » . وكتب ابن الراهب القبطي : «مرقيان الملك . في ايامه كان المجمع الرابع بخلقيدونية في اول سنة من ملكه بحضور ستمائة وثلثين اسقفاً . وسُميت الطائفون للملك القائلون بقوله ملكية » . وكتب ايضاً : « انسطاس يعقوبي . نفى . . . فلابيانس بطريرك انطاكية لاجل انه كان على رأي الملكية »[1] . وكتب اغابيوس المنبجي الرومي الملكي : « ومات ثاودوسيوس الصغير وتملك بعده مرقيان قيصر الحسن العبادة . . . وكان في ايامه المجمع الرابع في خلقيدونية . . . انهم يا اخي الملكي : ان السريان يبغضون هذا الملك »[2] . وكتب المؤرخ نفسه : « وفي السنة الرابعة عشرة لهرقل (٦٢٤) ضيق كسرى على اهل الرها ممن كان على رأي الملكية ، واخذهم بان يقولوا بقول اليعقوبية »[3] . وكتب ايضاً : « اتى هرقل الرها فأمر النصارى الذين بها بالرجوع الى رأي الملكية فرجعوا الى هذه الثانية عن اليعقوبية خلا نفر منهم فانهم ثبتوا في اليعقوبية »[4] . وكتب المؤرخ القبطي ابن العميد (+ ١٢٧٣) : « وأمر مرقيان بحرم ديسقورس . . . فمن ذلك الوقت افترقت الكنيسة وصارت على مذهب مرقيان الملك . واليعقوبية على مذهب ديسقورس » . واستتلى : « وكان لاون الملك على مذهب الملكية . . . يوسطنيانس ملك تسعاً وثلاثين سنة باتفاق المؤرخين . . . وكان ملكياً . . . واحضر طيمثاوس بطريرك الاسكندرية الى قسطنطينية وأمره ان يرجع الى مذهب الملكية فلم يقبل »[5] .

اخيراً كتب السيد البطريرك مكسيمس الثالث مظلوم (+١٨٥٥) : « واما لقب كنيستنا بتسمية ملكية . . . فقد أُعطي لما غب نصف الجيل الخامس للمسيح . . . من السريان الذين حُرموا من المجمع الخلكيدوني . الذي كان محامياً عن تحديداته وأوامره المقدسة الملك مركيانس . . . فهذا اللقب الذي

١) تاريخه الذي نشره الاب لويس شيخو اليسوعي ٤٨-٤٩

٢) تاريخه الذي نشره الاب المشار اليه ٣٧

٣) فيه ٣٢٥-٣٢٦ ٤) فيه ٣٢٩

٥) تاريخه . نسخة دير الشرفة المكتوبة في السنة ١٦١٨ ، صفحة ٢٨ و٢٩ و٤٤ و٤٥ من نسختنا المنقولة عنها .

درج على ابنـاء الكنيسة اليونانية خاصةً اي ملكية انما يعني تابعي المجمع الخلكيدوني... لان نسبته هي للملك مركيانس لا غير . ومعناه اتباع المجمع الخلكيدوني لا سواه »[1].

اما كتبة العرب ومؤرخوهم فقد نهجوا نهج السريان باطلاقهم على الملكيين اسم « ملكيين » و« ملكائيين » و« ملكانيين » . قال محمد بن احمد البيروني في صدر « كلندار الكنيسة الانطاكية » : « القول على مـا يستعمله النصارى الملكائية في الشهور السريانية . النصارى مفترقون فرقاً فالاولى منهم الملكائية وهم الروم . وانمـا سُمّوا بذلك لان ملك الروم على قولهم ... الثانية النسطورية ... والثالثة اليعقوبية »[2] . وكتب القلقشندي نقلًا عن شهاب الدين العمري الدمشقي : « وصيّة بطريرك النصارى الملكانيين ... الباب (البـابا) الذي هو رأس الملكانيين... مكاتبة الباب (البـابا) وهو بطريرك الملكية القائم عندهم مقام الخليفة »[3] . وكتب عبدالله بن اسمعيل الهاشمي في رسالته الى عبد المسيح بن اسحق الكندي : « وناظرتُ فيها (في المسائل الدينية) من اهل فرقكم هذه الثلث التي هي ظـاهرة : اعني الملكيّة القابلين مركيانوس الملك... وهم الروم . واليعقوبية... والنسطورية »[4].

ونقل الاب لويس شيخو اليسوعي : « ان النصـارى اصبحوا ثلاث فرق مشهورة وهي الملكية اهل الأمانة الذين نسبوا الى مرقيـان قيصر الملك . واليعقوبية وهم اهل مذهب ديسقورس... والنسطورية وهم نصارى الشرق »[5].

وكانت هذه الفرق الثلاث آرامية الجنس ، سريانية اللغة والطقس .

يستخلص من ذلك كله ان اسم « الملكية » أطلق منذ أواسط القرن الخامس على اتباع المجمع الخلقيدوني المقدس ومرقيان ملك الروم ، اعني على الروم ، وعلى السريان الموارنة معاً . وظل هذا الاسم يشمل الامتين السريانيتين

---

١) القائد الامين ١ : ٦

٢) المشرق ٥ [١٩٠٢] ٣ ٣) المشرق ٥ [١٩٠٢] ٢٠٨

٤) طبعة لندن ، سنة ١٨٨٠ ، ص ٥

٥) مجاني الادب ٣ : ٢١٥

الموما اليها مدة تنيف على مائتين واربـع وثلاثين سنة (٤٥١ — ٦٨٥)، فافترقتا[1]، وانشأت كل منهما بطريركيةً مستقلةً عُرفت احداهما ببطريركية السريان الموارنة، والاخرى ببطريركية السريان الملكيين. وكلتاهما انطاكيتان.

٢ً: البطريركية الانطاكية

كانت سلطة البطريرك الانطاكي، حتى القرن الخامس، تشمل جميع نصارى سورية، وفلسطين، وقبرس، وفونيقي، وما بين النهرين، وارمينية، وآسية الصغرى، والعراق، والعرب، وفارس[2]. فانسلخت عنه، اول بدء، جاثليقيّتا آسية والبنطس. ثم قبرس عام ٤٤٥؛ فسليق وقطسفون اي المدائن عام ٤٩٨؛ فبطريركية السريان المنوفيزيتين عام ٥٣٩؛ فجثلقة الارمن.

وقد انشأ كاتب يوناني في عهد انسطـاس الاول، بطريرك انطاكية (٥٥٩ — ٥٧٠)، لائحة ضمّنها اسماء الكراسي المطربوليتية والاسقفية اللاحقة بالكرسيّ الانطـاكي. وهذه اللائحة نُقلت الى السريانية في تلك القرون، وحُفظ منها نسختان قديمتان احداهمـا في دير الزعفران، والثانية في الرها، هذا ملخصها:

• كرسي انطاكية البطريركي. يخضع له سبعة كراسي اسقفية مستقلة يُسمّى اصحابها وكلاء. وهي: حلب. قنسرين. جبلة. سلوقية. حنصرتا. فلاطونية. جبّول. وكرسيّان استقفيّان يرسل البطريرك صاحبيهما في شؤون دينية. وهما: سلامية وبراقوسون. واربعة كراسي يساعد البطريرك اصحابُها في الشؤون الخطيرة وهي: بيروت. حمص. اللاذقية. قورس.

• اما مطربوليتات البطريركية الانطاكية فهي اثنتا عشرة. اولاً: صور واساقفتها ثلاثة عشر، ثانياً: طرسوس ٦[3]، ثالثاً: الرها ١٢، رابعاً: افامية ٧،

١) استمرّت هاتان الامتان السريانيّتان امةً واحدةً حتى اواسط القرن الثـامن كما سترى في كلامنا عن الحقبة التي فرغ فيها الكرسي الانطاكي من السنة ٧٠٢ الى السنة ٧٤٣

٢) كان الملكيون منتشرين في العراق، واذربيجـان، ومرو بخراسان، حتى اواخر القرن الثالث عشر (التاريخ المدني السرياني لابن العبري ٥٢٧، والمشرق ٥ [١٩٠٢]٥)

٣) تدل الارقام على عدد الاساقفة.

خامساً : منبج ١١ ، سادساً : بصرى ١٩ ، سابعاً : عين زربا ٨ ، ثامناً : سلوقية ايسوريا ٢٥ ، تاسعاً : دمشق ١١ ، عاشراً : آمد ٨ ، حادي عشر : الرصافة ٥ ، ثاني عشر : دارا ٣ . والجملة بطريرك ومائة وثلاثة واربعون اسقفاً »[١].

وقد أصاب مجمع السريان الموارنة باحصائه هذه الابرشيات بعينها[٢] . وحذا حذوه السيّد غريغوريوس عطا ، مطران حمص وحماة ، مع بعض تحوير ، وختم بقوله : « وهكذا كان يخضع للكرسي البطريركي الانطاكي مائة وثلاثة وخمسون اسقفاً على عدد السمكات الكبار التي وُجدت في شبكة بطرس هامة الرسل ، مؤسس هذا الكرسي »[٣].

وبعد هذه اللائحة انسلخت عن الكرسي الانطاكي ابرشية العرب ، وتمذهب سكانها ، منذ القرن السادس ، بمذهب المنوفيزيتيين . وفي نحو السنة ٧٣٢ ، سلخ منه لاون الملك مطروبوليتية ايسورية مع كراسيها الخمسة والعشرين . ثم انفصلت عنه ، في نحو السنة ٧٦٨ ، مطرانية الكرج ، وصيّرها البطريرك ابن قنبرة (٧٤٥ - ٧٦٨) جثلقة وتأيدت هذه الجثلقة عام ١٠٥٣[٤].

ومهما كان للبطريركية الملكية في اوّل عزّها من كثرة الاساقفة في قلب ابرشيات السريان المنوفيزيتيين كملطية ، والرها ، وحرّان ، وديار بكر ، وميافرقين ، ومنبج ، وحلب ، وبغداد ، واذربيجان ، ومرو ، وتيليقية ، فقد تناقصت في القرون المتوسطة شيئاً فشيئاً ، وأمست لا تشتمل على ثلث ما تشتمل عليه بطريركية السريان المنوفيزيتية . فقد انطوت هذه البطريركية في تلك الحقبة على نيّف ومائة وستين ابرشية كان يشغلها زهاء مليونين من النفوس . امّا بطريركية الملكيين فلم تكن تتجاوز ابرشياتها الثنتين والخمسين ، ولم يكن يشغلها اكثر من نصف مليون . بل ان عدد السريان المنوفيزيتيين ، يوم

١) مجلة الآثار الشرقية في اعداد سنتها الاولى ١٩٢٦

٢) المجمع اللبناني المنعقد عام ١٧٣٦ (٢٥٧-٢٦٠) ؛ المشرق ٩ [١٩٠٦] ٢٠١

٣) الجدول الثالث المختصر نقلاً عن التخبكون (صفحة ٤ من النسخة المكتوبة بخط يد المؤلف عام ١٨٧٤) وهي تحتنا .

٤) المشرق ٩ [١٩٠٦] ٢٠٢

احتلّ الصليبيون بلاد المشرق ، كان يفوق عدد الملكيين واليونان حتى في انطاكية وضواحيها عينها[1]

امّا في عهدنا فقد انحصرت ابرشيات الملكيين في ثلاثة عشر كرسياً وهي: دمشق. حلب. صيدا. بيروت. حمص وحماة ويبرود. زحلة والفرزل. بعلبك. صور. عكا. حوران. ديار بكر. جبيل. طرابلس. ويضاف اليها ، عند الملكيين الكاثوليك ، ثلاثة اساقفة باسم القلالي الانطاكية ، والاسكندرية ، والاورشليمية[2]. وعند الملكيين ، غير الكاثوليك ، كرسي اللاذقية ، وكرسي عكّار ، ومطران في اميركة.

ومن البطريركية الانطاكية تفرّعت عام ١٠٩٨ -١٢٦٧ بطريركية اللاتين. وفي القرن الثالث عشر ، انفصلت بطريركية الملكيين ، وسُمّي اصحابها فوتيوسيين . وفي السنة ١٦٦١ نشأت بطريركية السريان الكاثوليك . وفي السنة ١٧٢٤ تأيدت بطريركية الملكيين الكاثوليك . فاصبح من ثمّ في عهدنا هذا ستة بطاركة انطاكيين وهم بطاركة الموارنة ، والملكيين ، والسريان ، واللاتين، وارثيهم كاثوليكيّون. ثم بطريرك السريان اليعاقبة ، وبطريرك الملكيين غير الكاثوليك.

هذا واذا شئنا ان نخصص الكلام ببطاركة انطاكية ، قلنا : ان عدداً صالحاً منهم ، ولاسيا الاولين ، قد زيّنوا هذا الكرسي الرسولي بمساعيهم وسفك دمائهم وعبقريتهم وغيرتهم. كاغناطيوس النوراني، وثاوفيل ، وبابولا ، واوسطاثيوس وميليطس ، وفليبانس الخ.

ومنهم مَن مرق من الدين القويم كبولس الشيشاطي ، وزعماء الاريوسية، والمنوفيزيتية ، والمنوثوليتة ، والفوتيوسية. ومنهم من خرج عن طاعة الكرسي الرسولي الروماني.

وما عدا تراحم بطاركة اريوسيين ومنوفيزيتيين ومنوثولوتيين وفوتيوسيين

١) راجع كرلفسكي، ص ٦١٢ من معجم التاريخ والجغرافية البيعيّ. ومن شاء الاطلاع على عدد ابرشيات السريان في تلك العصور فليراجع الفهارس الملحقة بتاريخ ميخائيل الكبير

٢) السيد غريغوريوس عطا: الجدول الثالث المختصر.

ودخلاء في الكرسي الانطاكي، فقد انتابت هذا الكرسي غوائل شتى وآفات قتالة لسبب الزلازل[١]، او لدواعٍ دينية ومدنية كالبدع المتواصلة، والحروب الطاحنة، وتسيطر ملوك بوزنطية وبطاركتها. فأمسى ذلك الكرسي بسببها شاغراً اكثر من مائتين وثمانين سنة في فترات مختلفة. ثم ألجئ بطاركته ان يتقبلوا السيامة، او التثبيت، من يد اساقفة قسطنطينية الذين كانوا دونهم رتبةً، ويقيموا في تلك العاصمة كرهاً او طوعاً زهاء ثلاثمائة سنة، الى ان جعلوا مركزهم في دمشق منذ نيف وخمسمائة وسبعين سنة. ومن ذلك كله يتحصّل ان بطاركة انطاكية الملكيين لم يستقروا في انطاكية اكثر من ثلاثمائة وثلاثين سنة فقط. هذا ما عدا ان فريقاً منهم كانوا يونانيين جنساً ولغةً، مما اثر في الطقس الانطاكي القديم وبُدّل به الطقس البوزنطي الحديث.

***

بعد هذا نقول: اننا نشرنا، منذ ربع قرن، كتابنا «الزهرة الزكية في البطريركية السريانية الانطاكية» بدءاً من مار بطرس رئيس الرسل حتى عهدنا. ثم اثبتنا على صفحات المشرق، عام ١٩٢٣، سلسلة بطاركة انطاكية السريانيين المنوفيزيتيين. والآن رأينا ان نثبت، تكملة للسلسلتين، سلسلة بطاركة انطاكية الملكيين، مستندين، في ما نرويه، اولاً: الى مقالة متينة انشأها البحّاثة المدقق كرلفسكي، ونشرها المونسنيور بودريار عام ١٩٢٤ في معجم التاريخ والجغرافية البيعي[٢]. ثانياً: الى تاريخ سعيد بن بطريق، بطريرك الاسكندرية، ويحيى بن سعيد الانطاكي[٣]. ثالثاً: الى تاريخ اغابيوس بن قسطنطين الرومي المنبجي[٤]. رابعاً: الى تاريخ ابن العميد[٥]. وننبه القارئ النجيب ان اثنين فقط من هؤلاء

١) اثبت الاب لامنس اليسوعي ذكر زهاء خمسين زلزلة حدثت في سواحل البحر المتوسط منذ السنة ١٣١ م حتى السنة ١٨٧٣، ولاسيما في انطاكية، افظعها زلزلة السنة ٥٢٦ في عهد البطريرك افرام (٥٢٦-٥٤٥)

٢) *Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique*, III, pp. 583-703

٣) نشرها الاب لويس شيخو، في المطبعة الكاثوليكية، عام ١٩٠٩

٤) نشره الاب لويس شيخو، عام ١٩١٠-١٩١٢

٥) نسخة دير الشرفة المكتوبة عام ١٦١٨

المؤرخين الاربعة ، وهما يحيى بن سعيد واغابيوس المنبجي ، كانا من اتباع البطريركية الانطاكية الملكية . اما المؤرخان الآخران فكانا من اتباع بطريركية الاسكندرية .

على انه لما كانت تواريخ هولاء الاربعة ، مع تاريخ ابن الراهب القبطي ، عمومية اي دينية ومدنية معاً ، وكانت اخبارهم مختصرة وجيزة لا تفي بالمرام ، رحنا نستعين في تأليفنا هذا بمؤرخي السريان ، ولاسيما ميخائيل الكبير († ١١٩٩) والرهاوي الذي تستغرق اخباره الدينية حتى السنة ١٢٣٤ ، وتواريخ ابن العبري († ١٢٨٦) البيعة والمدنية ، في السريانية والعربية . ولا يخفى ان ما رواه هولاء الثلاثة عن بطاركة انطاكية الملكيين يفوق جداً ما كتبه الملكيون انفسهم ، كما سترى ، وهو يستحق كل اعتبار وثقة ، لانهم كتبوا ما كتبوا عن شهود عيان ، وعن وثائق خطيّة راهنة ، وقد كانوا عائشين مع الملكيين وممتزجين بهم اصلاً ولغةً وطقساً[1].

اما الملكيون المتأخرون ، كالبطريرك ميخائيل الثاني ، عام ١٤٠٠ ، ومقار

---

١) استقى السريان مصادر تواريخهم عن اوسابيوس القيصري ، فنقلوا تاريخه الى لغتهم ، قبل السنة ٤٦٢ ، كما يُستفاد من نسخة مكتبة بطرسبرج السريانية المكتوبة في هذه السنة والتي نشرها الاب بولس بيجان عام ١٨٩٧ . ثم استمانوا ، كما اثبتوا في مقدمات كتبهم ، بتواريخ زوسيمس ، وانريقيانس ، وسقراط ، وثاودريط ، واندرونيقس . وبعد هذا اخذوا يصنفون التواريخ البيعية والمدنية بلغتهم السريانية توًّا بدءًا من زكريا البليغ ، اسقف ملطية ، الذي درس الفقه في جامعة بيروت عام ٤٨٧ و٤٨٨ وانهى تاريخه في عهد مرقيان في السنة ٤٥٧ ، ثم يوحنا تلميذ بطرس اسقف الكرج . ويوحنا فيلوفونس النحوي الاسكندري . وتورا القس السروجي الذي ختم اخباره في عهد طيباريوس الملك († ٥٨٢) ويوحنا ، اسقف اسية ، الذي نشر كيرتون تاريخه في اكسفرد عام ١٨٦٣ ، وتنتهي اخباره في السنة ٥٨٠ ، وجيورجي اسقف الكوفة . ويوحنا العمودي اليثربي نحو السنة ٦٨٨ ، ويعقوب الرهاوي († ٧١٨) وديونوسيوس التلمحري ، البطريرك († ٨٤٣) ودانيال بن موسى الطورعبديني؛ ويوحنا بن سموئيل ؛ وثاوفيل بن توما الرهاوي الماروني († ٧٨٥) وثاودوسيوس ، اسقف الرها ، نحو السنة ٨٥٠ ؛ واغناطيوس الملطي († ١٠٩٠) ؛ وابونيس ، مطران كيسوم ؛ وابن الصليبي ، مطران امد († ١١٧١) . وقد ذكر ميخائيل الكبير كلًّا من هولاء في موضعه ، واثبت ما نقله عنهم بالحرف الواحد . ويضاف الى هولاء المؤرخين برصوما ، شقيق ابن العبري († ١٣٠٨) الخ .

الثالث (+١٦٧٢) والارشدياقون بولس ، واثناسيوس دبّاس (+١٧٢٤) والقس ميخائيل بريك ، والسيد مكسيمس مظلوم ، والمطران غريغوريوس عطا ، فان رواياتهم كلها مختصرة جدًّا ، وليست بذات بال ، ولا يُعتمد عليها.

وعليه فسدًّا للخلل ، وتكملةً لاخبار المِلّة الملكية الكريمة ، رأينا ان ننشر كلمتنا هذه في قسمين :

ندرج في القسم الاول اخبار بطاركتها الانطاكيين تدريجيًّا ، بدءًا من مار بطرس ، رئيس الرسل ، حتى يومنا.

ونخص القسم الثاني بذكر لتتها الوطنية والطقسية سابقاً وحاضراً ، فنقول :

القسم الاول

الحقبة الاولى

اساقفة انطاكية (٣٦-٥٢٦)

لم يُطلَق على اساقفة انطاكية اسم «بطاركة» الّا في اواسط القرن الخامس ، فكانوا لذلك العهد يُسَمّون اساقفة سوريّة او اساقفة انطاكية. واليك سلسلتهم واحدًا فواحدًا ، نقلًا عن كُلفسكي البحّاثة المدقق :

١ بطرس الاول رئيس الرسل (٣٦—٤٣)

انتشر الايمان المسيحي في انطاكية بمساعي آبائنا الرسل ، وفي مقدمتهم بولس الرسول ، الذي قصد تلك العاصمة اربع مرّات ، ووطّد ابناءها في الايمان حتى دُعوا فيها مسيحيين اولًا (اعمال الرسل ١١: ٢٦) ، قبل سائر المؤمنين. وقد أجمع المؤرخون كافةً على مجيء كيفا صاهِل بطرس الى انطاكية (غلاطية ٢: ١١) بين السنة ٣٦ و٣٨ ؛ غير انهم اختلفوا في تحديد مدة اقامته فيها اختلافهم في تعيين السنة التي فارقها الى رومية حيث أسس كرسيه ، وفيها تم تكليله عام ٦٧.

٢ اوديوس

لم يتصدَّ اوسابيوس القيصري وغيره لتحديد سنة جلوس اوديوس على الكرسي الانطاكي، كما انهم لم يذكروا سنة وفاته.

٣ اغناطيوس الاوّل († ١٠٧)

حفظ لنا التاريخ شيئاً من اخبار هذا الاسقف الانطاكي النبيل، كما حفظ رسائله المستبدعة المؤثرة. وقد نُشر نصّها السرياني[١]. واثبت التقليد اليوناني عنه انه هو الذي احتضنه السيد المسيح، وقال: «من قبل هذا الصبيّ باسمي فأياي يقبل» (مرقس ٩: ٤٨). ثم تتلمذ ليوحنا الرسول الحبيب، ورقّاه بولس الرسول الى اسقفية انطاكية. وروى المؤرخون السريان ان اغناطيوس هذا رأى بالروح الملائكة يترنمون جوقتين، فلقن الكنيسة ان تحذو هذا الحذو في صلواتها. وقد ساس الكرسي الانطاكي حتى السنة ١٠٧، فكُبّل بالقيود، وسيق الى ازمير فرومية، وأُلقي الى الاسود في مسرح العاصمة فنهشته، ولم تُبقِ الّا عظامه الكبيرة، فنقلها الى انطاكية خلفه ثئودوط (٤١٧-٤٢٨). وتحتفل الكنيسة بتذكار استشهاده في ٢٠ كانون الاول، وبتذكار نقل عظامه الى انطاكية في ٢٩ كانون الثاني.

٤ هيرون

٥ قرنيليوس

٦ اروس

لم يُثبت اوسابيوس (٤: ٢٠) عن هؤلاء الاساقفة الثلاثة الانطاكيين شيئاً غير اسمائهم فقط. ويقال ان اولهم استُشهد عام ١٢٧، وثانيهم عام ١٥٤، وثالثهم عام ١٧٠

١) اخبار الشهداء والقديسين في السريانية، طبع الاب بولس بيجان، ٣: ١٩٩-٢١٥؛ واوسابيوس القيصري ٣: ٣٦؛ وفيها يُدعى «اسقف سورية» و«اسقف انطاكية».

٧ ثيوفيل (+ ١٨٢)

انشأ هذا الاسقف الانطاكي الجليل مقالات وتآليف دينية جيدة ، اطلع عليها اوسابيوس المؤرخ ووصفها (٤ : ٢٤) . منها ثلاث مقالات ضد اوطوليقس ، ومقالة ضد هرموجنيس ، ومقالة محكمة ضد مرقيون . وصنف كتباً أخرى في صحة الدين المسيحي . وانتقل في عهد مرقس اوراليوس ، نحو السنة ١٨٢

٨ مكسيمينس (١٨٢ — ١٩١)

ترأس ، فيما قيل ، ثماني سنوات . وروى بعضهم اسمه مكسيمس ، بدلاً من مكسيمينس .

٩ سرابيون (١٩١ — ٢١١)

انتُخب عام ١٩١ ، واشتهر برسالة كتبها الى قرقس وفنطيقس ، دحضاً لبدعة الفرنجيين . وقد وقَّع على رسالته هذه اساقفة كثيرون ، ووافقوا عليها[1] وحلَّت وفاته عام ٢١١

١٠ أسقلباد (٢١١ — ٢١٨)

لم يروِ المؤرخون سوى سنتي تنصيبه ورقاده ، كما اثبتناهما

١١ فيليطس (٢١٨ — ٢٣١)

روى بعضهم اسمه « فيلين » بدلاً من « فيليطس » ، ولم يذكر المؤرخون شيئاً من اعماله

١٢ زبينا (٢٣٢ — ٢٣٨)

يظهر من اسمه السرياني ܙܒܝܢܐ اي « مُشتَرٍ » انه كان من انطاكية او من ضواحيها . ويرجح انه تولى الاسقفية في عهد مكسيمان قيصر (٢٣٥-٢٣٨) وقيل انه شغل الكرسي الانطاكي الى عهد غرطيان الثالث (٢٣٨ — ٢٤٣)

١) اوسابيوس ٥ : ١٩ و٢٢

١٣ بابولا (٢٣٨ او ٢٤٤ ــ ٢٥٠)

قيل انّه تولّى الكرسي الانطاكي عام ٢٣٨ ، وقيل بل عام ٢٤٤ . وفي هذه السنة خرج على مرقس يوليوس فيلبس، حاكم انطاكية المسيحي، الدخول الى الكنيسة ، فجرد مرقس وأوغر عليه صدر مكسيميان قيصر ، فألقاه في السجن . ثم استيق الى دفنه (دفني) بجوار انطاكية ، في ثلاثة من تلاميذه وجماعة من المسيحيين . وهناك استشهدوا جميعا في السنة ٢٥٠ . وابتنى لهم غاليوس قيصر مزارًا كان يحجّه المسيحيون الى عهد يوليانس الجاحد . ويقيم السريان تذكارًا لبابولا والصبيان الذين معه في ٢٤ كانون الثاني وفي ٤ ايلول .

١٤ فبيوس (٢٥٠ــ٢٥٣)

خلف بابولا عام ٢٥٠ ، وكاتب قرنيليوس الحبر الروماني (٢٥١-٢٥٥) في مسئلة نابطيان الذي اختلس الكرسي الروماني . وتوفي فبيرس في السنة ٢٥٣

١٥ ديمتريانس (٢٥٣ ــ ٢٦٠)

انتُخب في بدء السنة ٢٥٣ ، ويقال انه استُشهد عام ٢٦٠

١٦ بولس الاوّل (٢٦٠ــ ٢٦٩)

هو المشهور بالشميشاطي ، نسبة الى بلدة على ساحل الفرات . كان ثاقب العقل، مستخدماً في بلاط زينب ملكة تدمر . وما كاد يرقى الى الاسقفية الانطاكية حتى انجلت مضمرات قلبه ، اذ ادّعى ان المسيح ربّنا انسان فقط تبرّر باعماله وتألّه . فالتأم في انطاكية عام ٢٦٤ ثلاثة عشر اسقفاً بساعي ديونوسيوس اسقف رومية (٢٥٩-٢٦٨) فأرشدوه ، فارعوى ، فأيدوه في كرسيه . بيد انه ما لبث ان انقلب الى غوايته ، فاجتمع ثمانية وثمانون اسقفاً في انطاكية عام ٢٦٩ ، وعزلوه وحذفوا اسمه من الذبتيخة[1] ، واقاموا بدلًا منه دمنوس[2] . ثم نفي عن انطاكية عام ٢٧٢

١) الذبتيخة لفظ يوناني يراد بها صحيفة تُرقم عليها اسماء الآباء الابرار ، وتوضع على المذبح .
٢) المشرق ١ [١٨٩٨] ٦٢١-٦٢٥

١٧ دمنوس الأوّل (٢٦٧ـ٢٦٨)

كان ابن ديمتريانس ، اسقف انطاكية السابق ذكره ، وحلّت وفاته في السنة ٢٦٨ ، وقيل في السنة ٢٧٠

١٨ طيمثاوس (٢٧٠ـ٢٧١)

لم يترأس ، فيما يرجح ، الا سنة واحدة .

١٩ قرلّس الاوّل (٢٧٩ـ٣٠٣ † ٣٠٦)

هو الذي قبل القديس لوقيان في شركة الكنيسة ، ورقّاه الى الرتبة الكهنوتية . وكان لوقيان هذا خبيراً بعلم الكتاب المقدس[1] . اما قرلس الاول فقد نفي عن انطاكية واقام في المنفى ثلاث سنوات (٣٠٣-٣٠٦) وانتقل الى الاخدار العلويّة ، وأحصي في مصاف الابرار المعترفين .

٢٠ طورانس (٣٠٣ـ٣١٤)

في عهد اسقفية طورانس جدّد ديوقلطيانس قيصر (٢٨٤-٣٠٥) الاضطهاد على المسيحيين . فأقبل الى انطاكية إجابة الى طلب واليها مكسيمنس هرقوليس فقتل خلقاً كثيراً اشهرهم لوقيان السابق الذكر ، وروملنس ، وطيرانيون اسقف صور ، وزنوبيس قس بيعة صيدا الطبيب الماهر ، وسلوانس اسقف حمص الذي ساس رعيته اربعين سنة[2] ، وسلوانس اسقف غزّة مع تسعة وثلاثين شهيداً ، ويمفيلوس اسقف قيسارية فلسطين . وتوفي طورانس عام ٣١٤

٢١ فيطاليس (٣١٤ـ٣٢٠)

حضر فيطاليس ، في اول سنة اسقفيته ، مجمع انقرة الاقليمي عام ٣١٤ ، وحضر ايضاً مجمع ناوقيسارية بنطس . وأسس كنيسة في ضواحي انطاكية .

---

١) اوسابيوس ٨: ١٣ ، و٩: ٦
٢) اوسابيوس ٩: ٦

٢٢ فيلوجين (٣٢٠—٣٢٥)

اكمل فيلوجين الكنيسة التي وضع سالفه حجرها الاول . وأبدى شجاعة وغيرةً وشهامةً في الدفاع عن الايمان المقدس مدة ثلاث سنوات ، واستغرقت اسقفيته خمس سنوات ، على ما اثبت تلوفان المؤرخ .

٢٣ اوسطاثيوس (٣٢٥—٣٣١ † ٣٣٧)

اشتهر اوسطاثيوس بدحضه بدعة اريوس الملحد . وحضر المجمع النيقاوي المسكوني الاول من ٢٠ ايار الى ٢٥ آب ٣٢٥ ، مع ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً[1] . وتمّت الكنيسة في ايامه بالمدد والسكينة بمساعي قسطنطين الكبير الذي ابتنى ، هو وامه هيلانة الرهاوية[2] ، كنائس جمة ، ومن جملتها كنيسة مثمنة الزوايا ابتناها في انطاكية تيمناً باسم والدة الله مريم العذراء . وقد قرّر آباء المجمع النيقاوي : « ان صاحب انطاكية يكون مستولياً على اصقاعه كلها وان يخضع له مائة وثلاثة وخمسون مطراناً واسقفاً لكونه متولياً عمل فارس والمشرق » . وكان الكرسي الانطاكي يشتمل ، في تلك الحقبة ، على ثماني مقاطعات وهي : فلسطين ، وفونيقية ، وسورية ، والعرب ، وما بين النهرين ، وقيليقية ، وايسورية ، وقبرس . كان يسوسها ستة وتسعون اسقفاً . وقيل انه مُذ ذاك ، أطلق لفظ « بطريرك »[3] على الحبر الروماني ، ثم على الحبر الانطاكي ، ثم على الحبر الاسكندري .

---

١) عرف هذا المجمع المسكوني الاول باسم مجمع الثلاثمائة والثمانية عشر . مع ان اساقفة العالم المسيحي كانوا في ذلك العهد اكثر عدداً . وقد اثبت ميخائيل الكبير في ملحق تاريخه (صفحة ٧٤٦) : « ان تسمائة اسقف كانوا خاضعين للبابا ليباريوس » (٣٥٢-٣٦٦) فيستنتج من ذلك انه لم يتيسّر لجميع الاساقفة حضور المجمع لدواعٍ قاهرة .

٢) ابن العميد ٣٠

٣) قيل ان اباء المجمع الخلقيدوني هم اول من أطلقوا اسم « بطريرك » على لاون الاول الحبر الروماني . وقيل ان سقراط المؤرخ († ٤٤٠) ذكر هذا الاسم ، وان مار غريغوريوس النزينزي استعمله عام ٣٨٢ . وقد خصّه قرلّس الاسكندري بالبابا قلسطينس الاول (المشرق • [١٩٠٢] ٤٢٩، ٥٨٨)

على ان اوسطاثيوس، لما عاد من نيقية الى انطاكية، صادف فريقاً من الاهالي مشايعين لأريوس، فناهضهم بكل مكنته. لكنهم تغلّبوا عليه، ونفوه عام ٣٣٠. وقضى في المنفى سبع سنوات الى ان انتقل عام ٣٣٧، وقد أحصي في زمرة الابرار، واثبت الكلندار الانطاكي السرياني تذكاره في ٢٣ آب وفي ٥ حزيران، والكلندار الروماني في ١٦ تموز، والكلندار القسطنطيني في ٢١ شباط.

٢٤ فولين (٣٣٠ † ٣٩٤)

أُحصي فولين في عداد اساقفة انطاكية، مع انه نُصب في حياة سالفه اوسطاثيوس البطريرك الشرعي وما مرّت ستة شهور على اسقفيته حتى عُزل. ثم رُدّ ثانية الى الكرسي وتوفي عام ٣٩٤

٢٥ اولاليوس (٣٣٠—٣٣٢)

كان مولده في قبدوقية، وصُيّر اسقفاً على انطاكية عام ٣٣٠، حال كون اوسطاثيوس وفولين سالفيه في قيد الحياة. وتوفي عام ٣٣٢

٢٦ افرونيوس (٣٣٢ † ٣٤٣)

هذا ايضاً نُصب اسقفاً لانطاكية في حياة اوسطاثيوس وفولين، وتوفي عام ٣٤٣

٢٧ فلاقلّس (٣٣٥—٣٤٣)

في السنة الثانية لاسقفيته توفي اوسطاثيوس الاسقف الشرعي فتأيّد فلاقلّس في منصبه. وفي السنة ٣٣٥، حضر مجمع صور الذي فيه عزل القدّيس اثناسيوس اسقف الاسكندرية. ومن اخبار فلاقلّس انه استدعى الى انطاكية بعض اساقفة كرسيه، ودشّن الكنيسة الكبرى التي باشر ابتناءها سالفه اوسطاثيوس. وعلى اثر التدشين عقد فيها مجمعاً منذ ٢٢ ايار الى ايلول ٣٤١، وسنّوا خمسة وعشرين قانوناً[1]. وتوفي فلاقلّس عام ٣٤٣

١) نُقلت هذه القوانين الى السريانية في القرن السابع. وفي النسخ السريانية يُسمى هذا المجمع بمجمع تدشين كنيسة انطاكية: «ܩܢܘܢܐ ܕܐܬܟܢܫܘ ܒܡܕܝܢܬܐ ܕܐܢܛܝܘܟܝܐ»

٢٨ اسطفان الاوّل (٣٤٣ـ٣٤٤)

شايع اريوس في بدعته ، فنُزل في صيف السنة ٣٤٤

٢٩ لاونطيوس (٣٤٤ـ٣٥٨)

دافع عن بدعة اريوس كسالفه ، واستغرقت اسقفيته اربع عشرة سنة .

٣٠ اودكس (٣٥٨ـ٣٥٩ † ٣٧٠)

كان اسقفاً على مرعش ثم انتخب لانطاكية فشغل كرسيها حتى ايلول ٣٥٩ وفي ٢٧ كانون الثاني ٣٦٠ نُقل الى بوزنطية ، وساس كرسيها الاسقفي عشر سنوات ، وتوفي عام ٣٧٠

٣١ ميليطس (٣٦٠ـ٣٨١)

كان اسقف سبسطية بارمينية . ودافع عن حقيقة الاعتقاد بازلية ابن الله عزّ وجلّ . ولما كان يخطب يوماً في الكنيسة الكبرى ، مؤيدًا تلك العقيدة الراهنة ، هاج الاريوسيون وماجوا ثم نفوه الى ملطية ، وسموا بدلًا منه اوزيوس الاسكندري، حليف اريوس . فهبّ الارثذكسيون ونادوا باسم فولين السابق ذكره . وفي السنة ٣٦٢ عاد ميليطس الى انطاكية .

واتفق اذ ذاك ان يوليانس الجاحد ، « اعتزم على حرب الفرس فوافى الى انطاكية واراد يعلم هل ينجح ام لا . فدخل الى ايلون العرّاف ليسأله فلم ينقض له بشيء . وقال ان العظام التي بجواري تمنعني ان اعرّفك وعنى بذلك عظام القديس بابولا بطريرك انطاكية[1] . فامر الملك ان تخرج تلك العظام من المكان . فأخذها اهل انطاكية وجعلوها في صندوق في كنيسة . فحكم له ايلون العرّاف بعد ذلك بالنصر ! »[2].

وفي السنة ٣٦٥ ، جدّد والنس قيصر الاضطهاد على الارثذكسيين ، فعاد ميليطس الى ارمينية . واحتلّ الاريوسيون الكنائس ، فاضطر الارثذكسيون ان

---

١) اطلب هنا الرقم ١٣

٢) تاريخ المنبجي ٣٣ ، وعنه نقل المطران ابن العبد ٢٨-٢٩ من نسختنا

يقيموا الصلوات والطقوس في البراري والمناور المجاورة لانطاكية . وبعد هـذا تيسّر لميليطس العودة الى كرسيه بين السنة ٣٦٧ و٣٧٠ . وفي هـذه المدة عمد يوحنا فم الذهب ورقّاه الى الرتبة الدياتونية ، وخوّله وظيفة الوعظ في الكنيسة الكبرى . على ان والنس جعل مركزه في انطاكية منذ السنة ٣٧١ حتى وفاته في ٩ آب ٣٧٨ ، فنفى ميليطس ثالثةً . وظلّ في المنفى حتى ملك غرطيانس في آب ٣٧٨ ، فأعاده الى انطاكية ، واعاد معه جميع المنفيّين .

وفي ايلول وتشرين الاوّل من السنة ٣٧٩ ، عقد ميليطس مجمعاً في انطاكية مؤلّفاً من مائة وخمسين اسقفاً تلوا في اثنائه الرسالة التي بُعث بها من رومية . وفي شباط ٣٨١ عرض ميليطس على فولين الدخيل[1] ان يسوسا كلاهمـا الكرسي الانطاكي ، فأبى فولين . وتوجه في خريف السنة ٣٨٢ الى رومية ، وحضر هناك مجمعاً عُقد فيها ، وحصّل الاجازة بان يكون وحده الاسقف الشرعي ، وعاد الى انطاكية . وكان ميليطس قد توفي قبل سنة . ولميليطس هذا ذكرٌ في الكلندارين الروماني والقسطنطيني في ١٢ شباط[2] .

٣٢ فلبيانس الاوّل (٣٨١ــ٤٠٤)

أفضت اليه الرئاسة في آب ٣٨١ ، وكان فولين في قيد الحيـاة حتى السنة ٣٩٤ ، كما ذكرنا ، فاصبح فلبيانس منذ هذه السنة وحده في الكرسي الانطاكي . وسافر الى رومية وتأيد في منصبه ثم عاد الى انطاكية . وفي السنة ٣٨٧ نادى ثاودوسيوس الكبير بابنه ارقاديوس ملكاً ، وكتب الى جميع اهالي مملكته ان يحتفلوا لوليّ عهده بعيدٍ وطني . وزاد الضرائب ليتكرّم بها على جيشه . فسخط الانطاكيون ، وعمدوا الى تماثيله ، وحطّموه ، وحطّموا تماثيـل الملكة واولادها معاً ، فحنق الملك وأمر بتعذيب المشغّبين . وفي تلك الازمة الحرجة ظهر يوحنا فم الذهب على المنبر ، وتمكن ببلاغته المشهورة من اخمـاد اجيج الثورة . امّا

١) اطلب هنا الرقم ٣٤

٢) اطلب مقالة ممتعة عن تنازع اسقفية انطاكية من عهد ميليطس الى عهد الكسندر (٣٦٢-٣٩٣) في المشرق ٣٦ [١٩٢٨] ٧٣٦-٧٥١ . ويذكر السريان في كلندارهم قورلا ويوحنا وميليطس في ١٢ شباط ؛ واوسطاثيوس وميليطس في ١١ كانون الاول .

فلبيانس فقصد العاصمة واسترضى القيصر ، وعاد الى مركزه يسوس رعيته بحكمته وغيرته حتى توفاه الله في ٢٦ ايلول ٤٠٤

٣٣ بورفيرس (٤٠٤—٤١٦)

ساس الكرسي الانطاكي اثنتي عشرة سنة . واضمحلت الشيعة الاريوسية سنة قبل وفاته . وكان بورفيرس من افاضل الاساقفة الانطاكيين ، انفذ عام ٤١٠ الى ماروثا ، مطران ميافرقين السرياني الشهير ، رسالة تلاها اساقفة المشرق في مجمع عقدوه في السنة المذكورة وامضاها اقاق اسقف حلب ، وقيدا اسقف الرها ، واوسابيوس اسقف تل موزل ، واقاق اسقف آمد . واشتهر في عهده بورفيرس سويرنس ، اسقف جبلة المجاورة لانطاكية ، فاستُدعي الى بوزنطية ، وولاه اسقفها يوحنا فم الذهب منصب الخطابة في الكنيسة . وعلى رغم القائه الخطب باليونانية كانت لهجته السريانية ، اعني لغته الوطنية ، ظاهرة في تعابيره[1].

٣٤ الكسندر (٤١٦—٤١٧)

الى هذا الاسقف الانطاكي كتب اينوكنتيوس الحبر الروماني (٤٠٢—٤١٧) يذكره بالبند السادس من بنود المجمع النيقاوي الاول ويقول : « ترى من هذا البند ان كرسيك الانطاكي لم يحز هذا الامتياز الفاخر لعظم شأن انطاكية بل بالاحرى لان انطاكية كانت اول كرسي شغله بطرس هامة الرسل . »[2]

٣٥ ثئودوط (٤١٧—٤٢٨)

في عهد ثئودوط هذا نُقلت عظام مار اغناطيوس النوراني سالفه من رومية الى انطاكية ، بمساعي ثاودوسيوس قيصر الثاني (٤٠٨—٤٥٠)

٣٦ يوحنا الاوّل (٤٢٨—٤٤٢)

كان صديقاً لنسطور اسقف قسطنطينية (٤٢٨—٤٣١) . ولما عُقد المجمع الافسي المسكوني عام ٤٣١ انقسم الاساقفة حزبين : هذا مع يوحنا الاول ،

---

١) المنتخبات السريانية للسيد اغناطيوس افرام رحماني ٣ : ٨

٢) المشرق ٥ [١٩٠٢] ٤٢

وهذا مع ترلس اسقف الاسكندرية ، وممنون اسقف افسس . وما مرّت السنتان على هذا الاختلاف حتى كتب يوحنا ، عام ٤٣٣ ، صحيفة وقّعها هو واساقفته، مؤيدين فيها حرم نسطور ، وبعثوا بها الى ترلس الاسكندري . فتمّ الاتفاق بين الكرسيين الاسكندري والانطاكي . واشتهر في تلك الحقبة ربولا اسقف الرها السرياني (+ ١٨ آب ٤٣٥) الذي راسل ترلس، ثم يمم قسطنطينية ، وألقى في كنيستها خطبةً نتنيةً محكمةً دحض فيها زعم نسطور ، وأيد الحقيقة الدينية باقنوم ابن الله الواحد ، وبكون مريم العذراء امّ الله حقّاً(١).

٣٧ دمنوس الثاني (٤٤٢ــ٤٤٩)

هو ابن شقيق يوحنا اسقف انطاكية ، خلف عمه عام ٤٤٢ . وفي عهده ظهر اوطاخي المبتدع الزاعم بالطبيعة الواحدة . فاعلن الملك ثاودوسيوس (٤٠٨ــ٤٥٠) بعقد مجمع في افسس في آب ٤٤٩ ، وكتب الى لاون الاول ، بابا رومية (٤٤٠ــ٤٦١) ، في ارسال قصّاده . غير ان ديسقروس ، اسقف الاسكندرية ، تغلب في هذا المجمع الذي دُعي « مجمع اللصوص »، وقرّر الزعم بالطبيعة الواحدة كاوطاخي . واغلب اساقفة الكرسي الانطاكي لم يحضروا هذا المجمع . وعلى اثر ذلك عُزل دمنوس الثاني . واقام اناطول ، اسقف قسطنطينية، مكسيمس الاول بدلًا منه ، ورقاه بيده ، خلافاً للقوانين المرعية . وتوفي دمنوس في ايلول ٤٤٩

٣٨ مكسيمس الاول (٤٤٩ــ٤٥٥)

نصبه اناطول اسقف قسطنطينية ، كما قلنا . وفي السنة الثالثة لاسقفيته ، عُقد المجمع الرابع المسكوني في خلقيدونية ، وحضره ٦٣٦ اسقفاً تقدّمهم لاون الحبر الروماني بقصّاده . وتُليت فيه رسالته المشهورة بالطومس ܠܛܘܡܘܣ . وايّد الآباء مكسيمس في كرسيه . وكان الملك مرقيان والملكة بولخاريا حاضرين في هذا المجمع . وأعلن اغلب الاساقفة ، في غياب قصاد البابا الروماني،

(١) اخبار الشهداء والقديسين في السريانية ، طبع الأب بيجان ٤:٣٩٦ــ٤٧٠ . ويقيم الملكيون ذكراً لربولا في ٩ آب (المشرق ٥ [١٩٠٢] ٦٨) والسريان في ٨ اب ، وفي ١٢ كانون الاول .

ان تكون الكرامة ، بعد صاحب رومية ، لصاحب قسطنطينية ، فنُذلوا. اما مكسيمس الاول فعُزل عن كرسيه عام ٤٥٥ ، واشتهر اذ ذاك مار اسحق رئيس الدير الانطاكي الملفان . وهو اول كاتب سرياني ملكي انشأ في السريانية الفصحى ميامر بليغة سديدة المعاني جزيلة الفوائد ناهض بها بدعتي نسطور واوطاخي مناهضة قوية . وكانت وفاته في السنة ٤٦٠

٣٩ باسيل الاول (٤٥٦—٤٥٨)

شغل الكرسي الانطاكي سنتين.

٤٠ اقاق (٤٥٨—٤٥٩)

قيل ان اقاق تولى الكرسي الانطاكي عام ٤٥٨ ، وذكر ابن بطريق[1] وغيره ان مرطوريس تولى بعد باسيل ، واثبت ابن العبري مرطوريس بعد مكسيمس . اما ميخائيل الكبير فذكر دمنوس الثاني ، فمكسيمس الاول ، فمرطوريس ، فيليوس ، فاسطفانس ، فاسطفانس آخر ، فبطرس القصار.

٤١ مرطوريس (٤٥٩—٤٦٨)

قيل ان مرطوريس ، بعد ما شغل الكرسي الانطاكي تسع سنوات ، نفاه زينون البطريق ، واقام بدلا منه بطرس الثاني المعروف بالقصار . ثم عزل القصار ، وأعيد مرطوريس وشغل الكرسي ثلاث سنوات ايضاً ، وتوفي على ما يُرجح في المنفى.

٤٢ بطرس الثاني (٤٦٨—٤٧١ † ٤٨٨)

هو بطرس الملقب بالقصار . كان قسيس بيعة خلقيدونية .وكان له صلات مع زينون البطريق ، فاستولى على الكرسي الانطاكي بنفوذه بين السنة ٤٦٨ و ٤٧٠ ؛ وفي السنة ٤٧١ ، حمل جناديوس اسقف قسطنطينية من لاون الملك امرًا باعادة مرطوريس الشرعي وخلفه يوليان (٤٧١—٤٧٥) . ثم عاد القصار فاختلس الكرسي حتى عزله زينون صاحبه عام ٤٧٧ ، فسمى احزابه المنوفيزيتون يوحنا اسقف افامية بدلا منه ، وظل يوحنا هذا ثلاثة اشهر فقط ربما اقام

١) ١٨٢

زينون اسطفان الثاني (٤٧٨—٤٨١) عوضاً عنه . وهذا اسطفان فتك به كهنته المنوفيزيتيون . فاقام اقاق اسقف قسطنطينية بدلاً منه قلنديون (٤٨١—٤٨٥). وهذا قلنديون نقل ، عام ٤٨٤ ، رفات اوسطاتيوس سالفه الى انطاكية. ونفي قلنديون عام ٤٨٥ ، فتغلب بطرس القصّار على الكرسي حتى اخترمته المنية عام ٤٨٨ ، وهو الذي اضاف الى التريصاجيون ، اعني التقاديس الثلاثة ، زيادة «يا من صُلبتَ لاجلنا» التي امست العلامة الفارقة بين الكاثوليكيين وبين السريان والارمن المنوفيزيتيين . وانشأ بطرس القصار رتبة تبريك الماء ليلة عيد الظهور (وعسل الدنح) . وأمر بتلاوة قانون الايمان اثناء القدّاس في كنائس انطاكية .

٤٣ يوليان (٤٧١—٤٧٥)

تولى الكرسي الانطاكي اربع سنوات، فعاد بطرس القصّار واغتصبه .

٤٤ يوحنا الثاني (٤٧٧—٤٧٧)

قيل انه سُمّي اسقفاً لانطاكية بمشورة سمبليقيوس بابا رومية (٤٦٨—٤٨٣) وقيل ان المنوفيزيتيين سموه اسقفاً ، واقام ثلاثة اشهر . قال ابن بطريق : «وخلف مرقيان لاون وكان حسن الايمان ملكياً . وفي اثنتي عشرة سنة من ملكه صُيِّر يوحنا بطريركاً على انطاكية . اقام ست سنين ومات وخلفه يوليانس خمس سنوات» [1].

٤٥ اسطفان الثاني (٤٧٨—٤٨١)

تولى الاسقفية الانطاكية ثلاث سنوات ، وادركته المنون في ١٤ اذار ٤٨١

٤٦ قلنديون (٤٨١ — ٤٨٥)

على اثر عزل بطرس القصّار ، ثالث مرة ، نُصب قلنديون اسقفاً لانطاكية ، كما ذكرنا ، حتى نُفي عام ٤٨٥ ، فعاد القصار وتغلّب على الكرسي .

---

١) ابن بطريق ١ : ١٨٤ ؛ قال البحّاثة كرلنسكي، غير مرة ، ان السنين التي يثبتها ابن بطريق لا يُعتمد عليها .

٤٧ بلاديوس (٤٨٨–٤٩٨)

تظاهر بلاديوس بالمنوفيزيتية مجاراة لانسطاس الملك (٤٩١–٥١٨) المنوفيزيتي الذي ألجأ المؤمنين ان يستعملوا ما اضافه بطرس القصار الى التريصاجيون. وذكر ثاودريط المؤرخ ان بلاديوس امر بنزع صور بعض الآباء من الكنائس.

٤٨ فليبانس الثاني (٤٩٨–٥١٢)

جلس على الكرسي الإنطاكي بامر انسطاس الملك. وكان قسيساً في انطاكية، ووافق على كتاب زينون المعروف باسم «هنوتيكون»[1]. غير انه ما لبث ان جاهر بايمان المجمع الخلقيدوني، فسخط عليه الملك، ونفاه الى بترا. وفي عهده انسلخ السريان الشرقيون عن طاعة الكرسي الانطاكي وعُرفوا بالسريان النساطرة، واقاموا لهم رئيساً مستقلاً دعوه جاثليق المشرق عام ٤٩٨، وكان باباي اول من تولى ذلك المنصب في المدائن بجوار بغداد.

٤٩ سويرا (٥١٢–٥١٨)

سناه انسطاس اسقفاً على انطاكية بعد نفيه فليبانس سالفه[2]. وتم ارتقاء سويرا الى الكرسي الانطاكي في ٦ تشرين الثاني ٥١٢ وكان خبيراً باصناف العلوم. اقتبس الفقه في جامعة بيروت، مع صديقه زكريا البليغ في السنتين ٤٨٧ و٤٨٨، وانشأ خطباً شتى وترانيم يونانية، نُقلت الى السريانية وهو حي. وبعد وفاة انسطاس، في ٩ حزيران ٥١٨، عُزل سويرا لشديد تشبثه بالزعم بالطبيعة الواحدة. ونفاه يوسطينوس الاول (٥١٨-٥٢٧) في ٢٠ ايلول ٥١٨ الى برية مصر، وتوفي عام ٥٣٨

٥٠ بولس الثاني (٥١٩–٥٢١)

تولى الكرسي الانطاكي مذ اواخر ايار ٥١٩ حتى اول ايار ٥٢١ وناهض

---

١) هنوتيكون من اليونانية يراد به «كتاب الموافقة»، اصدره زينون قصد الموافقة بين الارثذكسيين والاوطاخيين، فلامه البابا فلكس الثالث (٤٨٣–٤٩٢) لتعرّضه للمسائل الدينية.

٢) ابن بطريق ١: ١٩٤، وميخائيل الكبير ٢٦٠

المنوفيزيتين بجامع قواه . ولما احبّ ان يدوّن في صحيفة الذبتيخة اسماء آباء المجمع الخلقيدوني الستّمائة والستة والثلاثين عارضه بعض الاساقفة . وبعد هذا استدعى اليه جميع اساقفة سورية واضطرّهم ان ينادوا بالمجمع الخلقيدوني ، فانكر عليه ذلك زهاء اربعين اسقفاً في جملتهم بطرس اسقف العرب بني منذر، وفالغ اسقف قبيلة المنذر[1] .

٥١ افرسيوس (٥٢١ــ٥٢٦)

كان قسيساً في اورشليم ذاهباً مذهب المنوفيزيتين . ثم اعلن حقيقة الايمان بما قرّره المجمع الخلقيدوني . وارتقى الى الكرسي الانطاكي عام ٥٢١. وانتقل الى جوار ربه في ٢٩ ايار ٥٢٦ اثناء زلزلة هائلة حدثت في انطاكية، واتلفت خلقاً كثيراً ، حتى انه لم يبقَ فيها من السكان على ما قيل اكثر من الف ومائتين وخمسين نسمة.

الحقبة الثانية

بطاركة انطاكية الملكيون (٥٢٦ــ٩٦٩)

٥٢ افرام (٥٢٦ــ٥٤٥)

هو افرام السرياني الامدي ، احد مشاهير المنصّبين في بلاد المشرق ، ومن جهابذة العلماء . انتخبه الشعب الانطاكي بطريركاً عام ٥٢٦ . ولم تكد تمرّ السنة على بطريركيته حتى بعث بالرسائل الى جميع كنائس المشرق في قبول المجمع الخلقيدوني . ثم دفعته الغيرة الدينية الى اقتحام مشقّات الاسفار الى بلاد ما بين النهرين وغسان ، حبّاً لتعزيز الايمان القويم . وقد كتب السريان ، ولاسيما ميخائيل الكبير ، الشيء الكثير عن هذا البطريرك ، بخلاف المؤرّخين الملكيين الذين لم يذكروا الا اسمه فقط . فرأينا ان نلخّص اعماله نقلاً عن تواريخ السريان لِما تضمّنته من الفوائد . قال ميخائيل[2] :

---

١) ميخائيل الكبير ٢٦٥–٢٦٧

٢) ننقل الاخبار التالية عن ميخائيل الكبير ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢١٠ .

« سار افرام البطريرك الى بلاد الشرق لينامض المؤمنين « المنوفيزيتيين او اليعاقبة » ويضطهدهم مستعيناً بابرهيم بن كيلي ، اسقف آمد . فشارف الرها ، وارسل الى اهاليها على يد شقيقه يوحنا ، وكان والياً ، ان يذعنوا له ، فيسير اليهم ، او يحضر اليه وفدٌ من قبلهم يحتجّ عنهم . . . فرفضوا طلبه اول بدء . ثم اقبل اليه بعض الرهاويين ، وجرت محاورة دينيّة بينهم وبينه وبين الاسقف والوالي ، فعجز البطريرك عن اقناعهم ، وعاد الى انطاكية . . .

« وبعد اربع سنوات ، حدثت زلزلة سادسة عنيفة في انطاكية قوّضت جميع كنائسها ودورها الحديثة والقديمة وقراها المجاورة . وأحصي عدد الغرقى فكان اربعة آلاف وسبمائة وسبعين نسمة . اما الذين افلتوا من النائبة فانهزموا الى المدن والجبال ، حتى امست المدينة خاويةً خاليةً مدة خمسة اشهر ، فعاد اليها بعض افراد ، وكان البطريرك افرام مقيماً في كرسيّه ، فكتب الى الملك يخبره بالفاجعة .

« واقبل في تلك الاثناء الى انطاكية سرجيس الراسعيني ، السرياني الملكي ، الفيلسوف الشهير ، ليقيم الدعوى في الديوان البطريركي على اسول اسقف وطنه . فتوسّم البطريرك في سرجيس علائم النجابة والعبقرية ، ووقف على مقدرته وتضلّعه من اليونانية والسريانية ، وسأله ان يرتحل الى رومية في رسائل يحمّله اياها الى اغابيط الحبر الروماني . فلبى سرجيس طلب البطريرك ، وانطلق الى رومية ، ومنها الى قسطنطينية .

« وبعد هذا كتب البطريرك افرام الى الملك في ان يسيّر اليه شرذمة من الجند يستصحبهم الى بلاد المشرق ، في سبيل تعزيز ايمان المجمع الخلقيدوني. فتوجه بهم الى فارس وسنجار ، وتمكن بنفوذه من اجتلاب كثيرين منهم ، في جملتهم يوحنا اسقف تلاً . . .

« ثم عاد البطريرك الى انطاكية ، وابتنى فيها كنيسة مستديرة الشكل يحدق بها اربعة منازل ، واستدعى الى تدشينها مائة واثنين وثلاثين اسقفاً من اساقفة كرسيه الانطاكي قرّروا بأجمعهم عقيدة المجمع الخلقيدوني ، وأمضوها خطاً ، وحرموا سويرا البطريرك ومشايعيه .

وبعد هذا كتب الملك الى البطريرك افرام ان يقصد الحارث بن جبلة ، ملك العرب النصارى ، ويحادثه في العدول عن المذهب المنوفيزيتي ، وقبول المجمع الخلقيدوني . فلبى البطريرك الطلب ، وسافر الى بلاد غسّان ، واجتمع بالحارث ، وجرت بينهما مفاوضة هذا تعريبها :

« قال افرام للحارث : علامَ ترتابون فينا وفي الكنيسة ؟ قال الحارث : لسنا نرتاب في كنيسة الله . لكننا نتهرّب ممّا امتنعتم . الى الايمان ، اذ اختلقتم رابوعاً بدلاً من الثالوث ، والجأتم الناس ان يجحدوا الايمان الحقّ . قال افرام : هل ترى ايها الملك من العدل والصواب ان ستمائة وستة وثلاثين اسقفاً يكونون مخالفين للحق مشوذين ؟ فلو كانوا مشوذين لوجب ان يُحرموا . والّا فكيف يجوز العدول من قول هولاء الاساقفة الكثيرين ، والتشبّث بدعوى اساقفة قليلين هم اراتقة ؟ قال الحارث : انا رجلٌ امّي فلّاح . وعلى كوني لم اطالع

الكتب آتيك بهذه البيّنة وهي: اني اذا أمرت خدّمي ان يجيئوا لجنودي طعاماً ويطبخوا في الطاجن لحم غنم وبقر طاهرًا، واتفق ان فارة تقع في ذلك الطاجن، قل لي بحياتك، ايها البطريرك، هل يتدنّس ذلك الطعام الطاهر كلّه ام لا؟ قال البطريرك: بل يتدنس. قال الحارث: فاذا كانت فارة منتنة تدنّس لحماً كثيرًا فكيف لا تدنّس بدعةٌ منتنة جمهورًا غفيرًا؟...

واستلى المؤرخ المنوفيزيتي:

« تعذّر على البطريرك الجواب، وطفق يلحّ على الحارث ان يتقرّب من القربان الذي يقدّسه. فقال له الحارث: نجلس اليوم معاً على المائدة. ثم اوعز الى عبيده باللغة العربية(١ ألّا يحضروا على الخوان الّا لحم جمل فقط. وما ان أحضر اللحم حتى قال الحارث للبطريرك: بارك مائدتنا. فتمتم البطريرك مضطرباً، ولم يبارك بها. وجعل الحارث يأكل كعادته. فقال له افرام: انكم قد دنّستم المائدة باحضاركم امامنا لحم جمل. قال الحارث: فما بالك تكرهني على تناول قربانك، وانت ترى ان طعامي يدنّسك؟ فخجل افرام وودّع الحارث ولم يستطع الى خدعه سبيلًا.»

وهكذا ظلّ العرب الغسانيون متشبثين بالمنوفيزيتيّة. اما البطريرك افرام فعاد الى انطاكية يواصل اعمال غيرته، حتى توفاه الله برائحة القداسة[٢] عام ٥٤٥، وخدم البطريركية تسع عشرة سنة.

وفي عهد هذا البطريرك شمل اسم «الملكيين» جميع المتقدين بتقرير المجمع الخلقيدوني في البطريركيات الثلاث اعني الانطاكية، والاسكندرية، والاورشليمية، دون تمييز بين العنصرين السرياني واليوناني.

٥٣ دمنوس الثالث (٥٤٥–٥٥٩)

روى ميخائيل الكبير عن البطريرك دمنوس الثالث انه لم يكن يهتم بسوى تغذية جسده وركوب الخيل ليهضم ما يأكله[٣]. ومما يؤثر عنه انه أمضى اعمال المجمع القسطنطيني الثاني المسكوني عام ٥٥٣، طبقاً لارادة يوسطنيانوس.

---

١) نستنتج من ذلك ان البطريرك افرام لم يكن يعرف العربية، فالمحادثة جرت بينهما بالسريانية، او باليونانية.

٢) قال السيد مكسيمس مظلوم: «افراسيوس قُتل تحت ردم الزلزلة سنة ٥٢٦ وقام بعده القديس افراميوس الذي رقد بالرب سنة ٥٤٥». القائد الامين ٢٣: ٥٥

٣) ميخائيل ٣٢٣

الملك (٦٢٧–٦٥٠).

٥٤ انسطاس الاول (٥٥٩–٥٧٠ و٥٩٣–٥٩٨)

هو القديس انسطاس السيناني. وُلد في فلسطين، وترهّب في طورسينا. وما ان افضت اليه البطريركية الانطاكية حتى عارض يوسطينس الثاني (٥٦٥–٥٧٨) في معتقده فجاهر الملك بعزمه على نفيه، وأعدّ البطريرك كتاب الوداع لرعيته. وفي السنة ٥٧٠ نُفي البطريرك لداعٍ ذكره ابن بطريق قال:

«ان انسطاس الكبير، بعد ما اقام ستّ سنين (احدى عشرة سنة؟) في البطريركية، ادّعى اهل انطاكية انه زنى. فهرب منهم، وأخذ ثيابه التي كان يقدّس فيها، ودفنها، وسار الى بيت المقدس... وصُيّر بدله غريغوريوس بطريركًا على انطاكية. اقام اربعًا وعشرين سنة ومات. فخرج اهل انطاكية الى بيت المقدس يطلبون رجلًا يجيئونه عليهم بطريركًا. فوقع اختيارهم على انسطاس الذي كان رموه بالزنى، وهم لم يعرفوا انه هو. وهو الذي صرّح لهم بأمره. فأخذوه الى انطاكية. وجاء بهم الى الموضع الذي دفن فيه ثيابه، فأخرجها، وردّوه الى الكرسي؛ فاقام عليهم بطريركًا تسع سنين (خمس سنين؟) ومات» (١

ومما يؤثر عن البطريرك انسطاس انه، في يوم الاربعاء اسبوع الآلام ٢٥ اذار ٥٩٣، القى خطابًا في كنيسة انطاكية. وظلّ يرعى رعيته بالحزم والغيرة حتى رقد بالرب عام ٥٩٨

وروى ميخائيل الكبير: «ان يوسطينس قيصر اوفد الى البطاركة والاساقفة رسالة عمومية سماها «انديقطيون» يدعوهم الى الموافقة على بدعة المباليين الزاعمين ان جسد ربنا يسوع المسيح لم يكن قابلًا للآلام والموت. فلما اطلع عليها البطريرك انسطاس واساقفته، رفضها قوم، وقبلها آخرون. فأمر الملك فعقد مجمع في انطاكية حضره مائة وخمسة وتسعون اسقفًا، تحت رئاسة البطريرك الانطاكي. وما ان قرئت الرسالة حتى نهض لاونطي اسقف خنصرتا، وابرهم اسقف الرصافة؛ وقالا: ان وافقنا على هذا الانديقطيون اضمحلّت الكنيسة... ثم قال البطريرك والاساقفة كافة: «لئن تخلّى عن كراسينا، ان اضطرّنا الأمر، أولى لنا من الموافقة على زعم المباليين». ثم كتبوا الى الملك يصارحونه بالحقيقة، فلما طالع رسالتهم رأى من الحكمة ان يكفّ عن رأيه.» (٢

---

١) ابن بطريق ١: ٢٠٨–٢١١

٢) ميخائيل ٣٢٥ و ٣٣٠

٥٥ غريغوريوس (٥٧٠–٥٩٣)

ترأس عام ٥٧٠، على أثر نفي سالفه. ونجا من زلزلة عنيفة حدثت في السنة ٥٧٧. وناهض استريوس، عامل الشرق، فأهاج عليه العامل اهل انطاكية. فاضطر البطريرك ان يقصد العاصمة ليزكّي نفسه. ثم عاد الى كرسيه. وما مر على عودته اربعة اشهر حتى حدثت زلزلة ثانية في ٣٠ ايلول ٥٨٩ اتلفت زهاء ستين الفاً من الانطاكيين.

واتفق في تلك الاثناء ان يعقوب البرادعي، رأس الفرقة السريانية المنوفيزيّة، توفي في ٣٠ تموز ٥٧٨، فقدم الى انطاكية دوميان، بطريرك الاسكندرية، في اسقفين وثلاثة رهبان؛ واصطفوا رجلاً يقال له سويرا الاشعث، ومضوا به الى كنيسة القسيان، ودفعوا الى قيّمها ثمانية عشر ذهباً رشوةً ليفسح لهم المجال ان يقضوا حفلة السيامة البطريركية فيها، تحت الليل. فشعر غريغوريوس البطريرك الملكي، وارسل فقبض على الرهبان الثلاثة. اما دوميان البطريرك الاسكندري واسقفاه والمنتخَب فاختفوا في الكنيف، حتى الفجر. ثم لاذوا بالفرار، ولم يتوفّقوا في مهمتهم.

وقد تواجه دوميان، في قسطنطينية، المنذر بن الحارث، ملك العرب النصارى (المنوفيزيتين). فاخذ المنذر يعنّف البطريرك على افعاله. ثم سأله ان يجعل حدًّا للنزاع، ويتفق مع فولا بطريرك المنوفيزيتين (†٥٧٠) فأقسم دوميان انه يكفّ عن التعدّي. ولكنه أخلف في قسمه، فكتب له المنذر يبكّته على تصرّفه[١].

وكان المنذر يفرغ الجهود في الاتحاد فكتب في ذلك الى طيباريوس قيصر (٥٧٨–٥٨٢) وهذا راسلَ الاساقفة والبطريرك غريغوريوس ليطلقوا الحريّة للنصارى كي يصلّي كلٌّ اينما شاء. وكيفما شاء. بيد ان غريغوريوس لم يوافق على ذلك، ولم يأذن ان تقرأ رسالة الملك[٢]. وتوفي البطريرك عام ٥٩٣، فأعيد سالفه انسطاس الى الكرسي حتى وفاته عام ٥٩٨، كما ذكرنا.

---

١) ابن العبري: التاريخ البيعي (ص ٢٨ من نسختنا)
٢) ميخائيل ٣٧١

٥٦ انسطاس الثاني (٥٩٩-٦١٠)

تولى البطريركية عام ٥٩٩ على اثر وفاة انسطاس الاول . وكاتب البابا غريغوريوس الاول الكبير (٥٩٠-٦٠٤) . ومن اخباره انه توجه الى عاصمة الفرس ، في نخبة من الاساقفة والوجهاء ، واحتفل بزفاف ماريا ابنة موريقي قيصر (٥٨٢-٦٠٢) الى ابن كسرى ابرويز . وابتنى كسرى ، اكراماً للعروس ، ثلاث كنائس كبيرة الاولى على اسم العذراء والدة الله ، والثانية على اسم الرسل ، والثالثة على اسم سرجيس الشهيد . ودشن الكنائس الثلاث البطريرك انسطاس ؛ وحصل الصلح بين الدولتين[١] .

وكان يسوس الملكيين في الرها اسقفهم سويرا ، الذي شاد بلاطاً واروقة على النهر ، وأسس ابنية اخرى كثيرة . فقصد نرسا البطريق تلك المدينة ، وادعى ان سويرا مُوالٍ لفوقا قيصر (٦٠٢-٦١٠) فاستحضره الى دار مارينا ، وطرح عليه ما شاء من الاسئلة ، ثم أمر به ، فأخرجوه ظاهر المدينة ، وأوصدوا ابوابها تلافياً للشغب ، ورجموه في محلٍّ يُسمَّى تورينجين قرب راس النبع . فاقام الرهاويون بدلاً من سويرا ثاودوس الرهاوي اسقفاً[٢] .

وفي السنة الاولى لهرقل (٦١٠-٦٤١) قُتل انسطاس الثاني ، وترمل كرسي الملكيين الانطاكي من بعده ثماني وثلاثين سنة[٣] . وكان الملكيون والمنوفيزيتيون في تلك الحقبة يترافعون الى ملوك الروم وملوك الفرس . فكان الفريق المتغلب يستولي على الكنائس والاديار في اطراف الرها ، وحران ، ومنبج ، وملطية ، وغيرها[٤] .

فراغ الكرسي الانطاكي الملكي اول مرة (٦١٠ - ٦٤٠)

استغرق فراغ الكرسي الملكي الانطاكي نحو احدى وثلاثين سنة على

١) ميخائيل ٣٨٧

٢) ميخائيل ٣٨٧ ، والرهاوي ١٣٥

٣) ميخائيل ٤٠٣ ، أما ابن بطريق فقال (١ : ٢١١) « اثنتين وعشرين سنة » .

٤) ابن العبري : التاريخ البيعي ١ : ٣١ من نسختنا ، والرهاوي ١٣١ و ١٤٧

الاصحّ. وظهر العرب في تلك الغضون وفتحوا بلاد سورية، وما بين النهرين، فكتب ابنُ بطريق(١ :

« خرج هرقل الى دمشق في سنتين من ملكه (٦١٢) . وكان بدمشق رجل يقال له منصور بن سرجون عاملاً على الخراج من قبل موريق الملك؛ فطالبه هرقل بمال طول السنين التي كانت الروم محاصرين في القسطنطينية. فذكر له انه كان يحمل اموال دمشق الى كسرى. فطالبه مطالبة شديدة بالضرب والحبس، حتى استخرج منه مائة الف دينار (٢ . ثم اقرّه على العمل. فكان منصور موغر الصدر على هرقل ...

« ثم سار هرقل الى القدس. فقال له الاهالي : نجعل لك جمعة البيض والجبن التي قبل الصوم الكبير صوماً حتماً في جملة الصوم الكبير نصومها لك ... ما دامت النصرانية. لان الملكية كانوا يجتنبون في هذه الجمعة عن اكل اللحم ويأكلون فيها البيض والجبن والسمك، على ما بيّنه القديس مار سابا . . . فاجابهم هرقل الى ذلك، وقتل من اليهود حول بيت المقدس وجبل الجليل ما لا يُحصَى عددُهُ . . . وصيّروا اول جمعة من الصوم ... صوماً حتماً وكانوا يصومونها لهرقل غفراناً لنقضه العهد وقتله اليهود ... واهل مصر القبط الى الآن يصومونها، الا الشام والروم الملكية، فانهم بعد موت هرقل (٦٤١) رجعوا يأكلون في هذه الجمعة بيضاً وجبناً وسمكاً ...

« ولمّا وافى المسلمون الى دمشق سنة ٦٣٣ (٣ نزل خالد ابن الوليد باب الشرقيّ ... وعمرو بن العاص بباب توما ... واقاموا الحصار على دمشق ستة اشهر الّا يوم ... فلمّا اجهد اهل دمشق الحصار، صعد منصور، عامل دمشق، على الباب الشرقي، فكلّم خالد ابن الوليد ان يعطي الامان له ولاهله ولمن معه ولاهل دمشق، سوى الروم، حتى يفتح ابواب دمشق. فاجابه خالد ابن الوليد الى ما سأل، وكتب له اماناً ... ففتح منصور باب الشرقي ... فلسوء فعله، وما عمل بالروم حتى قُتلوا واعان المسلمين عليهم، لعنوه (٤ جميع البطاركة والاساقفة في الدنيا كلّها .» (للمقال صلة)

---

١) ٢ : ٥–٦، ١٤ ٢) ابن العميد : « ثلاثة آلاف دينار »

٣) كتب الاب لامنس المدقّق : حوصرت دمشق في اذار ٦٣٥، وضيّق عليها ستة اشهر حتى ايلول. وكانت حامية هرقل قد تركت المدينة في آب، فاوفد المسيحيون اسقف دمشق ومنصور بن سرجون ليحادثا ابن الوليد في الصلح (المشرق ٢٩[١٩٣١] ٤٨١–٤٨٥، ٨٦٤)

٤) لاحظ قوله « سوى الروم » و« لعنوه »، اذ يُستنتج منه ان منصوراً لم يكن رومياً ملكياً بل كان سريانياً، وسريانياً يعقوبياً او منوفيزيتياً. وقد كتب ابن بطريق عينه (٢ : ٦١) : « صُيّر سرجيس ابن منصور الذي كان اعان المسلمين على فتح دمشق، ولُعن في الدنيا، بطريركَ بيت المقدس » . وقال ايضاً (٢ : ٦٩) : « صُيّر ايليا بن منصور، الذي كان اعان المسلمين على فتح دمشق ولُعن في جميع الدنيا، بطرك على بيت المقدس » طالع ايضاً : Carra de Vaux, *Les Penseurs de l'Islam* II, 244.

شخصية احمد شوقي

شاهد عصره ، ومعلّم جيله

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف

كُتب هذا البحث مقدّمة لدرس الاديب ادوار حنين في « شوقي على المسرح » . ولما كان قرّاء « المشرق » قد اطلعوا على ذاك الدرس في مجلد السنة الفائتة كان من حقّهم كذلك ان يطلعوا على المقدّمة :

من الشعراء مَن لا يتجاوزون تصوير انفسهم ، يدرسونها بدقة واخلاص ويصفونها بصراحة وطيبة ، فلا تخالجهم عاطفة ، ولا يدفعهم امل ، ولا يقعد بهم يأس ، الا رأينا أثر ذلك على شفاههم المختلجة ، وفي نبراتهم المضطربة . وكأنهم اكتفوا ، من العالم كله ، بانفسهم الحساسة ينبوعاً فوّاراً متجدّد الدفقات ، فمثّلوها اصدق تمثيل.

ومنهم مَن اصطفتهم الحياة لرسالة افسح مجالاً ، وانبل غاية ، فرفعتهم من تمثيل انفسهم الفردية في حالات خاصّة ، الى تمثيل النفس البشرية وقد احاطت بها مشاكل الحياة المتعددة. واذا بفواصل الزمان والمكان تنهار امام عبقريّتهم ، واذا بهم شعراء الانسانية الشاملة.

ومنهم مَن خصهم التاريخ بتمثيل عصورهم فشاهدوا ما يبدو عليها من قلق وطمأنينة ، واحسّوا ما فيها من نزعات وسكنات ، فشاركوا اخوانهم باللذات والآلام ، وجمعوا في شخصيّاتهم ما تفرّق في الجمهور من عواطف غامضة تبدو تارة في المسرّات الصاخبة ، وطوراً في الفواجع البكماء . واذا هم شواهد عصور ، ومعالم اجيال.

من هؤلاء الشعراء كان احمد شوقي . ومن هذه الصور القلقة المضطربة كان عصره في مصر . وكأنّ الحياة قرنت بين اضطراب عناصر الشاعر واضطراب مصره ، فانبتت لنا تلك الزهرة الغريبة بما جمعت من فواقع الاصباغ وخوافت

الالوان ، المعجبة بما اثارت من نوافح الرائحات ونواعم الطيوب ؛ حتى انتجت تلك الثمرة اللذيذة بما خالط نضجها من عفوصة الفجاجة .

ظهر شوقي مضطرب العناصر الدموية ، مختلج النزعات الوراثيــة . فهو كردي عربي من ناحية جدّه لابيه ، تركي من ناحية جدّه لوالــدته ، يوناني من ناحية جدته . « أصول اربعة في فرع مجتمعة » ، كما يقول . بيد انه لم يكن لهذا الفرع من ضابط كافٍ يوازن بين تلك الاصول فيوحّد نزعاتها ، ويسوقها جميعاً في ثقافة واحدة . فظلّت هائمةً تضرب على غير هدى ، تارةً تتفرق ، كلٌّ في مذهبه ، فتتنازع شخصية الشاعر الحائرة بين تلك الرغبات ؛ وطوراً تجتمع مختلجةً في تلك الشخصية فتثيرهــا حتى الفوضى . واذا وصف اليونان ، الى حكمة العرب ، الى حسّ الترك ، الى غرائب الاكراد ، في بوتقة جائشة ، تتواثب وتتماسّ ، ولكنها لا تمتزج في سبيكة واحدة .

ويشبّ الشاعر في هذه الفوضى العنصرية ، فــلا يلبث ان يتأثر بفوضى اخرى ثقافية . وقد كان من الصعب ان تكون الثقافة غير فوضى في ذاك العصر . يدرس الحقوق ، ويدرس الترجمة ، ويقرأ كل ما تصل اليه يده من كتب الادب وكتب الشعر خاصة ؛ يقرأ البها زهير المائع ، ويقرأ ابن مطروح وابن النبيه السيّالين ، ويقرأ ابا نواس الخنير ، ويقرأ البحتري المزخرف ، ويقرأ المتنبي الشامخ ، ويقرأ المعرّي المفكر ، وفي كل منهم يرى ما يعجبه ويرضي ناحية من شخصيته المركبة .

وينتقل به الحظّ الى مونبليه يتابع درس الحقوق ؛ فــالى باريس ، عاصمة الفنّ والجمال ، في عصر كان من اوفر العصور عائدةً على الفنّ والجمال . يصل شوقي باريس في حقبة ازدهرت فيها المذاهب الشعرية ، وكثر الشعراء . فلكل فكرة شاعر ، ولكل شهوة شاعر ، ولكل مظهر من مظاهر الحياة شاعر ، بل لكل وهم شاعر . فهناك البرناسيّون والرمزيّون ؛ وعبــدة الفنّ للفنّ ؛ وهناك المغالون في تصوير الطبيعة ووصف الواقع ؛ وهناك مَن تأخر من المدرسيين ومن منازعيهم ارباب الرومانتيسم .

هناك كاتول مندس (Catulle Mendès) ، وديزيّــار (des Essarts) ،

ودي ريكار (de Ricard) وانـدادهم يؤسسون البرناس وينمشونه بآثارهم الانيقة ، وهناك هنري كازاليس (Cazalis) يُثير في شعره الرقيق نفحات شرقية بعيدة ؛ هناك فرنسوا كوپيه (Coppée) شاعر العاطفة الناعمة ، وسوللي بريدوم (Sully Prudhomme) شاعر الفكرة الحائرة المتزنة . هناك بول ديروليد (Déroulède) يهيج العاطفة الوطنية في قلوب الشباب فيتحمسون حتى الهوس . وهناك ڤرلين (Verlaine) يهيم بادرانه الجديدة والخلقية من مستشفى بروسيه الى الحيّ اللاتيني ، فالى حلقات الادب ، فالى المواخير والحانات ، فالى المستشفى راجعاً ، منشداً آلامه وآماله ، تاركاً على اشواك الحياة قطعاً دامية من تلك النفس المتنازعة ابداً بين لذعة الشهوات البهيمية ولذة الفضائل السامية . وفوق هذه الجماعات المضطربة الضاجة كان لا يزال صوت ڤيكتور هوغو يدوّي صداه الضخم حتى في حنايا المحفل الادبي فيخضع اعضاؤه لوصية الشيخ الراحل ، و«يعيّنون» بينهم لوكونت دليل (Leconte de Lisle) ؛ واذا « بشاعر التشاؤم » يصبح عضو المحفل الادبي على رغم اعدائه المديدين ، ويصبح «اميراً للشعراء» كما سيصبح شاعرنا بعد حين .

كلها مظاهر لم تكن بعيدة عن شوقي الطالب في باريس ، لو شاء ان يرهف اذنيه لشعر الاحياء ؛ بل كلها مناح كان من الخليق به ان ينحى بعضها ، لو شاء لن يفتح عينيه فيرى فيها شبهاً لما في نفسه . على انه مال عن الادباء الى كتب الادب ، وعن الشعراء الاحياء الى المنتخبات من شعر الموتى . فأخذ بروعة هوغو وفخامته الصاخبة ؛ واعجبته قصص الحيوانات في امثال لافونتين ، وتأثر برقة دي موسّيه وصراحته المؤلمة ، وبرى مع سلاسة لامرتين وغزله المائع ، ولا نراه وصل الى لذعة بودلير وحرقته . كما انه أخذ ، في ما سبق ، بروعة المتنبي ، وأعجب بزخرف البحتري ، وتأثر برقة البهاء زهير ، دون ان يصل الى عمق المعرّي او لذعة ابن الرومي . وكما انه قلد قدماء العرب ، بين النجاح والفشل ، جرّب تقليد من عرفهم من شعراء الفرنج ، فنجح وفشل كذلك .

وهكذا فان الثقافة الفرنسية لم تقوّم ما تحققناه من اعوجاج في ثقافته

العربية ، ولم تُنظِّم تلك الفوضى العنصرية .

ولم يكن حظ مصر ، اذ هبطها شوقي ، باوفر من حظ الثقافة الفرنسوية في تنظيم تلك الفوضى ، ومصر تتخبط في فوضى سياسية شبيهة بها . كانت مصر حائرةً مضطربةً بين خلافة « المتبوع الاعظم » ، وحماية ملك الانكليز وامبراطور الهند ، وسلطة الخديوي المباشرة ، ونزعات ارباب الوطنية من رجال السيف والقلم .

شوقي الشاعر الشاب المتدفق شعوراً ، المضطرم خيالاً ، يعود من باريس الى مصر في اشدّ ازمنة مصر حرجاً ، واجدرها باثارة الشعر . فماذا يصنع ؟ وكيف يتجه ؟ واي مذهب يتخذ ؟ الثورة العرابية لم تنطفئ جذوتها بعد ، وكبار الوطنيين مشتتون في المنافي ، والانكليز شديدو الحرص دائمو الحذر ، والخديوي يعاني المصاعب ويصطدم بالعقبات ، وشوقي ... يعيّن رئيساً للقسم الافرنجي بمعية الخديوي عباس حلمي . هوذا الشاب النازع بالطبع والثقافة الى الفوضى والحرية والصراحة يُقيَّد بواجبات الادارة الرسمية وما تفرضه من تحفظ واحتياط وملاينة ومداراة . هوذا المصري الراجع من فرنسة ، سنة ١٨٩١ ، حالماً بكل ما يجيش في البلدين من ثورات وطنية ، يُصبح من دعاة النظام المستقرّ ومن مجرّي مآتي السلطة المشروعة . هوذا الشاعر ينقلب رجل سياسة ، يستقبل بلطف ويودّع ببشاشة ، يدوّن اعمال سموّ الامير ، ويشكر السلطة الحامية ، ويهنئ « المتبوع الاعظم » خليفة المسلمين ، بالاعياد والمواسم . واذا بقي له شيء من شاعرية ، بعد هذا ، فلا بأس بان يلهو ببعض الاستهلالات الغزلية ، او ان يعبث ببعض الفلتات الخمرية ؛ واذا سمت شاعريته فالى مدح الانبياء والاولياء على طريقة الخطاطي الصوفيين ، او الى نظم تاريخ العالم يقلّد به الملاحم الاصطناعية ، او الى معارضة بردة البوصيري... واي حاجة به الى الكدّ وراء المستصعبات ، وهو

شاعر « العزيز » ، وما بالقليل ذا اللقبُ

عشرون سنة تنقضي على الموظف الرسمي يستفيد فيها شوقي مالاً كثيراً ، وكياسة ادارية ؛ ويستفيد كذلك اكراماً شاملاً واعجاباً عاماً ؛ لانه كما عرف

ان يرضي روّاد القصر بتلطفه السياسي ، عرف كذلك ان يرضي طبقات الناس في مصر ، وفي غير مصر ، بمرونته الشعرية . يرضي الوطنيين ويرضي الانكليز ، يرضي المصريين ويرضي العثمانيين ، يرضي المسلمين ويرضي النصارى . اما هل يرضي الشعر الحقيقي ؟ اما هل يرضي شخصيته الشاعرة ؟ فسؤال ما تخال شوقي يجيب عنه بالاطمئنان ، لولا ذاك الكسل العقلي الذي مُني به اتناء. تلك الحياة الطويلة المنيئة فحال بينه وبين الجدّ في سبيل المثل الاعلى.

من الحق ان شوقي كان يطالع بكثرة ، ويطالع فنوناً مختلفة . الا ان مطالعته هذه لا تخرج عن مظاهر الكسل العقلي ، بل هي شرّ مظاهره ، لانها توهم صاحبها بالعمل ، ولا عمل الا اضاعة الوقت في تصفح سطحي بعيـد عن الدرس والاجتهاد.

من الحق ان شوقي كان يحبّ تنقيح شعره ، و كانت آماله تنبسط الى ان تنشره الصحف اوسع نشر ، فيقرأه الزملاء ، ويتدارسه الادباء . ولكن على شرط الا يحوجه ذاك التنقيح الى ازعاج نفسه ، والّا يعترضه الزملاء بالمنافسة ، ولا الادباء بالنقد . فهو لا يقوى على مجاراة الاحياء ، لا عن شعور بالعجز — لان من يجاري ابا تمام والمتنبي وهوغو لا يخشى مجاراة حافظ واحمد نسيم وامثالهما— بل عن هرب من الكدّ والتعب . وهو لا يطيق النقد ، لان النقد يوضح له ذاك الشعور النفسي الغامض بالنقص، وكانه يوقظه من استكانة الى الغرور لا يحبّ انّ يقلقها عليه احد.

من الحق انه كان يحب الاطلاع على الجديد من الافكار ، وعلى الحديث من الاكتشافات والاختراعات . الا انه كان يفعل ذلك ليموّه على نفسه فيرضيها، او يظن انه يرضيها ، فلا تنكر عليه كسله ، وهو لا يزال شاعراً بتبعة ذاك الكسل ثم ليرضي السطحيين من الناس ، اذ يقرأون في شعره تلك التلميحات العامة الى التاريخ والفن والعلم والفلسفة ، فيعجبون ، ولا يـدرون ان الشاعر يتكل ، في نيل هذا الاعجاب ، على جهلهم هم ، لا على علمه هو.

من الحق ان شوقي ظلّ على مظاهر عدّة من تلك الفوضى التي تحققناها في ما تقدّم . ولكنها ، بعد ان قيّدها بالنظام الخارجي في الحيـاة الرسمية وفي

الشعر الرسمي ، لجأت الى الحياة الداخلية ، الى الاخلاق ، والى ما ينظم من تلك المقاطع «البيتية» ، ان صحّ التمييز ، التي يقصر عنها نظر الامير ، ولا ينالها حكم الجمهور . واذا بشوقي يتفلت احياناً من واجبات البلاط ، فنراه في المطاعم الحقيرة ، مشتهياً المآكل الخشنة ؛ ونراه في الطرق المقفرة يهيم متصعلكاً متشرّداً حتى يطرق ابواب اصدقائه في ساعات منكرة من الليل ؛ ونراه في مجالس لا تنفذ اليها عين الرقيب ، لاهياً عابثاً . تلك منافذ للفوضى ، وقد قُيّدت رسمياً في حياة القصر . الا ان الشاعر تأثر ، حتى في هذه الفلتات ، بظاهر البلاط القرنيسية ، فوجب عليه ان يخفّف من صراحته وطبيعته ، فيتظاهر دائماً بالرصانة ، ويمدح التديّن والتقوى ، ويكثر من الاشادة بذكر الاخلاق الصالحة . . .

هذا ما جنته تلك الحياة الرسمية السهلة على عبقريّة ، لو نضجت حرّة ، لفاخرنا بها الشعر العالمي .

***

وتدور الايام دورتها ، واذا بالامير مُنزل عن عرشه ، واذا بشاعر الامير منفيّ في الاندلس ، يبكي على مدنية بكى على اختها بالامس ، ويجول في آثارها الفخمة ، فيحسّ عصورها الذهبية ، ويحييها بخياله الخصب ، وقد زاده سنّ الكهولة توازناً ونضجاً ، ونفحته ريح المنفى حريّة كانت تعوزه في بلاط اميره . فغدا اقرب الى الخلافة المروانية منه الى خلافة آل عثمان ، وادنى الى العرب منه الى الترك ؛ حتى اذا عاد الى الكنانة ، وقد تحوّرت خريطة الشرق الادنى ، فتمخضت الامبراطورية العثمانية عن ممالك وامارات وجمهوريات جديدة ، انقشعت عن ناظريه غشاوة الذهب الخديوي ، فاتسع افق تفكيره ، وانبسط جناح خياله ، وانتشرت اعصابه تحسّ باحساس تلك الشعوب المستيقظة الى النور ، الناهضة الى الحرية والاستقلال نهضة الفتى النشيط بعد السُبات الطويل . واذا باحمد شوقي يتحوّل من شاعر الامير الى شاعر الشعب ، من شاعر مصر الى شاعر البلاد العربية ، من شاعر الخليفة العثماني الى شاعر العالم الاسلامي ، بل الى شاعر الشرق على اختلاف ميوله ونزعاته واديانه .

ولكن تلك رسالة تتطلب اقداماً نشيطاً وكداً متواصلاً ؛ وشوقي ، وقد جاز الخمسين من حياة قضى نصفها في الراحة والرفاهية ، اصبح من الصعب عليه ان يلاقي الحوادث المقبلة ؛ فانقلب يركض وراء الزمن الفائت . يا لآثار الايام ! ويا لانتقام الطبيعة ! عندما كانت المواهب متوافرة لهذه العبقرية الفذة اخذ الشاعر يهملها ، بل يقتلها بالمدائح السخيفة والتهاني المبتذلة ، حتى اذا جاء وقت الانتاج المثمر ، حتى اذا نادى العصر شاعره ، طلب الشاعر هذه المواهب فلم يجدها ؛ انما وجد آثارها الناحلة ورسومها الشاخصة وقد مرّ عليها الزمان ، واخلقها الاهمال . عندما كانت طرق الابتكار ممهدة امامه كان يتنكب عنها الى مجازات التقليد السهل فيجري فيها عن كسل وتراخ ، حتى اذا شاقه الرجوع الى تلك المسالك الصعبة راغباً في الابتكار والتجديد ، خانته القوى ، فلم يجد الا التقليد يرقّع به ثغور نبوغه . يتوكأ على بعض شعراء الافرنج حيناً ، ويلجأ احياناً الى العرب الاقدمين : يعارض ابا تمام ، ويقلد المتنبي ، ويجري على اسلوب البحتري ، ويحاكي شعراء الغزل . . .

وما كان ليرأب بهذه الرِّمم صدوع شاعريته ، لولا ان الشرق العربي اعتاد الاعجاب ببعض الكلمات « الطقسية » ، كما اعتادت اذنه تذوّق الموسيقى التقليدية الموحّدة النغم . ولا مشاحّة في ان شوقي كان من ارباب هذه الموسيقى الماهرين ، ومن سادة المتلاعبين بتلك الالفاظ السحرية . له من هلهلته الشعرية ما يولّد المطالع الفخمة الرائعة تفسح للسامعين آفاقاً من الشعر الصافي لا يحدّها الا عجزهم عن ارتيادها ؛ وله من عاطفته الشاملة ما ينيله التأثر السريع والشعور البصير بشعور الجمهور ، فيحسّ لشعب كامل بل لشعوب . ويهديه لطف حسّه الى اختيار الفاظ جلاها الاستعمال مدة قرون ، ومسحها التاريخ بقدرة الايحاء ، وسكب عليها الدين صبغة التقديس ، فغدت تختزن بين حروفها قوة على اثارة التذكارات عجيبة ، وتجتمع في نبراتها خلاصة امجاد الشرق الاسلامي على تتابع الاجيال ؛ وكأنها تلك الخزانات الكهربائية المفعمة لا ينالها الخط الموصل حتى تتراحم شراراتها ، وتتدافع تياراتها ، ثائرة صاخبة . هكذا كان شوقي يرقب جوّ الجمهور الاسلامي الشرقي ، المضطرب حزناً على اثر الفشل ، او

المترنح طرباً لبعض الانتصارات ، او المتفض حماسةً في متابعة آماله المتعددة ، فيطلق فيه تلك الالفاظ السحرية ، وكل منها تلخص تاريخاً برأسه ، بل عقيدة كاملة ، من امثال « الله اكبر ! » - « يا اخت اندلس » - وما الى ذلك من ذكر محمد وموسى وابن مريم ، والاسلام والاذان ، وجلّق ومروان ، والاهرام ، والفراعنة ... وغيره كثير ؛ يطلق تلك الالفاظ في ذاك الجوّ المنغم ، فتتاوج ، وتتلاقى موجاتها ، وتهبط دوائر مستطيلة ، وكأنها وقعت على السامعين بكل ما ترمي اليه من تاريخ لا يريده الحَفَدة الا مجيداً ، ومن ذكريات لا يرونها الا موافقة للحالة الحاضرة ؛ واذا بالشاعر في كل قلب ، واذا بشعره على كل لسان .

هو شوقي يقول ما يفكر به الجمهور ، ويعبّر بصراحة ومتانة عمّا يشعر به الشعب بغموض واضطراب . فهو شاعر العصر بلا خلاف ، بل هو يلخّص في شخصيته الشرق الاسلامي بكل ما فيه من انبساط وانكماش ، من امل ويأس ، من سعي مثمر وتواكل مؤلم ، « يغني في فرحه ، ويعزّي في احزانه » ... ثم يتجاوز تلك المظاهر السياسية العامة الى رغبات الشعب الحيويّة ومرافقه اليومية - واكثرها بعيد عن الشعر - فيناصر المشاريع الاقتصادية ، ويُعلن عن المصارف الوطنية ، ويهتم بشؤون العمّال ، ويؤرّخ الحوادث المحلية ايّاً كانت . يتبجح مع المتبهجين ، ويبكي مع الباكين . يرى الناس مندفعين الى الغناء ، فيظهر رغبته في التلحين ، فيغني ، ويجيد . ويرى الفنّ التمثيلي على تقدّم ، في مصر ، والاجواق تتكاثر وتزدهر ، فيجاري الذوق العصري به وينظم في التمثيل ، غير هيّاب . وان يكن شوقي لم ينجح في التمثيل نجاحه في الغناء ، فلانه كان ذا ميل فطري الى الموسيقى ، ورغبة في نظم الاغاني ، منذ ان عرف عبده الحمولي في بلاط الخديوي اسماعيل . ولم نعرف عنه انه مال الى التمثيل ، او اضطلع به ، الا مـا ذُكر في أُخريات ايامه من انه كان يكثر الاختلاف الى دور السينما . والسينما والتمثيل ظاهرتان منفصلتان للفنّ ما اتحدتا الا فسدتا جميعاً .

هكذا كان شوقي ، في القسم الاخير من حياته ، مسايراً الجمهور في

عواطفه ، دائم الاتصال به ، مطلعاً على ما يصيبه من احداث يسنلها في شعره الرائع . ولو كان لعبقريته ، اذ ذاك ، قوة الابتكار لما اكتفت « بالغناء في الفرح ، والعزاء في الحزن » بل لسبقت الاحداث فهيأتها على ما تريد ؛ ولما رضيت بالسير في القافلة البشرية بل لتقدمتها هادية الى محجة الحياة المثلى . ولكن الابداع صعب على تلك الشخصية في تلك الاحوال. فكان من نصيب الشاعر الكبير ، وقد عجز عن خلق الحديث ، ان يحيي القديم ، ويحييه رائعاً ؛ كما كان من حظه ، وقد قصّر عن هَدي قومه الى فجر جديد من الشعر العربي، ان يظلّ شاهد عصره ، ومَعلم جيله.

***

هذه لمحات مقتضبة متقطعة في شخصية شوقي ، وفي ما كان من تفاعل عناصرها الدموية ، ومن تأثرها باحداث البيئة والعصر . واذاً فهي لا تغني في درس فنونه الشعرية ، وصياغته النظمية ، وميزاته الخاصة . وكلها موضوعات لا يفرغ منها الادباء لمدة طويلة . وليس لنا الآن الا التمني بان ينهض لدرسها من يختصون بما اختص به صاحب هذا الكتاب الذي نقدمه الى القراء ، فيسيرون على طريقه القويم ، وينتقدون مدائح شوقي ، وغنائياته ، وملاحمه ، وامثاله ، كما انتقد رواياته التمثيلية ؛ ويتوفقون ، ان والاهم الحظّ ، الى ما توفق اليه من شمول الدرس ، ودقة البحث ، ووضوح الاسلوب ؛ حتى جعلنا ، وبين يدينا هذه الباكورة الشهية ، نتفاءل خيراً بما سيهدي الينا من ثمار ناضجة ، ان شاء الله.

حفريات افامية*

بقلم فرتان ميانس
الاستاذ في جامعة لوفن ، ومدير حفريات افامية

كان « المشرق » قد اطلع قرّاءه ، منذ السنة الاولى لحفريات افامية ، على تاريخ تلك المدينة ، وكيف لفتت اطلالها انظار العلماء ، فتألفت البعثة البلجيكية التي يرئسها الاستاذ ميانس ؛ وذكر ما كان من نتائج الحفريات في السنوات الثلاث ١٩٣٠ ، و١٩٣١ ، و١٩٣٢ (١ . وها ان مدير الحفريات نفسه يحدثنا اليوم عن حفريات السنتين ١٩٣٤ ، و١٩٣٥ ، ملقياً نظرة اجمالية على موقع المدينة ، وتقلبات صروف الدهر عليها مما ظهرت معالمه في تلك الاكتشافات . وهذا ملخص حديثه :

لا نطيل في ذكر تأسيس هذه البعثة ، وما كان في ذلك من فضل للاستاذ كومون (Cumont) بلفته نظر العلم البلجكي الى اهمية اطلال افامية ؛ وما كان للجنـة « الاتحاد الوطني للابحاث العلمية » من غيرة فعّالة على تنفيذ هذه الفكرة[٢] . ولا نطيل في مـا ولي ذلك من الحفريات المتتابعـة ، في السنوات ١٩٣٠ ، و١٩٣١ ، و١٩٣٢ ، و١٩٣٤ ، و١٩٣٥ ، مدة سبعة اسابيع من خريف كل سنـة . واني اعرض عليكم اليوم نتائج ما اكتشفناه في هذه السنوات الخمس .

اما تاريخ افامية في العصور السحيقة ، فنستند فيـه الى معلومات قليلة ، بل الى اشارات وردت عرضاً في آثار القدماء ، نعرف منها ان اسم المدينة الاقدم كان « فرناكه » . ثم دُعيت « بيلا » على عهد المقدونيين . حتى كبّرها وجمّلها سلوقوس نيقاطور ، وسمّاها « افامية » ، باسم امرأته . وجعـل فيها مستودعاً

---

*) ملخص محاضرة من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » ، في فرع « تاريخ سورية وفنيقية وآثارها »

١) راجع : فؤاد افرام البستاني : مدينة افامية واهمية اطلالها (المشرق ٢٩ [١٩٣١] ١٠–١٨) ، واطلب ايضاً المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ٧٠ ؛ ٣١ [١٩٣٣] ٧٢

٢) راجع ، في ذلك ، المشرق ٢٩ [١٩٣١] ١٢–١٤

للفيلة والخيول والمؤن والذخائر . وقد قال اسطرابون انه كان لسلوقوس فيها ٣٠٠ جواد من كرام الفحول و٣٠,٠٠٠ فرس انثى .

ويأتي العصر الروماني ، فلا نسمع لها ذكراً الا ما جاء عرضاً، كما في قول شيشرون ذاكراً سيسيليوس باسوس وما قاساه من الحصار في افامية .

اما في صدر النصرانية فكانت المدينة لا تزال على اهميتها وازدهارها ، وقد اصبحت مركز اسقفية . حتى كان القرن السادس ، وقد اشتدت الحروب في اواسطه بين يوستنيانوس قيصر وكسرى الثاني ، فدخلها هذا سنة ٥٤٠، واخربها .

وفي السنة ٦٣٨ ، دخلها ابو عبيدة صلحاً على الجزية والخراج . ثم اخذت تتضاءل حتى كان القرن الثاني عشر، فحدثت فيه زلزلة قوية سنة ١١٢٥، فقوّضت ما بقي فيها من البنايات . وهكذا دخلت هذه المدينة الزاهرة قديماً على عهد اليونان والرومان ، في ظلّ النسيان نحو ثمانية قرون . حتى قُيض لنا ان نكشف الستار عن بعض ما كان فيها . فنزورها اليوم ، زيارة سريعة ، واقفين على اهم ما ظهر لنا من آثارها الجليلة .

ولا بدّ من ان نستعين اولاً برسم جوّي يُظهر لنا تخطيط هذه المدينة ، فتلفت نظرنا نقطة بارزة تمثل تلّ المدينة القديم وقد كانت عليه قلعتها في العصور السحيقة ، فتدفعنا الرغبة الى اجراء الحفريات فيه . ولكنّ الظروف تحول بيننا وبين تحقيق هذه الرغبة . ذلك انّ على هذا التلّ قرية حديثة ، هي قرية قلعة المضيق ، قامت على انقاض قلعة المدينة الاصلية واستخدمت حجارتها . واذاً فليس لنا الّا الانصراف عن هذا الموقع المهمّ . فانصرفنا الى منبسط شرقي التلّ، قامت عليه المدينة في العصر اليوناني ، واحاطت بها اسوار فسيحة درسنا آثارها الباقية — وهي، في بنائها الحالي ، من العهد العربي ، الّا انها قامت على آساس الاسوار القديمة — فدلّتنا على ان محيطها كان يتجاوز ستة كيلومترات ، وفيه ٢٦ برجاً .

ولا يزال شيء من آثار الاسوار العربية في الجنوب الغربي من التلّ تدلّ على استناد بنائي ذلك العصر الى القناطر الضخمة في دعم الصروح والبروج

وهناك في جنوبي الموقع خان كبير على شيء من الاهمية ، لانه مبنيّ بما استُلّ من حجارة المدينة القديمة . وفي الجنوب الشرقي بقايا مرسح فسيح ذي متدرّج كان الشاهدون فيه ينظرون جهة القلعة . ولم يبقَ شيء يُذكر من هذا المرسح لان حجارته نُقلت ، كما نُقل غيرها ، الى بنايات احدث عهداً . على ان ما اجريناه من حفريّات سبرت الانقاض دلّتنا على وجود الدرج ، واظهرت لنا بعض الزخارف ، كما انها اطلعتنا على دهليز تحت المُتّل عُقد سقفه بالحجارة.

وقد امكننا ، على اثر حفريّات سنة ١٩٣٢ ، ان نضع تصميماً للمدينة بكاملها ،مقدّرين مساحتها بـ ٢٥٠ هكتارًا (الرسم ١) يشق هذه المساحة من الشمال الى الجنوب شارع عظيم يسير مستقيماً من الباب الشمالي على طول نحو كيلومترين . الا ان آثاره تختفي ، على قرب مائتي متر تقريباً من الباب الجنوبي . امّا عرض الشارع فيبلغ ٢٣ مترًا . وقد اكتنفته عن الجانبين اعمدة ضخمة تسند اروقة تنوّعت زخارفها ، واتسع عرضها الى سبعة امتار . وابتعد العمود عن الثاني نحو ثلاثة امتار ، فكان على جانبي ذلك الشارع نحو ١٢٠٠ عمود يبلغ ارتفاعها عشرة امتار . وكانت قواعد الاعمدة مطمورة بعضها على عمق ٣ امتار ، واكثرها على عمق ٧,٥٠ امتار . وقد حُفرت الخنادق الواسعة حتى كُشف عنها (الرسم ٢) .

وكانت تتفرّع ، عن هذا الشارع الاعظم ، شوارع ثنوية تنفصل على زوايا مستقيمة من الشرق الى الغرب ، ويقطعها شوارع ثنوية تسير من الشمال الى الجنوب موازية للشارع الاعظم . وقد اصبح من المقرّر ان هذا التصميم في بناء المدن ، بما فيه من شوارع متوازية متقاطعة ، مشترك بين المدن السورية القديمة جميعها . ويرتقي به بعض العلماء الى العهد اليوناني . فاذا ثبت هذا الفرض ، نتج ان الرومان اكتفوا بالتوسّع بذلك التصميم السابق.

ولا يخفى انه لم يكن ممكناً ان نحفر عن الاعمدة ، على طول الشارع الاعظم ، وهو عمل يكلّف ما يفوق طاقتنا ، فاكتفينا بسبر زوايا الشوارع والمنعطفات ، وما رأيناه جديرًا بالدرس من آثار الابنية العامّة ، والمنازل المهمّة ، اعتبارًا من الباب الشمالي ، وحوله سور حسن البناء لا يزال محفوظاً في بعض

اجزائه الى علوّ ثمانية او عشرة امتار . اما الباب الشمالي نفسه فلا يزال ظاهراً على شكل طرأ عليه شيء من التحوير في العصور المتأخرة ، وكان في بنائه الروماني يتألف من قنطرة شاهقة ، لا تزال قائمة حتى اليوم (الرسم ٣) تستند الى رُكنين مربّعين يزينها عمودان داخليان من النوع الكورنثي . وقد رُمّم الباب في العصر البيزنطي . فاحتفظ المرمّمون بالقنطرة ، الّا انهم تراجعوا ، في اساس ركنيها نحو ثلاثة امتار عن الأس الروماني . وقد استخدموا في ذلك الحجارة الرومانية نفسها . وولي هذا العهد ترميمات مختلفة استخدمت فيها كلها الحجارة الرومانية،ولم نرَ من زخارف العصور المتأخرة الّا عمودَين ضعيفَي الصنعة.

اذا تجاوزنا هذا الباب الشمالي ، بدت لنا آثار رواق متهدّم بكامله ؛ وقد بقيت حجارته على وجه الارض ، فوقفنا عليها دون صعوبة . وكنا نضطر ، في الوقوف على غيرها من العصر نفسه ، الى النزول بالحفر الى عدة امتار (راجع الرسم ٢) . ولا غرابة في هذا الاختلاف في مستوى الارض . فان عمل السنين في نقل التراب ، وما تعاقب على الموقع الواحد من البنايات المتتابعة ، وقد كثر فيها استعمال الحجارة القديمة ونقلها من مستوى الى مستوى ؛ كل ذلك ادّى الى هذا الاختلاف ، حتى اننا لنجد آثاراً مسيحية على ستة او سبعة امتار تحت المستوى الحالي ، بينا نجد بعض الآثار اليونانية على ظاهر الارض.

بيد ان ما لاحظناه خاصةً في الاروقة المحفوظة آثارها طول الشارع الاعظم انما هو الترتيب التامّ في الابواب والنوافذ والقناطر ، مما يدلّ على اهتمام بمظهر الوحدة في ذلك التصميم ، وفي طريقة القيام به . وكانت الاعمدة المتتابعة ، تنفرج على مسافات متباعدة ، امام صرح كبير تطلّ واجهته على الشارع الاعظم؛ كما انها كانت تنفرج فتفسح المكان للدخول في شارع جديد،فتؤلف ساحة في المفرق تكتنفها القناطر العالية الرشيقة . وقد يكون امام هذه القناطر اعمدة تؤلف انصاباً تذكارية او تمجيدية عريضة القواعد مزخرفتها بالنقوش البارزة احياناً . وفي غيرها ، كانت الاعمدة تظهر مفتولة الاضلاع (الرسم ٤) على طريقة غاية في الاتقان . ومما يجدر بالذكر ان مساند الاعمدة لم تُقطع في حجارة مستقلّة ، بل قد حُفرت في قطعة العمود نفسها . وهناك زخارف متنوّعة في

تيجان الاعمدة والاعتاب اكثرها رؤوس للميدوز ، وبعض التمثيلات الحمرية المتعلقة بالاله باخوس . على ان الرقم الكتابيـة قليلة جداً ، منها رقيم باسم لوكيوس بن غايوس يوليوس اغريبا يشير الى ان سلفاءه نالوا رتبـة شرف من الامبراطور اغسطوس. ومنها رقيمان ، على بعض الاعمدة ، يذكران الامبراطور مرقس اوزيليوس ، والامبراطور لوسيوس ڤيروس . واذاً فان رواق الاعمدة كان لا يزال قائماً في منتصف القرن الثـاني ، وقد ملك لوسيوس ڤيروس من السنة ١٦١ الى السنة ١٦٦ م.

. ومما يجب ذكره ايضاً الساحة العمومية الممتدة على طول ١٠٠ متراً ، وما يزينها من اروقة تستند ، في الجهة الشمالية ، الى اعمدة تختلف عن سائر الاعمدة ، فيبلغ قطرها ١٣٠ سنتيمتراً . وهذه الاعمدة وقعت ، بعد انحطاط المدينة ، على ما تراكم من البقايا. وكان وقوعها كلها نحو الوسط ، دالةً بذلك على ان سبب هذا الوقوع هزّة ارضية مالت بها الى جهـة واحدة ؛ وظلت في هيأتها حتى اليوم.

وقد بدا لنا ، منذ السنة ١٩٣١، بعد ان كشفنا القسم الاكبر من الشارع الاعظم ، ان نحقق هذا القسم من المدينة ، فنعيد تمثيله ، كما كان ، ونعرضه على اهل عاصمتنا بروسل ، بمناسبة المعرض العام . فاستندنا الاستناد الدقيق الى نتائج الحفريات،وقام معاوني،المهندس لاكوست، بصنع القوالب من الجصجصة بادئاً بها في افامية نفسها . ثم اتمها وعرضها في بروسل ، على طول ٣٠ متراً . وفي الرسم ٥ يبدو قسم منها .

***

اشرنا ، في ما مضى ، الى تقلب صروف الدهر على هذه المدينة ، والى ما كان من تتابع البنايات في انحائها بعضها فوق البعض الآخر . فكان لا بدّ من ردم القسم الكبير منها ، ونقل الاعمدة البنائية من مكان الى مكان . ولا يزال امامنا شاهد مقنع في قلعة المضيق التي بُنيت كلها بحجارة المدينة القديمة. ولعلّ هذا هو السبب في خلوّ اطلالها من آثار الفنّ الدقيقة ، ومرافق الصناعة حتى العادية منها . فاننا لم نقف على شيء من ذلك ، كما اننا لم نقف على شيء

من الحلي، والحجارة الكريمة، والمصوغات الثمينة. وجلّ ما استخرجناه من آثار الفن بعض التماثيل البارزة المتعلقة بالعبادات الخمرية، عرفنا بينها تمثالاً لباخوس نفسه، وقد افسدته الايام، الا انه ظلّ معروفاً. وهو مرتدٍ ثياباً شرقية. وهناك تمثال لليكورغوس، وقد حُكم عليه بان يموت بين دوالي العنب، فاحاطت بجسمه، وقيّدت اعضاءه. وهي كل ما وجدناه من الآثار الدالة على عبادات الاقدمين في افامية. وقد يكون النصارى اتلفوا اكثرها عندما بنوا كنائسهم على انقاض الهياكل الوثنية.

وفوق ما تقدم ذكره، فقد وجدنا اثناء الحفريات بعض الآثار النحتية، ولكنها جميعاً من آثار الزخرف، واشهرها تمثال ضخم لجبار راكع، كأنه يحمل على يديه القسم الاعلى من البناء؛ وفي هذا يختلف عمّا نعهده في هذا النوع من الزخرف، اذ يُمثل الانسان حاملاً حمله على كتفيه، لا على يديه. وقد خال بعضهم وجودَ أثر لفنّ الشرق الاقصى في هذا التمثال، ولاسيما في جلسته المذكورة. والتمثال منحوت نحتاً بارزاً في صلدٍ من الحجر مربّع يبلغ ضلعه ١٤٠ سنتيمتراً. ورأسه واعلى صدره ويداه على غاية ما يمكن من الجلاء، حتى يمكن القول ان الرأس اتمّ ما اكتشف من نوعه من حيث تمثيل الواقع، والمبالغة في اظهار القسمات.

وقد اكتشفنا كذلك، في الشارع الاعظم، ناووساً سورياً عليه نقوش من الجهتين تمثل آلهة الحب والانتصار. على ان وجود هذا الناووس مطروحاً في الشارع يدلّ على ان مقبرة المدينة القديمة قد نُهبت، ونُقل هذا الناووس فاستُعمل حوضاً للمياه.

ومن مكتشفات السنة الفائتة عدد كبير من التماثيل الصغيرة أُدخلت في احد الجدران مع موادّ البناء، منها ما يُمثل آلهة الحب والانتصار وبينها تمثال بسيكه جالسةً (الرسم ٦) ومنها ما يمثل اشخاصاً ملتحفين بالاردية. وشد ما كان سرورنا عندما وقعنا على قطع عديدة من الفسيفساء رُصفت بها اروقة الشارع الاعظم، وكان اجملها قرب الرواق الغربي (الرسم ٧). اما موضوعاتها فمستوحاة من الحياة الشرقية، وفي مقدمتها مشاهد الصيد. فهناك اسود تمدو

وراء الغزلان ، وهناك كلاب صيد وايائل ، وعدد من البط والاوز والحباريات ، وكلاب سلوقية راكضة وراء الطيور المختلفة . كل ذلك يظهر في مسارح مملوءة بالازهار المشتبكة بما يقرب من منسوجات السجاد الشرقي . والجدير بالذكر ان هذه الحيوانات متجهة الى النواحي المختلفة ، حتى ان السائرين في تلك الاروقة ، يرون ، كيفما ساروا ، بعض المشاهد متجهة نحوهم . والى جنب مشاهد الصيد هذه ، مناظر اتخذت من الحياة العادية ، فمثل بعضها قوافل من الجمال متتابعة السير ، وقد عُلقت الاجراس الصغيرة في اعناقها ؛ ومثل بعضها ناعورة دقيقة الصنع ، دائرة حول مرتفع من الحجارة يُصعد اليه بدرج ، كما هي الحال في نواعير حماة اليوم . وبقربها رجل تظهر عليه امارات التعب كانه ينقب الارض او يسقيها .

وفي السنة الحاضرة زادت هذه المجموعة من الفسيفساء بقطعة جديدة مثلت سبعة من الصيادين بعضهم على الخيل وبعضهم رجالة ، يعدون وراء ارنب برية وفهد .

اما زمن صنع هذه الفسيفساء فلنا عليه دليل واحد وهو ان احدى القطع تحمل تاريخ السنة ٥٣٩ للمسيح .

ومن المكتشفات الحديثة كنيس يهودي بُني على انقاض هيكل قديم . وفيه قطعة فسيفساء تحمل رقيماً يشير الى ان احد السكان المدعو توماسيس دفع من ماله الخاص ثمن مائة متر مربع من الفسيفساء . (الرسم ٨)

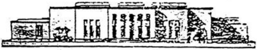
ومنها كنيسة مسيحية كبيرة ، مربعة التصميم ، بُنيت على انقاض هيكل قديم كذلك ، محتفظة ببعض اركانه . وقد وجدنا تحت مذبحها ، على عمق ١٥٠ سنتيمترًا ، قطعة من الفسيفساء ترقى ، دون شك ، الى العهد الوثني . ووجدنا كذلك عدداً من الآنية الحجرية تشبه النواويس الصغيرة ، الا ان في احد جوانبها مصرفاً للسوائل . فترددنا طويلاً في معرفة الغاية منها ، وملنا الى القول بانها احواض صغيرة لحفظ الماء . حتى اكتشفنا ، في السنة الفائتة ، واحداً جديداً من هذه الآنية ، وعليه الرقيم التالي : «هنا ذخائر القديسين قزما ودميانوس وغيرهما من القديسين .» فتحققنا ان تلك الآنية بيوت تُحفظ فيها الذخائر

المذكورة ، وتستعمل لتبريك بعض السوائل من زيوت وغيرها ، فتمرّ على البقايا المقدسة وتخرج من تلك المصارف التي اشرنا اليها. (الرسم ٩)

بقي ان نشير الى آثار لا تقلّ اهمية عما تقدم ، كما انها لا تقل دلالة على تقدّم تلك المدينة في العمران ، وعلى مقدرة اهلها في الهندسة والصناعة ، الا وهي الاقنية الحجرية التي كانت تتفرع في ارض المدينة فتوزّع الماء على انحائها المختلفة . لقد جُرت المياه الى المدينة من نقطة بعيدة في اقنية مرتبة كشفت الحفريات عن بعضها فرأينا قناةً كبيرة رُفعت ، في بعض الاماكن ، على قناطر ضخمة واركان قويّة ، والى جنبها اقنية صغيرة تتفرّغ عنها او عن غيرها ، حتى وصل عددها في بعض الشوارع الى خمسة اقنية ، وكلها مستديرة تجري فيها المياه منظّمة . وقد بلغ قطر بعضها ٤٠ سنتيمترًا . والعجب فيها ان كلها من الحجر المحفور حتى منعرجاتها وزواياها ، وقد أُحكمت اشدّ احكام . (الرسم ١٠)

***

هذا ملخص ما وقفنا عليه من آثار افامية في العهدين الروماني والمسيحي . اما العهد اليوناني فلم نتمكن من ان ننسب اليه أثرًا يُذكر . ولعلنا نقف في المستقبل على شيء من ذلك .



نسب عمر بن ابي ربيعة *

بقلم جبرائيل جبور
من اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

دنا موسم الحج ، عامَ ثلاثة وعشرين للهجرة ، وكان موسماً حافلاً . فقد كانت خلافة عمر بن الخطاب ، وكان العرب قد اخضعوا الفرس والروم ، وغلبوهم على ممتلكاتهم في العراق وفارس والشام ومصر؛ وكان قد تحدّر الى الحجاز سيل كبير من سبي هذه الاقطار، فُرّق في اهليه ، واخذوا يقومون لهم في مختلف الاعمال.

وشرعت وفود الحجاج تؤمّ بيت الله الحرام قادمةً من بلدانها المختلفة ، يتقدّمهم عمال عمر عليها . وكان من سنّته ، فيما يروون ، ان يأخذ عمّاله بموافاة الحجّ في كل سنة ، فيحاسبهم ، ويناقشهم في سياستهم ، ويفسح لرعاياهم مجالاً لشكاياتهم ، ووقتاً ينهونها فيه اليه[1].

وانسلخت ايام الحجّ بهدوء وسلام . فنفر الناس الى اوطانهم ، وغادروا مكة ، الا من اثر البقاء فيها للتبرّك بمشاهدها ، والعيش في حماها . وعاد عمر الى المدينة ، مقرّ خلافته ، مع من عاد اليها من عماله واتباعه ، وشهرُ ذي الحجة لم ينسلخ بعد.

وكانت ليلة السادس والعشرين من الشهر نفسه . القمر في اواخره ولم يبقَ له الا ايام اربعة حتى يولد من جديد . وقد وافقت ليلة الرابع من تشرين

---

*) فصل من كتاب في « حياة عمر بن ابي ربيعة »، يظهر قريبا في المطبعة الكاثوليكية .

١) الطبري ١ : ٢٦٨٠

الثاني سنة ٦٤٤م ، فكانت ليلة من ليالي قلب الخريف الثقيلة المظلمة ، وقد رقدت يثرب ، مدينة النبي ، في هدوء. ذلك الظلام واجمة ، ساكنة ، غير عالمة بما خبأ لها من الامر صبحُ ذلك الليل.

هوذا الفجر يتنفس فينعش طيبُ انفاسه ما حول المدينة من ربى واودية . ثم هوذا هو يتحرك فيبرز أُحد ، ويظهر العقيق ، وتدبّ الحياة في ساحات طيبة ، فينتفض المصلّى ، والبلاط ، والبقيع . وقد نهض الخليفة باكرًا الى الصلاة كعادته ، واخذ الناس يتهافتون متراحمين الى مسجد النبي . نوكل بالصفوف رجالًا ، حتى اذا استوت تقدم هو فكبّر.[1]

ودخل في هؤلاء الناس رجل فارسي ، مولى للمغيرة بن شعبة ، لعلّه لم ينم تلك الليلة ، او لعلّه كان يرقب مثل تلك الليلة المظلمة لينفّذ في فجرها جريمته النكراء . وهوذا هو يشقّ الصفوف سائرًا الى الامام ، وفي يده خنجر له رأسان ، نصابه في وسطه ، حتى يصل الى الخليفة عمر فيطعنه طعنات ستًّا . فيسقط الخليفة . وينادي بابن عوف ان يتقدّم الناس بالصلاة ، فيصلي ، وعمر جريح يعالج الموت[2].

مات عمر ، وذاع النبأ في المدينة ، فاستسلمت الى حزن عميق . وانها لفي حزنها ، وصوت النعيّ بمقتل كبير قريش يتردد في بيوتها لينقله الركبان الى سائر الجزيرة والعالم العربي ، اذا بصوت البشير في بيت قرشي من بني مخزوم ، يؤذن بولادة صبي له . قالوا : فسمّي الصبي باسم الخليفة المقتول وكني بكنيته[3]. لكن هذا الاتفاق ذكر لبعضهم ، فيما بعد ، فقال : ايّ حق رفع ! وايّ باطل وضع ![4]

ولعلّ من الخير الآن ان نترك هذا القرشي الصغير في مهده ، وننطلق نتعرف الى عشيرته واهله . فقد يسّر ذلك علينا فهم المحيط الذي نشأ فيه ، ويهيئ امامنا السبيل لدرس الحياة التي عاشها بين اهله ومعاصريه .

---

١) الطبري ١ : ٢٧٢٢
٢) الطبري ١ : ٢٧٢٢
٣) الاصبهاني ١ : ٢٤ ؛ وابن خلكان ١ : ٥٢٩ ، و ٣ : ١٥٩ ؛ والبغدادي ١ : ٢٤٠
٤) الاصبهاني ١ : ٢٤ ؛ والعيني ١ : ٢١٥ ؛ والدميري ١ : ٢٢٦

من قريش

هو من قريش ذلك القبيل الذي انجب محمد بن عبد الله ، نبيّ العرب ، وجامع شملهم . وكانت قريش ، في قديمها ، قد استقرت في بلدة تقع على مفترق الطرق التجارية العربية ، هي مكة . ثم لم تلبث هذه الجالية الجديدة ان تولّت الزعامة فيها ، وحملت عبء المسؤولية الكبرى ، فسارت بتجارة البلد احسن سير ، واحكمت ربط العلاقات مع مجاوريه ، فنفذت منه الى اليمن حتى شواطئ البحر الهندي ، واتصلت ببابل وسورية ؛ وعبرت البحر الاحمر الى افريقية . وعقدت المحالفات مع اقيال اليمن ، وشيوخ نجد ، وامراء العراق ، وزعماء سورية ، ورؤوس الحبشة . وكان لهم متجر عظيم ومضطرب واسع يتنقلون بين اطرافه في رحلات خاصة فيشترون السلع من قطر ، ثم يبيعونها في اسواق القطر الاخر[١] . « لايلاف قريش ، ايلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا ربّ هذا البيت الذي اطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف . »[٢]

وكانت قريش فريقين : فريقاً حلّ ببطحاء مكة ، فكانت بيوتهم حول بئر زمزم ، وقرب ساحة الكعبة ، فعرفوا « بقريش البطاح » . وفريقاً استقر في ظواهر البلد ، فعرفوا « بقريش الظواهر » .

وكانت قريش البطاح عشرة بطون[٣] ، لها شرفها ومكرماتها . وقد وزعت على رؤساء هذه البيوت الكبيرة مصالح الحكم والسلطان ، فكانوا اصحاب النفوذ في مكة .

من مخزوم

وكان حظ هذا الصبي ان يتحدّر من مخزوم . ومخزوم ريحانة قريش[٤] ،

١) راجع ، اذا شئت التوسع ، مقالَي الاب لامنس في الموسوعة الاسلامية تحت *Mecca* و *Kuraish*

٢) القرآن ١٠٦.

٣) هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم (ابن عبد ربه ٣ : ٤٥) ويروي ابن عبد ربه ، في الموضع نفسه ، ان جدّ قريش كلها فهر بن مالك ، فما دونه قريش ، وما فوقه عرب مثل كنانة واسد وغيرهما .

٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٥٤ ؛ وابن ابي الحديد ٤ : ٣٦١

وبيت من بيوتها الاولى في الشرف والجاه والعز والمنعة والجود[1]، يرجع نسبهم الى يقظة بن مرة، ثم الى قريش، دون ان يتصل بقصي[2]. وكان نصيبهم من مكرمات قريش في الجاهلية القبة والاعنة. وزعم الرواة ان هذه المكرمة ظلت لهم في الاسلام، فكان منهم خالد بن الوليد الذي انتهى اليه شرفها في الجاهلية فوصله بالاسلام[3]

غنى مخزوم

ولقد عرفوا بالغنى والثروة في جاهليتهم. فكان منهم التجار الاغنياء، واصحاب الثروات الكبرى، امثال الوليد بن المغيرة، وقد قال فيه القرآن، فيما يقول المفسرون، «ذرني ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد. كلا انه كان لآياتنا عنيدا.»[4] وعكرمة ابن ابي جهل، وقد روي عنه انه لما وفد على النبي مسلماً قال له النبي: «ما انت لتسألني اليوم شيئاً اعطيه احداً من الناس الا اعطيتكه.» قال عكرمة: «فقلت ما انا لأسألك مالا، اني لمن اكثر قريش مالا.»[5] وكان لهذه العشيرة المخزومية من الاموال في قافلة بدر ما قيمته نحو خمسة آلاف مثقال من الذهب[6]. ومما يزيد انه كان في حوزتهم كثير من النقد انهم عرضوا، فيما يروى، على النبي ان يبيعهم جسد قتيل واحد من قومهم قتل يوم الخندق،

١) ابن ابي الحديد ٤: ٢٩٢.

٢) وستنفيلد .G. T., II, S

٣) ابن عبد ربه ٢: ٤٥. وفيه: «اما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش – جيش قريش – واما الاعنة فانهم كانوا على خيل قريش في الحرب.» غير ان الاب لامنس ينكر ان يكون لهاتين المكرمتين هذا المعنى الحربي، ويزعم ان القبة من بقايا تقاليد القوم في الجاهلية، وانها كانت تحوي رموزاً لمعبوداتهم وتوضع كهودج على جمل وتتناوب الاعيان والاشراف قيادة الجمل من عنانه. وينفي ان يكون ابن الوليد قد احتكر هذه المكرمة. (الموسوعة الاسلامية، تحت Mecca ٤٢٨)

٤) القرآن ٧٤: ١١–١٦؛ والبيضاوي ٢: ٣٦٨

٥) الطبري ٣: ٢٣٨٦

٦) لامنس: الموسوعة الاسلامية، تحت Makhzum، ص ١٧٢

واعطوه بجسده عشرة آلاف درهم[١] . وقدموا في فداء اسراهم في واقعة بدر، فافتدوا كل اسير باربعة الاف درهم[٢] .واستسلف النبي من احدهم ، بعد فتح مكة ، بضعة عشر الفاً .فلما رجع من حنين دعا به فردّ عليه ماله وشكره[٣] .

وظلت العرب تتحدث بغناهم حتى زعموا ان معاوية قال لجلسائه :« اذا جاءت هاشم بقديمها وحديثها ، وجاءت بنو امية باحلامها وسياستها ، وبنو اسد بوافدها ودياتها ، وبنو عبد الدار بحجابها ولوائها ، وبنو مخزوم باموالها وافعالها ، فمن ذا يحمل مضمارها ويجري الى غايتها ؟ »[٤]

تجارتهم وتوذهم

وكانوا اهل نشاط وهمة . ويظهر انهم هم الذين فتحوا الخطوط التجارية المكية الى مختلف الجهات لذكائهم ونشاطهم وحدّتهم ، وقد قيل فيهم انهم كالنار :

ابناء مخزوم الحريق ، اذا حركته تارةً ترى ضرما
يخرج منه الشرار ، مع لهب ، مَن حاد عن حدّه فقد سلما (٥

ويشير الاب لامنس الى انهم ، في منتصف القرن السادس للميلاد ، كانوا مالكي زمام اهم امور مكة ، لا يستثني الا الدينية . وانه لم يكن هناك غيرهم يستطيع حفظ التعادل مع قوة الامويين التي كانت تزداد . ويذكر ان اسمهم في هذا الزمن اخذ يُعرف ويشتهر حتى صار مرادفاً لقريش[٦] .

المغيرة وابناؤه

وظهر في مخزوم المغيرة بن عبدالله ، وكان معاصراً لعبد المطلب ، جدّ النبي العربي[٧] ، فكان سيداً في عشيرته . واخذ ابناؤه ينتسبون اليه حتى صارت

١) ابن هشام ٢ : ٦٦٩ ٢) الواقدي (م) ١٣٦
٣) الطبري ٣ : ٢٣٨٦ ٤) ابن عبد ربه ٢ : ١٣٥
٥) لامنس : الموسوعة الاسلامية ، تحت Makhzum ، ص ١٧١
٦) لامنس : الموسوعة الاسلامية ، تحت Makhzum ، ص ١٧١
٧) لامنس : الموسوعة الاسلامية ، تحت Makhzum ، ص ١٧١

كلمة المثيري مرادفة للمخزومي[١] . بل كان عمر فيما يظهر من شعره يؤثر الانتساب الى المغيرة ، وقد قال :

قني، فانظري، اسماء، هل تعرفينه ؟ اهذا المغيريّ الذي كان يذكر ؟ [٢]

وكان للمغيرة من الابناء احد عشر ذكرًا[٣] كاثر بهم قريشًا . ولعلهم كانوا عاملًا في عزه ومناعته .

ونبغ منهم ثلاثة : هشام ، والوليد ، وابو ربيعة . اما هشام فقد عزّ حتى لقّب برب مكة ، فيما يزعمون[٤] . وضرب بيأسه المثل ، وتغنى بمجده الشعراء ، فقال ابن غزالة الكندي ، وهو يمدح بني شيبان ، ولم يكن في موضع رغبة الى بني مخزوم ولا في موضع رهبة :

كأني ، اذ حطّت الرحل فيهم ، بمكة ، حين حلّ بها هشام ! [٥]

وقال آخر :

واصبح بطن مكة مقشعرًا ، كأن الارض ليس بها هشام ! [٦]

حتى اذا مات اخذت قريش تؤرّخ بوفاته ، فيما يروون ، لاعظامها اياه[٧] .

واما الوليد اخوه فقد رووا عنه انه كان سيدًا من سادات قريش ، وجوادًا من اجوادها ، وكان يلقّب بالوحيد ، وزعموا انه كان يجلس بذي المجاز فيحكم بين العرب ايام عكاظ[٨] . وادرك محمدًا نبيًا فانكر عليه رسالته وقال : « أينزل على محمد ، واترك ، وانا كبير قريش وسيدها ، ويترك ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين ؟ » قالوا : فنزل فيه : « وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم . » [٩] وهو الذي قال فيه

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٧٣ ٢) ابن ابي ربيعة (ع) ١٨٢

٣) وستنلد G. T., Part. II., S ، انظر الجدول بجانبه

٤) ابن دريد ٩٣ ٥) ابن ابي الحديد ٤ : ٢٩٣

٦) ابن ابي الحديد ٤ : ٢٩٣

٧) ابن ابي الحديد ٤ : ٢٩٣ « قالوا : كانت قريش وكنانة ، ومن والاهم من الناس ، يؤرّخون بثلاثة اشياء : كانوا يقولون : كان ذلك زمن مبنى الكعبة ، وكان ذلك من مجيء الفيل ، وكان ذلك عام مات هشام بن المغيرة . »

٨) ابن ابي الحديد ٤ : ٢٩٤

٩) ابن عبد ربه ٣ : ٢٥ ، والاصبهاني ١٥ : ١١ ، وابن هشام ١ : ٢٣٨

القرآن: « ذرني ومن خلقت وحيدا ... » الى آخر الآيات.

وامّا ابو ربيعة فقد كان فارس بني المغيرة قاتل يوم عكاظ برمحين، فيما يزعمون، فسمّي ذا الرمحين[1].

وقد قال الشعراء كثيرا في هؤلاء الثلاثة، وتغنّوا بمجدهم:

وبلغ، ان بلغت بنا هشاماً، وذا الرمحين بلّغ، والوليدا
اولئك، ان يكن في الناس جودٌ، فان لديهم حسباً وجودا
هم خير المعاشر من قريش، واوراها، اذا قدحوا، زنودا [2]

وخلّف هشام ابا جهل، وكان من اشدّ خصوم النبي[3]، هو وابنه عكرمة. فلما وفد الاخير على النبي بعد فتح مكة داخلاً في الاسلام، استبشر محمد بقدومه، ووثب، فيما يقول الطبري، قائماً على رجليه، وما عليه رداء، فرحاً بعكرمة، وقال له: « مرحباً بالراكب المسافر او المهاجر. »[4] وقال ابن ابي الحديد: « لم يقم رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله، لرجل داخل عليه من الناس شريف ولا مشروف الا عكرمة، وهو بعد مشرك، ولم يسلم. »[5]

وخلّف الوليد عمارة. وكان، فيما يروون، احد ازواد الركب، وهم قوم كانوا لا يمرّ عليهم احد الا قروه، واحسنوا ضيافته، وزوّدوه ما يحتاج لسفره. ويزعم بعض الرواة انه هو الذي كان يلقب بالوحيد[6]. وكان يشرب الخمرة وينظم الشعر[7]. وخلّف ايضاً خالداً الشهير. فكان اول امره كابي جهل من اشدّ الناس خصومة للنبي العربي. ثم اسلم قبل فتح مكة. واشترك بعدئذ في الفتوحات الاسلامية. فكان من اشهر القوّاد المسلمين على الاطلاق. وقد اسلفنا ان بعضهم يزعم انّ الى خالد هذا انتهى شرف المكرمة التي كانت لبني مخزوم في الجاهلية، فوصله بالاسلام. وكان لخالد من الشهرة بصحبة محمد والغناء في حروبه، المحلّ المعروف حتى لقبه محمد بسيف الله. ويروى

1) الاصبهاني ١: ٣٠
2) ابن ابي الحديد ٤: ٢٩٥
3) ابن هشام ١: ٢٦٣
4) الطبري ٣: ٢٣٠٧
5) ابن ابي الحديد ٤: ٢٩٦
6) الاصبهاني ١٦: ١٥٨
7) الاصبهاني ١٦: ١٥٨

انه لما هاجر الى النبي محمد ، قبل فتح مكة ، هو ونفر من صحبه ، قال النبي ، لما رآهم ، لجاءته :« رمتكم مكة بأفلاذ اكبادها . »[١]

وكان عبد الرحمن ابنه ، فيما بعد ، مع بني امية في الشام . وروي ان معاوية ، لما اراد ان يظهر العقد ليزيد ، قال لاهل الشام :« ان امير المؤمنين قد كبرت سنه ، ويريد ان يستخلف عليكم فمن ترون ؟ » قالوا :« عبد الرحمن ابن خالد بن الوليد . » فسكت واضمرها . وزعموا انه دسّ ابن اثال الطبيب اليه فسقاه سمًّا فمات[٢].

وكان بنو المغيرة اعزاء في قومهم ، حتى زعم الاصبهاني انه ضرب بعزّهم المثل ، وذكر شعرًا لابي ذؤيب الهذلي ، في مرثاته الشهيرة ، دليلًا على شهادة الناس بعزّهم :

صخب الشوارب ، لا يزال كأنه عبد لآل ابي ربيعة مسبع[٣]

ومما يشير الى عزّهم ما رواه ابو الفرج من ان احد المخزوميين من بني المغيرة قدم من البحرين ، فنزل على الزبرقان بن بدر بجانه فحلأه ، فنزل على بني انف الناقة ، فاكرموه ، وذبحوا له شاة ، وقالوا :« لو كانت ابلنا منا قريبة لنحرنا لك منها » . وقال بعض بني انف الناقة يعيّر الزبرقان :

أتدري مَن منعت ورودَ حوضٍ ؟ سليل خضارم منعوا البطاحا !
ازاد الركب تمنع أم هشامًا ؟ وذا الرمحين امنعهم سلاحا !
هم منعوا الاباطح دون فهر ، ومن بالخيف ، والبدن اللقاحا ،
بضرب دون ؛ يغشهم طلحف ، اذا الملهوف لاذ بهم ، وصاحا
وما تدري بأيهم تلاقي صدور المشرفيّة والرماحا[٤]

وعُرفوا بالبأس والشدة في الحرب . وفي هذه الابيات ، كما ترى ، اشارة الى بعض مآثرهم فيها . ويظهر من اقوال الرواة انه كان لبني المغيرة مكانة واثر في ايام العرب الاولى . فقد نقل عن ابي عبيدة انه ذكر ، في تاريخ ايام العرب ، في الوقائع بين هوازن وكنانة ، خبر يوم شرب قال : ولم يكن بينهم يوم

١) الاصبهاني ١٥ : ١١
٢) الاصبهاني ١٥ : ١٢
٣) الاصبهاني ١ : ٣١
٤) الاصبهاني ٣ : ٥٦ ؛ وابن ابي الحديد ٦ : ٢٦٤

اعظم منـه . فحميت قريش ، وصابرت بنو مخزوم وبنو بكر . فانهزمت هوازن وقتلت قتلًا ذريعاً . وقال احدهم يمدح بني المغيرة :

الا لله قومٌ ولدت اخت بني سهم!
هشام ، وابو عبد مناف ، مدره الخصم
وذو الرمحين ، أشبال من القوة والحزم
فهذان يذودان وذا من كثب يرمي [١]

ويروي ابن سلام الجمحي انه كان لبني المغيرة بلاء في الفجار[٢] ، ويروي ابو الفرج ان بني مخزوم كانت تلي كنانة يوم عكاظ ، فحافظت حفاظاً شديداً . وكان اشدهم يومئذ بنو المغيرة فانهم صبروا وابلوا بلاء حسناً[٣] . وزعم بعض الرواة ان ذا الرمحين سمي كذلك ، لانه قاتل ، يوم عكاظ ، برمحين[٤] . اما في الاسلام فحسبهم خالد بن الوليد ، وما كان له من الاثر والبلاء في حروب الردة ، وفتوحات العرب في العراق والشام .

ويذكر الاب لامنس انه كان لهم التأثير الاكبر في مجلس كبار مكة « الملأ » . قال : وكان في الغالب يتكلم مخزومي بالنيابة عن الملأ كما جرى يوم مفاوضة محمد ، اول نشره دعوته[٥] .

وكانوا ، فيما يظهر من اقوال الرواة عنهم ، او من شعر شعرائهم ، معجبين بانفسهم . ولعلهم قد احسوا بقديمهم ومكانتهم وصيتهم ، فنشأوا فخورين حتى ان الجاحظ يقول انهم كانوا تياهين[٦] . وذكر القالي في اماليه ان ام المغيرة ابن سلمة قالت ، وهي ترقصه :

نمى به الى الذرى هشام ، قرمٌ ، وآباءٌ له كرام ،
جحاجح ، خضارم ، عظام ، من آل مخزوم ، هم الاعلام ،
الهامة العلياء ، والسنام [٧]

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٣٧٢ ؛ والاصبهاني ١ : ٣٠ و٣١
٢) ابن سلام : ٥٨ ٣) الاصبهاني ١٩ : ٧٦
٤) الاصبهاني ١ : ٣٠
٥) لامنس : الموسوعة الاسلامية ، تحت « مخزوم »
٦) الجاحظ : البيان والتبيين ٣ : ١٧٧ ٧) القالي ٣ : ١١٨

ويظهر ان هذه العائلة فقدت كثيراً من زعمائها ورجالها في واقعة بدر ، حتى انها اضطرت ، فيما بعد ، ان تتخلى عن الزعامة للبيت الاموي. ويلوح انه مما اضرّ بشهرتهم وسمعتهم في اخبار المسلمين انهم ناصبوا النبي محمدًا العداء . وتتخذ الأخبار من شخص ابي جهل عدوًا كبيرًا لمحمد والاسلام . ولعلّ مقاومتهم للاسلام ، هم وبنو امية ، كانت من الاسباب التي دعت البعض ان يسمي القبيلتين « بالافجرين » ، وحملت بعض المؤرخين على الغضّ من مكانتها قبل الاسلام وبعده. ومها يكن من الامر ، فقد حافظ بنو مخزوم في الاسلام على شيء من مكانتهم وجاههم ، ووجد بين المؤرخين من انصفهم . ولقد وضع ابن ابي الحديد ، في شرحه لنهج البلاغة ، فصلًا في فضائل بني مخزوم ، فيه قصة تصح ان تكون ملخصاً له . قال :

« سأل الحجاج اعشى همدان عن بيوتات قريش في الجاهلية. فقال : اني قد آليت الا انفر احدًا على احد ، ولكن اقول وتسمعون . قالوا : فقل . قال : من ايهم المحبّب في اهله ، المؤرّخ بذكره ، محلّي الكعبة ، وضارب القبة ، والملقّب بالخير ، وصاحب الخير والمير؟ قالوا : من بني مخزوم . قال : فمن ايهم ضجيع بساسة ، والمنحور عنه الف ناقة ، وزاد الركب ، ومبيض البطحاء ؟ قالوا : من بني مخزوم . قال : فمن ايهم كان المتّع في حكمه ، والمنفّذ وصيته على تهكمه ، وعدل الجميع في الرفادة ، واول من وضع اساس الكعبة ؟ قالوا : من بني مخزوم . قال : فمن ايهم صاحب الاريكة ، ومطعم الحريرة ؟ قالوا : من بني مخزوم . قال : فمن ايهم الاخوة العشرة الكرام البررة ؟ قالوا : من بني مخزوم . قال : فهو ذاك . فقال رجل من بني امية : ايها الامير ، لو كان لهم ، مع قديمهم ، حديث اسلام . فقال الحجاج: او ما علمت بان منهم ردّاد الردّة ، وقاتل مسيلمة ، وآسر طلحة ، والمدرك بالطائلة ، مع الفتوح العظام والايادي الجسام ! » [1]

---

١) ابن ابي الحديد ٤ : ٢٦٦

صوت لبنان

في مؤتمر البحر المتوسط

بقلم شارل قرم

عقد المجمع العلمي للبلدان الواقعة على البحر المتوسط مؤتمرًا للثقافة تتابعت جلساته ، في مدينة موناكو ، من ٣١ تشرين الاول الى ٢ تشرين الثاني ١٩٣٥ . وقد مُثلت فيه كل الدول الواقعة على بحرنا هذا ، الآخذة بانواع الثقافة المزدهرة على شواطئه ، من اسبانية وفرنسة وايطالية واليونان الى لبنان ومصر وتونس والجزائر ومراكش . ومتى عرفنا ان من اعضاء ذاك المجمع العلمي مَن هم في قمة الثقافة العالميـة اليوم ، على اختلاف النزعات ، كلويس برتران ، وبول ڤاليري ، وغبريال هانوتو ، وغبريالي دانونزيو ، وهنري جيرو ، ولويجي پيراندللو ، وبول موران ... ومتى عرفنا ان هذا المؤتمر الدولي للثقافة هو الاول من نوعه تشترك فيه كل الدول المذكورة ويشرّفه برعايته امير موناكو ؛ ومتى عرفنا انه كان من المساهمين في اعماله م. پوليتيس ، وزير اليونان المفوّض في باريس ، وجان استرليش ، رئيس مجلس الثقافة في قتالونية ، ولويس پيرار رئيس نادي الكتّاب في بلجيكة ، وكلود فارير ، ولويس برتران ، وبول ڤاليري ، وفرديناند باك ، والشاعر جان ديتيو ، وغبريال بولتيي وغيرهم ؛ ادركنا عمل المجمع المذكور في سبيل التفاهم بين شعوب ودول اختلفت نزعة ونزعات ، على اشتراكها في ثقافة ، متفرّعة المظاهر دون شك ، ولكنها موحّدة الجوهر والميزة الاساسية .

وقد كان من حظّ لبنان ان مثّله ، في تلك الحلقة السامية من ارباب الفكر وامراء البيان ، شاعر مفكّر صبغ الهامه الصافي بروعة الجبل الاخّاذة ، وصقل فكرته العميقة بطلاقة البحر الرصينة ، واذا به صورة لبنان ، ذاك البرزخ الواصل بين الشرق والغرب ، بل تلك الصلة بين الثقافتين تأخذ ما فيهما من حسنات وتخفّف ما اختصّتا به من نشزات . مثّل شارل قرم لبنان بكل ما فيه من نزعة الى العلم الصحيح لا يقف في سبيلها عقبة ، ومن اخذ بالشعر الصافي لا يحدّه همّ ماديّ ؛ ومن سعة فكر ورحابة صدر استاثرت بها تلك الرسالة الانسانية السامية التي اخذ اللبناني على عاتقه ان يلقّنها العالم ، منذ ان كانت فنيقية حتى اليوم ، لا توقفه في تحقيقها حدود جغرافية ، ولا تعصّبات عنصرية ، ولا نزعات قومية . يحدّه ، في كل ذلك

اخلاص تربه لعمله لا تشوبه منفعة ذاتية ، وايمان وطيد بالله لا يحجب قنوط ، ولا يزعزعه شك . هذا ما بدا في خطابَي شارل قرم ، في اولى جلسات المؤتمر ، وفي جلسته الختامية . وهو ، لعمري ، لبنان نفسه يغنّي في ماضيه العريق ؛ وحاضره العجيب ؛ ومستقبله الزاهر ، ان شاء الله . وقد كان لجرأة الخطيب الجذّابة ، ولفخره المشروع ، ابعد وقع ، واعمق تأثير . فردّدت الصحف الادبية ، من فرنسوية ولبنانية ، صدى التصفيق الشامل الذي هاجه شاعرنا في ذاك الحفل الرصين (١) . وكان من واجبنا ان نلخّص خطابه الاول ، وفيه وصف لبنان ؛ وان ننشر كاملاً خطابه الاخير وفيه امنية لبنان .

بدأ الخطيب كلامه شاكراً لامير موناكو الحالي عطفه على المؤتمر ، ذاكراً شكر لبنان للامير السابق تفضّله على مكتبة بيروت الوطنية بمجموعة منشورات معهد الدروس الاوقيانوسية . ثم حيّا المؤتمرين تحية اهل لبنان ، المعتبر بعدد سكانه ، الكبير بثقافته الاخلاقية والاجتماعية .

بعد ذلك عرض لوصف لبنان وصفاً جمع بين التصوير الجغرافي ، والمعلومات التاريخية ، والاسلوب الشعري ، مشيراً الى ان اكثر شعوب العالم مرّت في تلك المنطقة الضيّقة فتركت آثارها الناطقة الى اليوم ، حتى ان من يدرس لبناننا الحاضر ، في طيّات ماضيه ، يخال نفسه في مؤتمر للثقافات المتنوّعة اشبه بالمؤتمر الحالي ، وقد لا يستبعد ان يجد بين اولئك المؤتمرين اجداداً لغير واحد من اعضاء مؤتمر موناكو هذا .

ولهذا رأى الخطيب « ان يصوّر لبنان الطبيعي بخطوط اجمالية تظهر ، على رغم ما يغلفها من تجعّدات خدّدها الزمن، ومن جراح حفرها المكتشفون ، وجه لبنان المعنوي، وما اختصت به آدابه من نفحة انسانية تولدت في ارض مثّلت بين سكانها كل العناصر البشرية تقريباً ، وفي طليعتها فرنسة ، منذ محاربي غالية القدماء حتى اساتذة الجمهورية الثالثة ، ماراً بابراء الرحلات الصليبية ، وبسادة الادب ، وبما لا يحصى عدده من مرسَلي الرهبنات المختلفة . »

واذا به يندفع في ذلك التصوير الطبيعي الشعري . واذا بنا نرى الجبال اللبنانية ترتمع من سراب الاحقاب مقتربةً من الشاطئ متشامخة لتلقي نظرها الفسيح على تجعّدات الموج ، فتطبع فيها مرآتها المتابعة الى الابعاد السحيقة . واذا بنا نشاهد المدن الفنيقية تنفض عنها غبار

١) راجع ، في ذلك ، وفي جلسات المؤتمر عامة :

Les Nouvelles Littéraires, Paris, 3 Nov. 1935, n° 682, p. 7

La Revue du Liban, Paris, Décembre 1935, p. 1, 13, 18; Janvier 1936, p.2

Le Front Latin, organe du Comité France-Espagne, Paris, Janvier 1936, p. 13, 19 ...

Etudes, Paris, 5 Janvier 1936, p. 74.

المعرض ، بيروت ، ٢٧ كانون الاول ١٩٣٥ ، ص ١٤

البشير ، بيروت ، ٨ ، و١١ ، و١٣ شباط ١٩٣٦

العصور فتبرز تير، وصيدون ، وبيريت ، وجبيل ، وبوتريس ، وأراد ، وأنتراد ، مخرجة ما في طياتها من آثار تلك المدنية الجزيلة الفضل على الانسانية الحاضرة . واذا بنا نرتفع شيئاً فشيئاً من ساحل نهر الكلب - وقد وقع على صخوره كبار الغزاة من العصور السحيقة حتى عصرنا القائم الضخمة - الى مشارف الجبل . وهناك دير القمر المستريحة فيها عظام الشهداء الى رفات ابطال البعثة الفرنسوية سنة ١٨٦٠ ؛ وهناك حمانا وبكفيا وكانتا الى امس غمدان صناعة ليون بحريرها ؛ وهناك بتدين وقصرها الفخم الذي استقبل لامرتين . هناك قصر البطل دي بوفور في مرتفعات صيدا ؛ وهناك في طرابلس، قصر ريمون دي تولوز سيع مليسند ، الاميرة البيضاء ، التي اوحت الحب لجوفروى رودل ، كما اوحت الفن لكردوتشي وادمون روستان . هناك غزير ، منزل رينان الذي فهم فيها لاول مرة عذوبة الاناجيل ، فكتب حياة يسوع ؛ وهناك غوسطا حيث كان يمثل شيوخنا ، تجاه الشرق المسيحي الاسلامي ، عظمة لويس الرابع عشر ؛ وهناك عمشيت ترقد فيها هنريت رينان في قبر لبناني ؛ وهناك اهدن وبشري وحصرون آخر معاقل العليبيين في جبالنا.

وينتقل المحاضر الى منبع الاردن ، فالى سهول البقاع ، فالى ينابيع الصامي ، بعد ان يقف على اطلال بعلبك وقفة شاعر ذاكر . ويختم محدداً بلاده طبيعة ومعنى بكلمة واحدة ، هي الصعود : صعود في تلك الجبال الشاهقة ، بل في تلك السهول ، وهذا ارتفاع البقاع يبلغ الالف متر . صعود في تلك الآداب التي عبرت ، حتى في اللغات الميتة اليوم ، عن اسمى ما في النفس البشرية من طموح الى الحياة الخالدة . ولا يزال اللبنانيون التليلو العدد ، المنتشرون اليوم ، كما كانوا منذ العصور الفنيقية ، في جميع انحاء العالم ، يعملون في حقل تلك المدنية التي اوجدوها ، ونشروها ، وحافظوا عليها ، تلك المدنية القائمة بروح التساهل والمحبة ، الرامية الى تحقيق غاية الثقافة الانسانية ، الموافقة النفس البشرية على اختلاف نزعاتها ؛ تلك المدنية التي نشرها اللبنانيون قبل المسيح ، واسمهم الفنيقيون اذ ذاك ، في مختلف القارات ، والتي ظلوا على الاهتمام بها ، بعد ان طهرتها النصرانية فقربتها الى الطبيعة البشرية من جهة ، ورفعتها من جهة ثانية الذما فوق هذه الطبيعة ، فاخذوا يعملون شأنهم في ما مضى على نشرها والدفاع عنها ، متشبثين بهذه المنطقة الضيقة التي لجأت اليها النصرانية الاسيوية فحفظتها ، وحدها ، من بلاد اليابان الى تركية ، من المحيط الهادي الى البحر المتوسط . هذه المدنية اساس الآداب اللبنانية المعبر عنها في مختلف اللغات ، والتي لا تزال ، لسوء الحظ ، مجهولة على ما فيها من العناصر المهمة لتكوين الثقافة الانسانية السامية . هي آداب شخصية تمثل صلة بين آسية واوربة ، تتهمل بعض القيود العقلية الضيقة في مدنية اوربة ، دون ان تنصرف عن فهم الحقيقة كما هي ؛ كما انها تبدد بعض الخيالات الناعمة في المدنية الاسيوية ، دون ان تنحرف عن السير في سبيل المثال الاعلى الفائق .

ثم عرض المحاضر في الجلسات المتتابعة ما يؤيد قوله من وثائق وابحاث ودروس لبنانية دلت على ان الادب اللبناني الحي يستند الى تلك الاركان الاربعة التي يقوم عليها هيكل المثال الفائق الذي نسميه بالمدنية ، الا وهي : محبة الله ، ومحبة الانسانية ، ومحبة الوطن ، ومحبة الاسرة .

وختم خطابه بعدد من الاحصائيات دلّت على ان لبنان ، على صغر رقعته وقلة سكانه ، يظهر في طليعة المناطق المثقفة في العالم ، وفي مقدّمة العاملين على اقرار تلك المدنية الانسانية التي من اجلها عُقد مؤتمر موناكو . واذًا فان له امنيّة يبتغي ان يليها في الجلسة الختامية، وينبغي ان تُسمع ، ويُعمل على تحقيقها . وهكذا كان .

اما تلك الامنية فهذا نصّها بالحرف :

امنية لبنان

لما كانت الثقافة العالمية في حوض البحر المتوسط ترمي الى تحقيق نظام فكريّ خاص ، والى الاحتفاظ به ، ونشره ؛ ولما كانت غايتها انشاء مثالٍ انساني أعلى يتمشى عليه الفرد والجماعة ؛ فمن الضروري ان نتفق على تحديد هذا المثال.

نحن اللبنانيون ، الناشئون في بلدٍ يبدو صفيحة دائرة تصل الاقطار الثلاثة ، المكتسبون من تقلّبنا في المدنيات جمعاء منذ ستة آلاف سنة ، اختبارًا يشهد لنا التاريخ به ، المحتكّون بكل المدنيات المعروفة في العالمين ، ماضية وحاضرة ، متأثرين بها ومؤثّرين — لا يمكننا ان نحصر هذا المثال الاعلى في تعليم علميّ وادبيّ وفنيّ محض، ولا في تدريب عمليّ يعود علينا بالنفع العاجل، حتى ولا في اجمل طريقة لمزج هذا بذاك.

ان المثال الانسانيّ الاعلى الذي نعتبره غايةً لمدنيتنا ، بل للمدنيات جمعاء ، فندافع عنه وننعته ، هو امتزاجٌ عادل بين ما يفتقر اليه الانسان وما يتوق اليه ، من الوجهتين المعنوية والمادية . وهو — مع كونه لا يتهرّب من الوقائع الحاضرة ولا من ضروريات الحياة المادية — لا يتحقق الا في الميدان الروحي ؛ لانه يتضمن ، في وقت واحد ، التفتيش عن العلل الاولى ، وتحقيق غاية الانسان العليا —: وهما شرطان اساسيان ، ان فقدهما الانسان ، ضلّ عن العالم وعن نفسه .

فعلينا اذًا ان نحذر استبدال الانظمة بعضها ببعض ، وان نفرق بين العناصر الماديّة والتقانية وهي ليست الا واسطة، والعناصر الخلقية والاجتماعية والروحية،

وهي ، في تدرّجها المقرر في الفرد وفي الاسرة ، في المدينة وفي الدولة ، تثبت ذاك المثال الاعلى الذي يجب ان يكون غايةً للحضارات كلها.

فاذا كان بعض الفضل في انشاء حضارتنا راجعاً الى الثقافة العالمية المنتشرة في محيط البحر المتوسط ، فليس السبب في ذلك محصوراً بدرس الكتّاب المدرسيين من لاتين ويونان ، ولا بامتداد تأثير الثقافة اللاتينية - اليونانية في مظاهر المجتمع الجديد . ذلك ان اولئك المدرسيين ، وتلك الثقافة ، لم يمنعا انهيار اجمل ما بنياه من انظمةٍ سياسية واجتماعية في شرّ الملمّات التي لا تزال تهددنا اليوم.

وفوق ذلك فان بقاء الثقافة والحضارة اليونانية - اللاتينية ، بعد تطورها ، في انظمتنا الحاضرة ، عائد الى :

١ انهما وُلدتا ، قبل التاريخ المسيحي ، مما هو ارحب وامتن من العالم اليوناني - اللاتيني نفسه : من مُثلٍ عليا ، كانت لا تزال حائرة في التاريخ القديم ، تتلمس قاعدتها وغايتها من دون ان تجدهما ، ولكنها حاصلة على قسط من المحبة البشرية يكفيها لان تدرك اكثر وافضل مما هو سريع التحقيق في الفرد والامة والجنس والانسانية ، ولان لا تفهم الانسان والانسانية كفاية في نفسيهما ، بل كعنصرين ، كلٌّ منهما مسؤول تجاه الآخر ، وكلاهما مسؤولان تجاه الكائن المجهول الكلي القدرة الذي تشعران بوجوده . لو كان اكبر المفكرين القدماء يعتقدون ان الانسان والانسانية غاية في نفسيهما ، لما استطاع سقراط ان يبتسم وهو يشرب السم ، ولما كان الاسكندر ، وهو فاتح عالمٍ جاثٍ على قدميه ، يعثر الجبين امام آلهة فنيقية ومصر وفارس والهند.

٢ لان الدين المسيحي ، الذي لم يفهمه الناس تماماً حتى في عصرنا ، — على كونه يتابع سيره الى تحققه الاكمل ، — نفخ في الثقافة اليونانية اللاتينية حياةً جديدة ، فاستطاعت النبتة الوثنية ان تقدم ثمارها ، ثمار اتجاهها نحو تلك الفضيلة السامية التي نعرّف بها المثال الانساني الاعلى ، تلك « المروءة » (virtus) التي طمح اليها حكماء الزمان الغابر ، فلم يُتح لاقدرهم الا مشاهدة قبس ضئيل من نورها — في حين ان النصرانية الصميمة وحدها تكلّل بها جهود ايّ مدنية

كانت.

وقد كان للاسلام اثر حسن، ولا شك، في تمدين الاخلاق القديمة، يوم انتزع من الوثنية طائفة كبيرة من بلدان الشرق الفسيحة. ان محمداً، الناظر الى المسيح باجلال تشهد به آيات هي من اجمل ما ورد في القرآن، يدفعنا، بصفته مهذباً للاخلاق كبيراً، ان نعترف هنا، كما نعترف حيثما وجدنا، بان لا حضارة ممكنة بلا اخلاق، ولا اخلاق متينة بلا دين.

لا الميراث اللاتيني - اليوناني، ولا التعاليم الباقية من عصور «النهضة»، و«الاصلاح»، و«الثورة»، ولا المذاهب العصرية القائمة على الايمان بالواقع او بالعقل او باللذة، تكفي لانشاء تلك الثقافة العالمية التي نحلم بها، والتي لا تتحقق الا اذا دعمتها الديانة المسيحية.

حتى في عصرنا الحاضر، الذي لا تمثل وقائعه لاعين المطلعين الا تلك الحوادث القديمة، العادية، مطبوعة في آخر صفحات التاريخ، نجد ان الشعوب الغارقة في تلك المذاهب الرجعية الدائمة بها الى التمسك بغرائزها القبلية مقرونة باعتقادٍ متلجلجة، هي، بالرغم من ازدهار علومها، وتقدم ثقافاتها، ودقة آلاتها، تلك التي تخلّت عن النصرانية، عائدةً الى وثنيةٍ جديدة، همجية هدّامة. ان هذه المدنية المزعومة، مدنية بلدان تُراني بالنصرانية، هي التي تثير فينا مطامعنا الشخصية، وتلقينا في مجازر هائلة ما فتئت عاراً على الانسانية.

وسواء أجاهرت هذه الحضارة بالالحاد ام موّهت بالمسيحية، فانها، بما فيها من نهمة للقوة وشغف بالمادة، ستؤدي باوربة، ان لم تتنبه للامر، في زمن قد لا يبلغ مئة سنة، لا الى اضمحلالها التام، بل الى انحطاطها، واستعبادها، واستثمارها على الطرق الاوربية نفسها، وقد استغلتها شعوب فتية نشأت وراء اوربة ولم تنحط عنها قوة وعلماً. فنصبح اذ ذاك، بفضل تجاهلنا، وتباغضنا، وتهالكنا المتبادل، ارقاء للصُفر، او عبيداً للسود، ما لم نصبح رعية بلهاء للسكنة الوثنية، او مستهلكين انهكتهم حاصلات الآلات الاميركية.

واذاً فليس علينا ان ننقذ فقط ميراثنا الروحي في حوض البحر المتوسط، وحياتنا النفسية، حلية الانسان وضمانة سعادته في هذا العالم وفي الآخر، انما

علينا ، فوق ذلك ، ان نحافظ ، في دفاعنا عن هذا الميراث ، على كياننا وكرامتنا .

والنصرانية وحدها تقدّم لنا اسباب النجاة . انا لا اعني بالنصرانية احدى تلك المجموعات لاقاويل جوفاء تخفي سياسة جائرة في الداخل ومستمرة في الخارج ؛ انا لا اعني بالنصرانية تلك الديانة الظاهرة على الشفاه وحدها ، قناعاً لمادّيّة الرأسماليين ومتاهةً لاحلام الحاليين .. انما النصرانية الحقة — تلك التي ما برح المؤلفون اللبنانيون يتغنون بها منذ الفي سنة في الآداب السريانية ، واليونانية ، واللاتينية ، والعربية ، والانكليزية ، والفرنسوية — هي المرتكزة على عواطف الانسان واعماله ، المازجة بإنصاف حقوق العقل والطبيعة ، الداعية الى الاتحاد بالكون الشامل ؛ هي الطموح الروحي الذي يحملنا الى ما فوق الطبيعة من دون ان يحتقر الطبيعة ، ويلائم الحياة ملائمةً جعلته يجتاز مراحلها جمعاء فيحوّرها ، من وثنية بولس الطرسوسي ، وشهوانية اغسطينوس ، ووطنية جان دارك ، وشعور دانتي ، وشكّ باسكال ، وعلم باستور ، وجندية فوش ، وبطولة گينمير ، حتى شعر ميسترال ، وفن يوفي دي شافان ، وفلسفة مارتين ، وفيزياء برانلي ، وحتى نزعة بابيني المصرية ؛ ان هذه النصرانية التي تقود الى كمال واحد ما تناقضَ من مصير البشر ، كسهام ترميها ، فتصعد ، بدل ان تغور في اللاشيء ، متصلاً مرماها بالخلود في لانهاية الله ؛ ان هذه النصرانية هي وحدها تحمل لنا النجاة ، لانها ، وحدها ، تثبت روح الحب والتساهل والسماحة ؛ وبدون هذه الروح تصبح كل قوى العالم المتينة الاساس، الظاهرة على هزء بالدمار ، محكوماً عليها ان تنهار يوماً في تلك المذابح الفائقة الحصر ، المتتابعة مَعالمَ في التاريخ .

حتى الذين لا يؤمنون بالوهية المسيح ، فيفتشون عن معلّم وعن مذهب ، حتى هؤلاء الملحدون ، لو اعتبروا بتعاقب الدول ونظروا الى اعماق ضمائرهم ، لوجدوا ان المسيح هو المعلم الوحيد ، وان تعاليمه هي المذهب الذي ينشدون . ولا فرق في ذلك بين ان يدرسوا التاريخ كلّه ، او ان يحصروا جهودهم العقلية في تخيّل ثقافة انسانية تظهر من حوض هذا البحر .

اقول بان كل عمل عادل شريف ، وكل مشروع انساني كتب له البقاء ، وكل ما كان بنائياً على وجه البسيطة ، لصادر عن روح المحبة . تلك الروح التي لا نرى الا شكلها الناقص في كل البلدان وجميع العصور ، يرتسم على قاعدة المفاخر الانسانية او ينتلي قمتها الشامخة ؛ تلك الروح التي لا نشاهدها كاملةً ، ساميةً ، الهية ، الا في انجيل المسيح .

فمجرد خلق العالم عمل حبي . لو لم يحبنا الله يوم فكّر في اخراجنا من العدم ؛ لو لم يحبّ العوالم التي كوَّنها بنظام عجيب تقصر افهامنا عن ادراكه ، وتذهل علومنا دونه فتستهيم امام السر المحيط باصغر قذاة من العشب ؛ لو لم يكن الخالق نفسه محبةً ، لبقي ، حتى الابد ، وحده تجاه نفسه ، ولبقينا ، نحن ، والكون اجمع ، في ابدية اللاشيء . !

ان نشر النصرانية الحقيقية في بلد ما يكون بتوطيد السلام في ذلك البلد ؛ بين الافراد والاسر ، بين القبائل والمذاهب ، بين الطبقات والاحزاب ؛ نشرُ النصرانية هو توطيد السلام في الكنائس الكاثوليكية نفسها . اما ارجاع اوروبة الى الديانة المسيحية ، فضمانة السلام بين كل الشعوب .

فعلينا ان نختار بين امرين : إما ان نجعل من هذا العالم ، الذي بنيناه بجهود جبّارة دامت الوفاً من السنين ، مدينة الله ومدينة السلام ؛ وإما ان نبقى واقفين بالمرصاد ، في اثناء السلم الموقت ، ننتظر الحروب المتناوبة، ونرى حذاء القوي يدوس ميراث اجدادنا ودم ابنائنا .

تحاول طائفة من المفكرين — ومن كبارهم ! — ان يتهربوا من عناء التفكير في هذه المسألة الخطيرة ، لاجئين الى مذاهب شتى تختصر بهذا القول الصيباني : « منذ زمن قديم هضمنا مشاكل الايمان بالدين فلم نجد فيها نجاة لنا . فهات شيئاً آخر » . نحن لا نجيب هؤلاء المفكرين اللامعين ، المتخمين علماً ؛ بانهم لم يهضموا شيئاً من المعتقد الديني ، بل نقول لهم انهم لم يتنشقوا عرفه !

اجل ! نحن لا نطلب ان يقام في البلاد المسيحية نظام سلمي ناتج يمنع التسلح بتاتاً . ان الوفاً من الاميال تفصلني عن يبشّرون بنصرانية شاحبة ، من قسوس جُهم، وعجائز بله . فالنصرانية لن تمحو في الشعوب التي لا تتبعها ،

ميلها الغريزي الى الحرب والنهب . وان شئنا ان نمشي بالانسانية الى عصرها الذهبي ، وجب علينا ان نصبح اهلاً لذلك ، مجاهدين جهاداً مستمراً لحفظ ممتلكات النصرانية ، روحية كانت او مادية ، فنجابه بالسيف كل عدو ، ومعتدٍ ، وغازٍ — من دون ان نتحدى في ذلك موقف الدفاع عن النفس ، ذلك الموقف الذي خلق مجد بيار ، وجان دارك ، وفوش ، فكلّله الله بنجاح مجيد .

في هذه الاحوال فقط تزول الفروق بين الناس ، فيتسنى للافراد والجماعات ان يتحدوا في ظل دين واحد يمكنهم من الدفاع عن كيانهم ، ويضاعف قواهم ويصد عنهم الغارات .

— والآن اجيب من سأل عن حلّ للازمة الحاضرة : ان الازمة حادث نفساني على شيء كثير من البساطة . فهي نتيجة الفوضى الاخلاقية الناشئة في نفوس مَن يمسكون زمام الحكم في المجتمع العصري . وانما المسؤولية في اثارة هذه الازمة واقعة اولاً على الرجال السياسيين ، الفاقدي الضمير والوطنية ، الذين اصبحوا آلات عمياء لمآرب اقتصادية عمياء ، ودُمًى خرساء في ايدي الطامعين من ذوي المصالح ، ورعاةً منافقين لشعوب بريئة . المسؤولون ، هم الكتاب المسيطرون على الرأي العام ، الصادفون عن دورهم الاجتماعي في حلّ معضلات زمانهم ، المؤلفون طائفة حيادية ، هي في هامش الحياة القومية ، نزقة ، لاهية ، لاجئة الى طرق مستهجنة تتلاعب بها الرأي العام ، وتساعد ملتزمي المشاريع المدّامة في مهمتهم الشنعاء ؛ فتصبح ، وفيها اناس يشاهدون ما يُمثل من الفظائع في عقر دارهم ، وكأنهم لا يشاهدون ، فيبقون ، كما كانوا ، عديمي العاطفة الانسانية امام طغيان الفوضى الشاملة . ولو انهم تبعوا واجبهم ، لكانوا ، كأسلافهم الاماجد ، في القرون الاماجد ، اركان النظام الحاضر او بناة النظام الجديد. المسؤولون ، هم الزعماء الروحيون الذين نسوا انهم قادة النفوس، فجعلوا من ايمانهم بمهمتهم صورة خيالية صعبة التحقيق ، وحصروه في زوايا نفوسهم الضيقة ، كأنهم يقيمون في ملك خاصّ ، متوفرة فيها اسباب الرخاء والراحة نحن لو استطعنا ان نزيد في طموحنا الروحي الذي يدرّ علينا خيرات لا تحصى ،

وان نقلل من طموحنا المادي الذي يهيج بعضنا على بعض ، فيهتم ويهتم من دون ان يرتوي ؛ لو كان لنا نصيب اوفر من الفضائل المسيحية ، لما كنا نشعر بالازمة ، حتى في اكثر بلاد الله محلاً.

وفي الختام ، اعرض الاماني التالية :

« لما كانت النصرانية ، حتى في نظر غير المؤمنين ، عملاً تمدينياً من اعظم الاعمال خطورة في الحقـل الروحي ، وحدثاً اساسياً من احداث حوض البحر المتوسط في المنهاج الزمني ، بل هي ، فوق ذلك ، على مـا اراه في عقيدتي ، تدخل الهي في مصير البشرية ، كان لزاماً على الثقافة الانسانية في حوض هـذا البحر المهتمة بانقاذ حضارتنا ، وعلى هذا المجمع الادبي خاصة ، وهو يلتمس الوسائل لبلوغ هذا الهدف ، ان ينالا من التعليم الرسمي ومن الجامعات الحرة في كل البلدان الممثلة فيه ، بان يُهتمّ بكل ما اخذنا عن النصرانيـة في بناء حضارتنا ، وبكل ما يمكن ان نأخذه عنها في تأييدها النهـائي ، فيُدرس ويُدافع عنه ، وتُذاع له الدعوة.»

موناكو ، في ٢ تشرين الثاني ١٩٣٥ — شارل قرم

من اعضاء « الجامعة الادبية في لبنان » ،
و« اتحاد الكتاب اللبنانيين باللغة الفرنسوية» ،
ومدير « المجلة الفينيقية » .

تاريخ فخر الدين الثاني

لكاتبه احمد الخالدي الصفدي

بقلم اسد رستم وفؤاد افرام البستاني

تهتم مديرية المعارف العامة والفنون الجميلة في الجمهورية اللبنانية بنشر النصوص الاصلية لتاريخ لبنان في العصور الوسطى والمتأخرة . وقد عهدت الى الاستاذين اسد رستم وفؤاد افرام البستاني في التفتيش عن هذه النصوص ودرسها وضبطها ، ونشرها نشرًا علميًا يتضمّن التعليق عليها ووضع مقدّماتها وفهارسها . فجدّ الاستاذان في القيام بهذه المهمّة ، وأخرجا ، في السنة ١٩٣٤ ، سلسلة اولى من هذه المنشورات تضمّنت ، في ثلاثة مجلدات كبيرة ، تاريخ « لبنان في عهد الشهابيين » للامير حيدر احمد الشهابي (١ . وها انهما ينجزان اليوم طبع تاريخ « لبنان في عهد الامير فخر الدين الثاني » لكاتبه احمد الخالدي الصفدي ؛ وسيخرجانه قريبًا ، عن المطبعة الكاثوليكية . وقد رأينا ان نتحف قرّاءنا الكرام بقسم من المقدّمة التي وضعاها في تعريف المؤلِّف والمؤلَّف :

المؤلِّف

هو احمد بن محمد بن يوسف الخالدي الصفدي . وُلد بصفد ، ونشأ بها . ثم ارتحل الى القاهرة ، وطلب العلم فيها . فدرس البخاري على محمد البهنسي العقيلي ؛ وأخذ الفقه ، والحديث ، والتفسير ، والتاريخ ، عن خطيب الجامع الازهر وقتئذٍ ، عبدالله بن بهاء الدين محمد بن جمال الدين عبدالله بن نور الدين الطبنغا التركي ، الشهير نسبه بالعجمي الشنشوري الفرضي . وأخذ ايضاً عن أحمد ابن شعبان العمري ، وعلي بن حسن الشرنبلالي ، ومحمد بن يحيي الدين النحريري . ولما عاد الى فلسطين ، درّس ، وأفتى ، وناب في القضاء ، وألّف[٢]

---

١) راجع المشرق ٣١ [١٩٣٣] ٢٨٢ ، ٢٦٦ ؛ ٣٣ [١٩٣٥] ٢١١

٢) محمد المحبي : خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر (طبع مصر) ١ : ٢٦٧-

ومن مؤلفاته شرحه المفصّل على الكافية ، منه نسخة خطية في مكتبة برلين العمومية ، ومنها ايضاً تخميسه للقصيدة المهمزية للبوصيري[1] . ويذكر المحبي له كتاباً في العروض ، ورحلة الى الحج ، واخرى الى بيت المقدس.

وكان في اثناء ذلك انه تقرّب الى الامير فخر الدين المعني الثاني فاحبه ، واعتمد عليه في بعض المهمات ، كما يظهر من سياق هذا التاريخ الذي نحن بصدده الآن . فعمد القاضي الخالدي عندئذٍ الى تدوين المهم من هذه الاخبار التي شاهد بعضها ، واشترك في البعض الآخر منها . فنتج من عمله هذا مؤلف عظيم الفائدة ، تناقلته ايدي النساخ اللبنانيين منذ ظهوره حتى الآن . ولعلّ الامير فخر الدين نفسه هو الذي اشار على المؤلف بوضع هذا التاريخ . فقد ورد في المقدمة ما نصه : « هذا وقد اشار اليّ من اشارته غنم ، ومخالفته غرم ، ان اسطّر في هذه الاوراق ما وقع للامير فخر الدين بن معن ، في زمن توليته علينا . . . مع امراء ايالة الشام وحكامها من الشقاق والنفاق ؛ وابين ما تعاطاه من الحروب بياناً شافياً يشتمل على انواع القضايا والضروب ، بحسب ما اسنده الينا الرواة الثقاة . »[2]

ومن الغريب ان لا يكون احدٌ من مترجمي الخالدي قد ذكر هذا المؤلف في تعداد الكتب التي وضعها . ولعلّ السبب في ذلك يرجع الى الخالدي نفسه . فاما ان يكون قد توفي قبل انهاء مؤلفه هذا ؛ او ان يكون قد اخفى أمرَ هذا الكتاب ، لما أورده فيه من عبارات المدح والاحترام للامير الدرزي اللبناني فخر الدين المعني الذي اتّهمه علماء ذلك العصر بالزندقة والخروج عن قواعد السُنة[3] . وقد يكون المحبي نفسه أهمل ذكر هذا المؤلف ضنّاً بكرامة

---

٢٦٨ . راجع ايضاً الشيخ حسن البوريني : كتاب تراجم الاعيان من ابناء الزمان (خط) . وقابل بما ورد على هامش الصفحة ١١٦ من كتاب تاريخ الامير فخر الدين لعيسى اسكندر المعلوف (جونية ، سنة ١٩٣٤) .

١) *Die Handschriften - Verzeichnisse der Kaniglichen Bibliothek zu Berlin*, Berlin, 1894, vol. VII, n°. 7833, VIII, n°. 6590

٢) ص ٢ من متن طبعتنا .

٣) المحبي : الكتاب المذكور ٣: ٢٦٦-٢٦٧ .

الخالدي ، ومحافظة على مكانته الدينية . ولا يخفى ما كانت عليه الناس ، في ذلك العصر ، من التعصّب الطائفي ، وقصر النظر من هذا القبيل.

المؤلف

يتناول الخالدي في تاريخه هذا اخبار الامير فخر الدين المعني في لبنان وسائر الاقطار الشامية ، ما بين سنة ١٠٢١ وسنة ١٠٣٤ هجرية (١٦١٢–١٦٢٤ م) فيصف الخلاف الذي نشب بين الامير المعني واحمد باشا الحافظ ، والحرب التي نتجت منه . ثم فرار الامير الى ايطاليا . ويشير ، في عرض الكلام ، الى مغامرات الامير علي ابن الامير فخر الدين في حوران وشرق الاردن . ثم يذكر فصل حافظ باشا عن ايالة الشام ، وتعيين جركس باشا ، صديق المعنيين ، بدلًا منه ، وكيف نتج من هذا التعيين رجوع الامير فخر الدين الى هذه البلاد سنة ١٦١٨ ، واستلامه ازمّة الاحكام فيها . وبعد ان يصف انتصاراته على آل سيفا في جهات طرابلس ، وحملاته على آل حرفوش في البقاع وبعلبك ، يذكر مواقعه في فلسطين حتى يافا.

نسخ الكتاب

وقد وجدنا لهذا المؤلف خمس نسخ خطية . منها النسخة ك ملك الشيخ كسروان الخازن ، محافظ طرابلس سابقًا . وهي تقع في ٣٥٢ صفحة ، بقطع ٢٠×١٣ سنتيمترًا . ورقها غاديّ صقيل من النوع الذي شاع استعماله في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر . وتمتاز عن اخواتها بتجانس اجزائها من حيث اللغة والاسلوب ، واختصاصها بالتأريخ الهجري.

والنسخة م رقم٤٢٧من مجموعة المكتبة العمومية بمدينة مونيخ الالمانية[1] . وهي تقع في ٣٤٥ صفحة من القطع المتوسط ٢١×١٦ سنتيمترًا . وقد جاء في آخرها انها بخط عبد اللطيف ابن الشيخ احمد الرشيدي « الصيدي بلدًا ومولدًا

[1] J. Aumer, *Die arabischen Handschriften der k. Hof-und Staatsbibliothek in Muenchen*, Muenchen, 1866, n°. 427

والرشيدي اصلاً» . ولكننا ، بالرغم من هذا النص ، لا يمكننا ان نجزم بانها من خط السيد عبد اللطيف ، لاننا لم نجد من خطه حتى الآن ما يصح ان يكون اصلاً للمقابلة . وفي اوائلها عبارة بخط اسكندر اغا ابكاريوس هذا نصها :« خاصة الفقير اسكندر ابكاريوس »[1] مما يدل على انها كانت تباع وتشرى في منتصف القرن الماضي[2] . ولعلها اقدم من ذلك . منها نسخة بالفوتوستات بدار الكتب المصرية ، ونسخة عن هذه بالفوتوستات ايضاً في مكتبة جامعة بيروت الاميركية.

ونسخة جامعة برنستن (Princeton University) في الولايات المتحدة باميركة . وهي رقم ٢١٩ من مجموعة روبرت گاريت (Robert Garret) . وقد ابتاعها لجامعة برنستن من مكتبة المرحوم مراد بك البارودي ، الدكتور فيليب حتي . وهي تقع في ٢٨٢ صفحة بقطع متوسط ، اولها :« تاريخ الامير فخر الدين المعني تغمده الله بالرحمه» وآخرها :« تم الكتاب المبارك بفضل الله تعالى وتبارك بقلم العبد الفقير المقر بالذنب والتقصير فرنسيس ابن يو نجم يوسف بو نصر من قرية دير القمر تابعة صيدا المحروسة» والنسخة هذه مخرومة ، متقطعة ، حاملة آثار الهرم.

وقد استنسخها لنفسه ، بواسطة خليل منصور غريب ، الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، فتم له ذلك في ١١ كانون الاول سنة ١٩١٢ . ثم قابلها بنسخة غيرها وجدها بمكتبة المشايخ بني الجميل في بكفيا ، لبنان ، فاصلح خرمها ، واكمل ناقصها ، في اواخر شهر ايار سنة ١٩٢٠ . ونسخة الاستاذ معلوف هذه قد اشرنا اليها بالحرفين ج ب . وهي رقم ٣٨٠٥٠ من مكتبة جامعة بيروت الاميركية ، تقع في ٢٤٨ صفحة بقطع ١٧×٢٢ سنتيمتراً . وقد علّق

---

١) ولا نرى مبرراً لتردد المستشرق يوسف اومر (Aumer) في قراءة هذا الاسم ، كما ورد تحت رقمي ٤٣٦ و٤٣٧ من مجموعته المشار اليها آنفاً.

٢) اطلب حياة اسكندر ابكاريوس في كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان ، مصر ، ٤ : ٢٨٨ . راجع ايضاً « آداب اللغة العربية في القرن التاسع عشر » للاب ويس شيخو ، بيروت ، ١٩١٠ ، ٢ : ١١٥-١١٦

عليها الاستاذ الملوف بما يلي ننشره بحرفه وتمامه ، اكمالاً للوصف :

« نقلت من نسخة قديمة في ١١ كانون الاول سنة ١٩١٢ م وهـذه النسخة وجدت في مكتبة صديقنا مزنلر مراد بك البارودي اللبناني الصيدلي في بيروت ولقد قابلتها على نسخة اخرى مختصرة في مكتبة المشايخ بني الجميّل في قصبة بكفيا (المتن) واستنسخت الناقص واصلحت الخرم بالاشارة اليه وذلك في مدينة زحلة (لبنان) في اواخر شهر ايار سنة ١٩٣٠ م والحمد لله اولاً وآخراً كتبه الفقير عيسى اسكندر الملوف

« يقول مفتي النسخة عيسى اسكندر الملوف في ترجمة الشيخ احمد الخالدي الصفدي ما ملخصه من ترجمة مطولة عنده هو احمد بن محمد من اسرة في صفد تنتسب الى الامام خالد ابن الوليد والذي صرح به النسابة ان خالداً هذا لم يعقب ولكن يظهر انهم من سلائل بني عمه لان كثيرين ينتسبون الى الخالديين هؤلاء والله اعلم بصحة انسابهم

« اتصل الشيخ احمد هذا بالامير المني ودون حوادثه في هذا التاريخ ولقد توهم الشيخ طنوس الشدياق في كتابه (اخبار الاعيان في جبل لبنان) ان للمعني تاريخين احدهما الخالدي والثاني للصفدي والصحيح ان الاسمين لمسمى واحد اي ان احمد بن محمد هذا هو الخالدي نسبة الى اسرته والصفدي الى موطنه فهما لقبان له متواليان وظن بعض المؤرخين ان للشيخ ابي نوفل الخازن تاريخاً للمعني ولم نجد لذلك اثراً عند اسرته الخازنية ولا رواية من احدهم تثبت ذلك بل المرجح عندنا بعد البحث ان ابا نوفل ربما كان ناسخاً لهذا التاريخ او مقتنياً له وواضعاً اسمه عليه والنسخة ليس فيها اسم المؤلف فقيل ذلك وممن روى هذا (دي لاكروا) في كتابه ولهذا التاريخ نسخ متعددة منها ما هو مطول فيه وصف رحلته الى توسكانه وهذه النسخة احداها ومنها ما هي خالية من الرحلة مقتصرة على حوادث المني في بلادنا فقط ومنها نسخ متعددة احداها عند الموازنة

« ومن مؤلفاته شرحه على النية ابن مالك ورحلته الى القدس نظماً اما تاريخه للمعني فلم يذكره مترجموه وقد ضمنه حوادث المني من سنة ١٠٢٠ هـ — سنة ١٠٣٣ هـ ١٦١٢ م — ١٦٢٣م وذلك قبل وفاته باثنتي عشرة سنة وهذه نسخة منه مخرومة باخرها اصلحتها على قدر الطاقة بالمعارضة والمراجعة وقد نشرت معظم هذا التاريخ في مجلتي (الآثار) في سنواتها الثلاث المتوالية مع رسم الامير المني الشهير مستنداً على مخطوطات كثيرة ورحلات اوروبية وغيرهم . ووضعت تاريخاً مطولاً له بصور وحواشي من مصادر مختلفة عربية وافرنسية وايطالية وانكليزية والمانية وروسية وتركية اخذت معظمها من هذا الكتاب اما شؤونه في اوربة فنقلتها عنه بالحرف بلغتها العامية ولعلي اتمكن من نشره

« كتبها الفقير الى رحمة ربه عيسى اسكندر الملوف »

نقول : لقد احسن الاستاذ الملوف في تدوين الاختلافات بين النسختين البارودية والجميلية ، لاننا لم نقف حتى الآن على اثر لنسخة بني جميّل . ولكننا، مع الاعتراف بجهوده واتعابه في هذا المضار ، لا يسعنا الا ان نقول بان النسخة

ج ب لا تزال مخرومة متقطعة ، وان بعض اصلاحات الاستاذ المعلوف من هذا القبيل لم يقع في محله ، وسنشير الى هذا الخطأ في مكانه ، على هامش الكتاب .

ووجدنا ايضاً نسخة اخرى في مدينة طرابلس لدى المؤرخ جرجي افندي يني — استنسخها لنفسه عن نسخة للخوازنة . وبعد المقابلة بين هذه النسخة والنسخة ك ، وجدنا انها لا تختلف عنها بتاتاً . ولذا فاتنا اهملنا الاشارة اليها في هامش الكتاب .

طريقتنا في النشر

فيكون لدينا ، والحالة هذه ، نسخ متعددة عن اصل مفقود . فيجدر بنا اذاً ان ننبذ بعضها ، ولاسيا ما يعتمد منها على سابق له . وعليه فاننا قد اهملنا نسخة جرجي افندي يني ، لانها تتفق كل الاتفاق مع النسخة ك التي هي اقدم منها . ولما كانت ك ، مع هذا الاتفاق التام ، موجودة لدى الخوازنة ، وكان جرجي افندي يني قد نسخ عن نسخة خازنية ، اصبح من المحتمل ان يكون قد نسخ عنها نفسها . وكذلك فانه بالامكان ان تعتبر نسخة جامعة برنستن ، والنسخة ج ب ، نسخة واحدة ؛ لان الاستاذ المعلوف يعترف بهذه الصلة ، ولان المقابلة بين النسختين تؤيدها . وقد آثرنا ان نشير في الهامش الى ج ب ، لا الى نسخة برنستن ، لان الاستاذ المعلوف يحفظ لنا في نسخته بعض الاختلافات بينها وبين النسخة « الجميلية » ، وقد اشرنا الى هذه الفروقات في محلاتها .

وقد لاحظنا ايضاً علاقة ظاهرة بين النسختين م و ج ب ؛ وذلك بالاغلاط المشتركة بينهما . فقد ورد مثلاً في كل من هاتين النسختين ما نصه : « فلما عاد مصطفى كتخدا واعلم الامير علي بالذي صار في بعلبك من الاتفاق وكتب الحجه واستدانته من ابن الحرفوش العشرة الاف غرش وارسلها لابن الحرفوش واستكثر خيره . »[1] وهو كلام مشوه بدليل النقص في معناه . ولا

١) الصفحة ٦٤ من طبعتنا .

ينجلي المنى الا بالاتكال على ك فنقرأ عندئذ : « فلما عاد مصطفى كتخدا واعلم الامير علي بالذي صار في بعلبك من الاتفاق وكتب الحجه واستدانته من ابن الحرفوش العشرة الاف غرش ودفعه اياها لارباب الديون في الحال جهز الامير علي العشرة الاف غرش وارسلها لابن الحرفوش وتشكر منه » . وفي الصفحة ٨٣ من الكتاب مثال آخر يزيد هذه الصلة بين النسختين . فقد ورد في كل منها ان الوزير « خليل باشا عين جملة بكلربكية وسناجق ومعهم عشرون الف عسكري بعد خيل وتوجهوا الى اخذ المكسب من المذكورين تصور باله ان لا بد ان يجي الى كبسهم » . وفي هذا القول نقص ظاهر. وصحيحه ، كما ورد في ك : « وتوجهوا الى اخذ المكسب من المذكورين فلما علم الشاه عباس ان جماعة الوزير مربوا على التركمان والاكراد المذكورين تصور في باله انه لا بد ان يجي الى كبسهم » الخ . هذا وقد اشرنا الى جميع الاغلاط المشتركة بين هاتين النسختين في محلاتها ، وهي تربو على الستين . ولا يخفى ان النساخ لا يجمعون على غلطة ما الا ويكون احدهم قد اخذ عن صاحبه ، كما انه ليس من المحتمل ان يتفقوا منفردين بعضهم عن بعض الا على الصحة[1] . فاما ان تكون نسخة برنستن منقولة عن م ، او ان تكون م ونسخة برنستن منقولتين عن اصل واحد مفقود .

فليس لدينا اذاً ، بعد هذه الغربلة وهذا النبذ ، الا نسختان رئيسيّتان هما ك و م فيتوجب علينا ان نقابلهما الواحدة بالاخرى وننتقي منها ما نراه اقرب لعصر المؤلف ، ولغته ، وامياله ، فنثبت نصه في المتن ونرجي للهامش نصّ النسخة الاخرى ، وهكذا فعلنا .

وقد عثرنا في متن م و ج ب على اخبار مفصلة للرحلة التي قام بها الامير فخر الدين الى ايطالية . ونرى انها ليست للخالدي . ولعلها دُسّت عليه . وذلك لان لغتها ، من حيث القواعد الاساسية والاسلوب ، لا تتفق مع لغة المتن الذي وضعه الخالدي . فبينا نرى هذا العالِم الازهري يقول « حمداً لمن جعل نظام

١) راجع اسد رستم : الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ١ : ٥-٦

العالم فضلاً منه صلة الى تصحيح معاش ابن آدم » ، نقرأ في اخبار هذه الرحلة:
« ايش معك   من اين جاي   ايش هذه المسلمين   الى الدار التي
برات المدينة »   وكذلك فان تواريخ هذه الرحلة مسيحية ، وتواريخ الكتاب
هجرية. زد على هذا ان النسخة ك لا تحتوي الا على اخبار وجيزة لهذه الرحلة
تتفق وتتسق مع سائر الكتاب.

وقد لاحظنا ايضاً ان هناك زيادة في اكثر من موضع لم يتجاوز الكلام فيها السطرين او الثلاثة ، فاكتفينا بالاشارة اليها في محلها . ولعل مدخل هذه الاخبار هنا وهناك هو احد الخوازنة الذين عُرف عنهم شيء من الاهتمام بتاريخ الامير فخرالدين، حتى روى الرحالة الفرنسي دي لاروك[1] ان ابا نوفل الخازن ألف في تاريخ الامير فخر الدين. اضف الى ذلك ان اكثر هذه النتف المنسوسة تتعلق بالحوادث التي اشترك فيها الخوازنة.

اما خطتنا في النشر ، من حيث ضبط المتن وتعليقات الهوامش وغير ذلك ، فهي الخطة نفسها التي اتبعناها في نشرنا للمجلدات الثلاثة الاولى من منشورات مديرية المعارف العامة والفنون الجميلة ؛ فلتراجع في محلها[2].

---

1) De la Roque, *Voyage en Syrie*, Paris, 1722 ; II, 132, 133

2) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ١ : ص يح – يط.

شذرات

دروس الاداب الشرقية

في السنة ١٩٣٥-١٩٣٦

افتتح الدروس الشرقية ، هذه السنة ، نهار الجمعة في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٥ ، حضرة الاب بولس بيترس اليسوعي ، من جماعة البولنديين ، وعضو المجمع العلمي البلجيكي ، بالمحاضرة الاولى من ابحاثه في « الطريقة الرهبانية القديمة ، ومقدرتها على ايجاد صلة بين الكنائس والطوائف الشرقية » ، فحدد موضوعه ، وذكر مصادره التاريخية وما اكتنفها من تقاليد محلية واساطير ادبية .

وقد اشرنا في « مشرق » العام الفائت (٣٣ [١٩٣٥] ١١٧) الى ان المعهد يعطي ، في آخر السنة الدراسية الحاضرة ١٩٣٥-١٩٣٦ ، شهادةً اولى بالدروس الشرقية ، موضوعها تاريخ سورية وفنيقية وآثارهما في العصور اليونانية-الرومانية والبزنطية . وسيُبدأ بالامتحان قريباً ، وفقاً للمنهاج الخاصّ بالموادّ المذكورة . وهذا ، في ما يلي ، مجمل اقسام منهاج الدراسة العام :

١ً اللغة العربية وآدابها

عواصم الادب العربي : السلسلة الثالثة : حلب عاصمة الادب الحمداني .

١٥ امثولة يلقيها فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف - من ٩ كانون الثاني الى ١٤ ايار ١٩٣٦

٢ً التاريخ والآثار القديمة في سورية وفنيقية

١ : بعض مظاهر المدنية اليونانية - الرومانية في سورية

٧ امثولات يلقيها الاب رنه موترد اليسوعي ، ملحقاً للتعليم الاعدادي في سبيل نيل

الشهادة الاولى . من ٨ كانون الثاني الى ١٩ شباط ١٩٣٦

ب : أصول الفن الاسلامي

• اثولات يلقيها غاستون ڤيت، الاستاذ في مدرسة اللغات الشرقية الحية ، وامين المتحف العربي في القاهرة . من ٦ الى ٣٠ آذار ١٩٣٦

ج : بعض الحفريات في سورية

١ – حفريات الجبل العجيب ، حول كنيسة القديس سمعان العمودي الاصغر .
اثولتان يلقيهما الاب جان مصيريان اليسوعي مدير الحفريات المذكورة . في ١١ و ١٨ كانون الاول ١٩٣٥

٢ – حفريات افامية .
محاضرة يلقيها فرنان ميانس، الاستاذ في جامعة لوڤن ، ومدير الحفريات المذكورة . في ٢ كانون الاول ١٩٣٥ (١

٣ – حفريات دورا .
محاضرة يلقيها الكونت دومنيل دو بويسون ، احد مديري الحفريات المذكورة . في آذار ١٩٣٦

٣ علم الشؤون الارمنية

ارمينية على عهد الصليبيين (من القرن الحادي عشر الى القرن الرابع عشر)

• ١ اثولة يلقيها الاب جان مصيريان اليسوعي ، الاستاذ في كلية اللاهوت من جامعة القديس يوسف . من ٢٨ تشرين الثاني ١٩٣٥ الى ٢٦ اذار ١٩٣٦

٤ تاريخ الكنائس الشرقية القديمة ومؤسساتها

الطريقة الرهبانية القديمة ، ومقدرتها على ايجاد صلة بين الكنائس والطوائف الشرقية .

• اثولات يلقيها الاب پيترس اليسوعي ، من جماعة البولنديين ، وعضو المجمع العلمي البلجيكي . من ١٥ تشرين الثاني الى ٤ كانون الاول ١٩٣٥

١) هي المحاضرة التي نشرنا خلاصتها في هذا الجزء ، ص ٧٦–٨٤

معلومات جديدة عن مستشرق قديم

الاخ حنا صوصه البرتغالي الاصل ، الدمشقي المولد

من أسر دمشق القديمة آل صوصه . وهم برتغاليو الاصل ، شريفو النسب ، عرفوا باسم دي سوزا de Souza منذ القرن الرابع عشر . وقد جاء احدهم بلادنا سنة ١٥٤٢ ، اثر الحرب بين شارلكان وبربروس ، فاقام في الساحل ، وحُرّف اسمه من دي سوزا الى صوصه . وفي السنة ١٦٨٦ نرى بعض سلالته في دمشق . ومنهم رجل اسمه اليعازار بن عبدالله صوصه ، رزقه الله ثلاثة ذكور : يوسف ، وميخائيل ، وحنا .

توفي اليعازار سنة ١٧٤٥ ، فقدم اولاده الى بيروت . ثم تفرّقوا . اما ميخائيل فعاد الى دمشق واقام فيها الى السنة ١٧٨٠ ، فرحل الى دير القمر ملبياً طلب اخيه يوسف ليجتمعا معاً . واما يوسف فقصد عكا سنة ١٧٥٠ ، فتزوج بريم ابنة ابراهيم الصباغ المشهور الذي كان طبيب ظاهر العمر وكاتمه . وظلّ هناك حتى السنة ١٧٧٥ ، وفيها حاصر الاسطول العثماني عكا وضربها ، وقُتل ظاهر العمر ، وسُجن كاتمه ابراهيم الصباغ . فهرب صهره يوسف صوصه بعائلته الى دير القمر ، عاصمة الامير يوسف . فأمنه هذا ، واكرم مثواه . ومنذ ذاك العهد نُسب آل صوصه الى دير القمر .

اما حنا ثالث ابناء اليعازار ، فقد سافر الى البرتغال سنة ١٧٤٩ . فعيّن مترجماً للحكومة البرتغالية . ثم دخل الرهبنة الفرنسيسية ، وتابع دروسه العربية معلماً ومؤلفاً حتى اصبح من اشهر مستشرقي عصره ، وعرف باسم خوان دي سوزا ؛ فتناسى العلماء اصله السوري . الّا الاب شيخو فذكر انه وُلد في دمشق سنة ١٧٣٠ ؛ على انه أخذ ببعض المعلومات الخاطئة ، فقال ان ابويه كانا مسلمين وانه تنصر على يد المرسلين[1] . ولم يقم احد تصحيح هذا الخطأ لقلّة ما يعرف

١) الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ١ : ١٧ — ويذكر الاب شيخو وفاته في السنة ١٨١٢

من المعلومات عن المستشرق المذكور . حتى لفت الامر نظر احد افراد عائلة الصوصه الفضلاء ، السيد شكري يوسف ، فكتب مؤخرًا الى مدير المجمع العلمي في لشبونة ، عاصمة البرتغال ، مستفيدًا عما يُعرف بشأن المستشرق . فاجابه امين سرّ المجمع ، السيد يواكيم ليتاو ، مستندًا الى معلومات الدكتور داڤيد لوبس الاستاذ في كلية الادب بلشبونه ، وهو « اشهر العارفين بالاخ خوان دي سوزا في بلاد البرتغال » ، على قول امين سرّ المجمع .

وكان ان السيد شكري يوسف صوصه اطلعنا على الكتاب المذكور ، وعلى نسخة من رسالة محفوظة في مكتبة ايڤورة (Evora) العمومية ، كتبها المستشرق بخطه الى المطران مانويل دي شيناكولو ، رئيس اساقفة ايڤورة سنة ١٧٧٠ . فاستفدنا منها معلومات جمة جديدة ، نلخصها عن رسالة السيد ليتاو ، ونردفها بتعريب رسالة حنا صوصه بنصها ، شاكرين للسيد شكري اهتمامه .

وصل حنا صوصه (= جان او خوان دي سوزا) الى لشبونه في شهر آب ١٧٤٩ . وفيها دخل الرهبنة الفرنسيسية . وقد عُيّن ترجمان حكومة البرتغال للغة العربية ، ورافق الوفد الذي ارسلته الحكومة المذكورة الى مراكش سنة ١٧٧٣

وانتخب عضوًا مراسلًا في مجمع لشبونة العلمي في ٦ كانون الاول ١٧٨٠ ، واصبح عضوًا سرًا في المجمع المذكور منذ اول نيسان ١٧٩١ . وفي السنة ١٧٩٥ كان استاذًا للغة العربية في المدينة المذكورة .

اما مؤلفاته فاهمها ثلاثة : الاول تتبع فيه اصول اللغة العربية في الالفاظ البرتغالية . ظهر سنة ١٧٨٩ . ثم طبعه طبعة ثانية المستشرق سانتو انطونيو دي مورا سنة ١٨٣٠ . والثاني جمع فيه مستندات لمؤرخي العرب في تاريخ البرتغال . وله طبعة اخرجها المجمع العلمي المذكور . والثالث لخص فيه قواعد اللغة العربية ، ونشره في لشبونه ١٧٩٥ . وقد طبعه المجمع العلمي نفسه . الا ان طبعته نفدت .

وهذا ، في ما يلي ، تعريب رسالة المستشرق نفسه . وهي لا تبقي شكًا في انه وُلد في أسرة مسيحية . وفيها ، فوق هذا ، معلومات عن علاقة احد امراء لبنان بالغرب يجدر بمؤرخينا الانتباه لها ، والاهتمام بها . وقد كتبها ، كما قدمنا ،

في السنة ١٧٧٠ ، الى السيد مانويل دي شيناكولو الذي صار اسقفاً على بيجا ، ورئيس اساقفة على ايفورة :

« ايها السيد المحترم

ها انا اطلعك اليوم على الامر الذي طالما كتمته في صدري ، فكان لي ، مدة السنين العديدة ، كسرّ المهنة. على اني افشيه الآن لان افشاءه لا يقوى ، اليوم ، على ضرّ من يتعلق به ، واني افشيه الى سيادتك لاني لا اقوى على كتمانها شيئاً ، واجياً ان تكتمه سيادتك دائماً.

تعرف سيادتك انني ، بنعمة الله تعالى ، وُلدت مسيحياً من ابوين ينتميان الى الكنيسة الكاثوليكية الرسولية الرومانية . وقد اعتمدت ، ورُبّيت تربية مسيحية في مدينة دمشق ؛ ثم انه حصل اضطهادات في تلك المدينة اضطرّت عائلتي الى النزوح الى بيروت ، وهي مدينة واقعة بين صيدا وطرابلس ، على الساحل الفلسطيني.

ولما كنت قد تلقيت مبادئ التهذيب ، في دمشق ، على يد الآباء بربادنهو (Barbadinho) (كذا) الفرنسويين ، صدف ان الاب الذي علّمني ، في دمشق ، مبادئ اللغة الفرنسوية الاولى ، قدم الى بيروت. وكان اسمه الاب جبرائيل دي كانتّن (de Quentin). فاخذ يتابع تعليمي ، في ديره ، مبادئ الفرنسوية واللاتينية. ثم ادخلني في خدمة تاجر فرنسوي كان يعيش في بيروت.

ولم تمض سنوات على ذلك حتى اضطرت الحكومة التركية التاجر المذكور الى ترك بلادها ، وذلك انه لم يكن يسمح للاجانب ان يقيموا مدة طويلة في تلك البلاد . فسافر للحال ، تاركاً كل امواله وممتلكاته . فاخذها جماعة من الانكليز . ولم يشأ ان يذهب الى بلده حياء منه ونكداً لطالعه ، فسافر الى جزيرة مالطة ، وانا برفقته. ومن هناك سافرنا الى نابولي ، ومنها الى لشبونة سنة ١٧٤٩.

وبعد سنتين من وصولي ، صادفت في هذه المدينة نفسها ، رجلاً لبنانياً ، كان قد اتى لشبونة في اليوم الذي وصلت فيه. اما غايته فالسعي في تحقيق امر اوفده فيه اميره ورئيسه الى الملك خوان الخامس ، وذلك بواسطة الاب

كاربون. وقد اطلعني على تفصيل ذاك الامر الذي اتى بشأنه الى البرتغال، وحلّفني ان لا اكشف سرّه لاحد. ثم اتخذني ترجماناً له، في هذه المهمة، واعداً اياي بان يعيدني الى بلادي، اذا ما نجحت مهمته، وبان يرقّي أسرتي. ومن ثمّ اخذ يعتبرني كاحد ابنائه. وقد كان اتى لشبونة برفقة ولديه. ثم فارقه احدهما، فاتخذني مكان هذا النائب.

وهاك ما اطلعني عليه هذا الرجل:

على ساحل جبل لبنان، وفي المناطق المجاورة، عدد من النصارى، كلهم مضطهدون، يعيشون مع الترك. ولا ينفكّ هؤلاء يلحقون بهم الاذى ويضطهدونهم. فرأى امير النصارى، الذي كان يحكم لبنان آنئذ، ان يوفد هذا الرجل الى اوربة، فيدافع عن شعبه، ويحمل احد امراء اوربة على الذهاب الى تلك البلاد فيخلّص النصارى من نير الاتراك، ويستولي على ارض فلسطين المقدسة. وفي هذه الغاية أرسل الرجل المذكور الى رومة. فقابل الاب يوسف السمعاني، امين مكتبة البابوات، واطلعه على مهمته. فاشار عليه الاب بالذهاب الى نابولي وعرض رغبته على الملك.

وفي وصوله الى نابولي، قابل الملك دون كارلوس. فاكرم وفادته ووعده بتحقيق آماله. على ان هذه الآمال لم تُحقق، لانه كان في نابولي رجل اهتدى مؤخراً الى الدين المسيحي وانخرط في سلك الرهبان الكرمليين. وصار ترجماناً للغة العربية في البلاط، ولم يلبث ان نال ثقة الملك. فلما علم ان ذاك اللبناني تمكن من الاتصال بالملك، ومن عرض مهمته عليه، دون ان يمرّ به، هو الترجمان، وان يأخذ رأيه في الامر، غضب واخذ يعمل من جهته حتى صرف الملك عن الاهتمام بشأن اللبناني. ثم ارسل الى الاتراك يخبرهم بان في نابولي جماعة ينشرون الدعوة ضدهم.

اما اللبناني فلما شعر باخفاق مهمته وبان الاتراك ادركوا سرّه، وعلم ان سلطانهم ارسل امراً بقطع رأس الامير، حاكم فلسطين، الذي اعتبره خائناً للمملكة، لم يجد الا اعمال الحيلة. فتظاهر بالاسلام هو وابناه، وقال ان غايته كانت تظاهره الاول بالنصرانية، ان يطّلع على اسرار النصارى ويتجسس احوالهم.

ولا يخفى ما لاقاه من الصعوبات والعقبات اذ ذاك . واخيرًا اضطر الى ترك نابولي . فاقبل الى مدريد ، وفيها قابل ترجمان الملك ، وكان رجلًا كلدانياً من مدينة حلب .

وبعد ذلك قدم لشبونة ، واتصل بحضرة الاب كاربون ، فساعده كثيرًا لدى الملك . ولكن سوء الحظ رافق اللبناني ، هذه المرة ايضاً ، فتوفي الملك دون خوان . واصبح الرجل ضائعاً لا سند له ولا معين .

حتى أعلن تتويج الملك دون خوسي ، فجرّب الرجل المذكور ان يتصل بالاب خوسي موديرا ، معرّف الملك . فوعده هذا بالمساعدة ، وظلّ سنتين منتظرًا دون جدوى .

وكان قد انفق كل ما كان معه من المال . فحال الحياء ، بل الفقر ، بينه وبين الرجوع الى بلاده ، لانه لم يبقَ له ثياب ، بل لم يبقَ له ما يقوم بحاجته الى الطعام والشراب . فالتجأ الى أُسرة سَلدَنها (Saldanha) ، التي اعانته واترلته في منزلها ، فاعطته سريرًا وطاولة . وظلّ عندها حتى وفاته . وقد حللت انا محله على اثر ذلك .

وكان ان التحقت ببيت السيد كاسپار دي سَلدَنها ، سنة الزلازل ، فعينني في منزله الخاص في كُويرِه . فبقيت هناك حتى وفاة اللبناني سنة ١٧٦٨ . وعلى اثر ذلك تركته ، ودخلت في خدمة ابيه . وقد بقيت محافظاً تمام المحافظة على سر اللبناني ، وتفصيل علاقاتي به .

اما اليوم ، وقد توفّي اللبناني ، فرأيت ان اعرّف سيادتك بحالتي كما هي ، وان اكشف سرّي ولم يبقَ فيه ما يمكن ان يضرّ احدًا . وقد نفّذت قصدي هذا بكتابة هذه الرسالة ، وغايتي ان تعرف سيادتك مَن انا ، وما الدور الذي مثلته منذ وصولي الى هنا حتى اليوم ، تاركاً لسيادتك ملء الحرية في شجبي او مسامحتي .

وقد رأيت ، تأييدًا لاعترافي هذا ، ان الجأ الى الآباء الكبوشيين الفرنسويين الذين عرفوني في دمشق ، وعلّموني فيها ، والذين يقيمون اليوم في فرنسة ، طالباً منهم ان يرسلوا لي شهادة تؤيد حقيقة حالتي . وسوف أرسل لسيادتك

هذه الشهادة حالما تصلني.

واني اجرؤ على الامل بان سيادتك تتنازل فتغفر لي، ذلك اني لم اكن ذا نية سيئة في كل ما عملت، ولم يكن قصدي ان اضرّ احداً.

هـذا وفيما انا اضرع الى الله ليشفي سيادتك ويحفظ شخصك التالي مدة طويلة، اقرّ بأني خادمك الوضيع».

انتهت رسالة المستشرق بحرفها. اما ذاك اللبناني، الذي توفي في لشبونة سنة ١٧٦٨، فلا نعرف عنه شيئاً، بل لا نعرف اسمه. واما حاكم لبنان، اذ ذاك، فقد كان الامير ملحم الشهابي. ولم يرد، فيما نعرف، انه ارسل مستنجداً بامراء اوروبة على الاتراك، وان يكن قد حارب طويلاً الاتراك وولاتهم على الشام وصيدا. ولعل المستقبل يوضح لنا، بما يمكن الاطلاع عليه ونشره من الوثائق الخاصة والعامة، سرّ هذه الوفادة اللبنانية الى عواصم اوروبة. هذا ان لم يكن ذاك اللبناني قد اتخذ لنفسه صفة الموفد لجرّ منفعة شخصية لا صلة بينها وبين خير البلاد!

ف. ا. ب.

المجمع اللبناني

الذكرى المئوية الثانية لعقده

١٧٣٦-١٩٣٦

يوم الاحد، الواقع فيه الثلاثون من شهر ايلول للعام ١٧٣٦، في دير سيدة اللويزة، قرب نهر الكلب، افتتح المجمع اللبناني الشهير جلساته. ولا يخفى ان له النصيب الاوفر في ترتيب الطائفة المارونية ورفع مقامها، بل انه كان المثال الذي ارتشدت به كنائس شرقية اخرى في مجامعها، بما جاء عاملاً على تسديد خطواتها في نهج الوحدة الكاثوليكية.

وكان الفضل في عقد هذا المجمع للبطريرك الخازني الجالس آنذاك على كرسي انطاكية الماروني، وهو الذي الحّ في طلب عقده من خليفة بطرس، لاجل «اصلاح ما كان قد تدرّج خطأً الى التهذيب البيعي من الاشياء النادّة به عن بهائه ووضعه الاولين.» وقد ساعد في هذا المسعى المبرور طائفةٌ من

رجال العلم والفضيلة ، أخصهم رئيس الرهبان اللبنانيين العام ، وآباء الرسالة اليسوعية في لبنان. على ان بطل الساحة الاكبر كان المونسنيور يوسف السمعاني. فاليه أسند الكرسي الرسولي ، بناء على اقتراح البطريرك ، مهمة عقد هذا المجمع وتدوين ابوابه ، لما كان له « من كمال الخبرة بطباع الموارنة وغيرهم من الطوائف الشرقية وعاداتهم ولغاتهم وطقوسهم واصطلاحاتهم ... » ولما كان للكرسي الرسولي « من وافر الثقة بامانته واستقامته وعلمه ودرايته وغيرته الدينية . »

ومما لا ريب فيه هو ان هذا المجمع كان حدثاً تاريخياً في الطائفة المارونية، جدّد بنيانها وعزّز نشاطها ، فكان فاتحة لحقبة جديدة زاهرة، رُفعت فيه سيرة الاكليروس وآدابه ، وأبطل كل ما كان قد تدرّج سهواً او خطأً شيئاً شيئاً الى تهذيب البيعة ، وعكف الرؤساء على نشر الكتب المفيدة للروح والآداب وزيارة الرعايا وتفقّد شؤونها عن كثب ، ودُوّعيت الطقوس ونُظّمت الكنائس والاوقاف . وبالجملة فقد أُعيد التهذيب الانطاكي القديم الى رونقه ، وأُنشئت المدارس في القرى لتثقيف الناشئة ، وفتحت المعاهد الاكليريكية بعناية البطاركة ، فكثر بين الاكليروس عدد المتفنّنين بالواجبات والوعّاظ والمؤلفين الذين نشروا تآليف كثيرة آتت البلاد اعظم الفائدة.

وقد يطول بنا الشرح لو اردنا ان نسرد ، وان بايجاز ، منافع هذا المجمع وتأثيره في لبنان: في حياته الدينية ، وفي حياته المدنية والعلمية والاجتماعية.

وما ان اشرقت انوار هذا العام ١٩٣٦ ، حتى راحت بنا الذكرى الى هذا الحدث الخطير . ولا ريب في ان رجال الفكر سيتضافرون منذ الآن في اقامة احتفالات رائعة تليق به ، ويحيون ذكراه مخلّدةً على صفحات القلوب ، باعثين من غبار المكاتب كل ما يتعلّق بالمجمع اللبناني ، متخذين من تعاليمه عبرة زكية لمستقبل البلاد العزيزة . وعسانا نرى ، في ٣٠ ايلول القادم ، مجموعة لهذه الدروس والابحاث تمثّل حياة الطائفة تمثيلاً جديراً بمقامها ، وبما حباها المجمع اللبناني من الفوائد الجُلّى .

ل. خليل

جريدة توزيع مال خراج لبنان الاميري

جواب وايضاح

اشكر اولًا حضرة الشيخ نجيب سليم الدحداح لاهتمامه بما علّقت على «جريدة توزيع خراج لبنان» التي نشرتها سابقاً في هذه المجلة. ويسرّني ان اراه يرث حب البحث في تاريخ لبنان عن المرحوم والده. ومن ثم اجيب على ملاحظته «البسيطة» بعنوانها، مع ما استبطنت من المسائل التي اراد بها ما اراد، اعزّه الله (المشرق ٣٣ [١٩٣٥]٦١٢)

اخذ عليّ اولًا اني اكثرت من المشايخ في لبنان بمن ذكرت منهم هناك، غيرةً منه على شرف هذه الرتبة في اهله، محتجاً بأن ليس لهم كلهم ذكر في «تاريخ أعيان لبنان» المعروف للمرحوم طنوس الشدياق.

فاجيب باني لم اقصد ان اضع هناك بحثاً في نظام لبنان الاقطاعي كما توهم[1]، ولم اذكر من مشايخ لبنان الا من اقتضت الحاجة الى ذكرهم لايضاح نصّ هذه الجريدة. وهم لا محالة اكثر من ذلك، واكثر مما ظنّ حضرة الشيخ النجيب، وان لم يرد ذكرهم كلهم في تاريخ الاعيان الذي لم يذكر صاحبه فيه من الاعيان الا من وردت اليه اخبارهم من اهلهم، كما يظهر هذا من كلامه في صفحة ٢٠٠ من كتابه. فقد فاته ذكر بيت القاضي، وبيت ابي هرموش، وبيت شمس، وغيرهم من الدروز. وفاته ذكر بيت اليازجي، وبيت كساب في صليا، وبيت المنذر في المعيدنة، وبيت النفاع في بطشيه من الروم الكاثوليك وغير كاثوليك، كما انه لم يذكر بيت الجميل وبيت بليبل في بكفيا، ولا بيت مسعد في عشقوت، وغيرهم من مشايخ الموارنة،

---

١) اصحّ واتمّ ما كتب في بيان نظام لبنان الاقطاعي رسالة مطوّلة للعلّامة المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي كتبها سنة ١٨٣٣ باقتراح البارون سلفستروس دي ساسي المستشرق المشهور في ذلك العهد. وقد طبعت مرارًا في اوربة مع ترجمتها الى عدة لغات، وقلّ من وقف عليها في لبنان. ولذلك عزمنا على اعادة طبعها، وهي اليوم تحت الطبع في مطبعة مار بولس في حريصا، وهي اول طبعة في لبنان.

كما لم يذكر بيت رعد من المسلمين في الضنية . فـان كان حضرة الشيخ الكريم يضنّ على المذكورين بلقب شيخ او يريد ان يجعلهم ادنى رتبة في المقام من بيت الدحداح ، او بمقام شيخ ضيعة ، فالامر بذلك بينه وبين احفادهم ، وفيهم كتّاب بارعون ، ومؤرخون مشهورون يناورون على حفظ هـذا اللقب في اسرتهم . وحسبي ان اقول له اني اعلم العلم اليقين مثلًا ان المشايخ من بيت ابي طربيه في تنورين مـا كانوا يتراوحون من نحو ستين سنة واكثر الا مع بيت الخازن ، وبيت ابي صعب ، وبيت الظاهر ومن هم بمقامهم.

ثانياً اراد حضرته ان يجعل مشايخ بيت الدحداح اقدم عهداً واعلى مقاماً من بيت السعد بحجة ان بيت الدحداح كانوا يدبرون شؤون الامراء بني الحرفوش في بعلبك ثم صاروا يدبرون اعمـال الشيخ اسماعيل حمادي في بلاد جبيل ، مستشهداً بكتاب تاريخ الاعيان.

اجيب باني لم اقصد التعرّض لذكر مقام المشايخ وتقدّم بعضهم على بعض، اذ لا دخل لذلك في توزيع مال الخراج . ولا اريد الآن التعرض لذلـك الا فيما دعاني اليه حضرة الشيخ النجيب ، فاقول :

اولًا ان الشيخ سعد الخوري كان اقرب المقرّبين الى الامير يوسف ، وفوق الجميع ، لا لكونه كاخيته فقط بل لكونه مربيه . وقال عنه الامير حيدر شهاب في تاريخه صفحة ٦٠ من الطبعة الجديدة : « كان هو يقيم الامير يوسف ويقعده ولم يكن يخالفه في شيء اصلًا لما لـه عليه من حق التربية » ثم يقول بعد ذلك : « ان الامير يوسف لم يكن له من العمر لمـا تولى حكم بلاد جبيل والبترون اكثر من ست عشرة سنة » فهو اذًا الذي تسبَّب لـه بالولاية على هذه البلاد اولًا ، واستولى عليها بعد مواقع مع المشايخ بيت حمـادي ، وكان له خير الاعوان زعماء هذه البلاد . وهو هو الذي تسبَّب له بالولاية ايضاً على الشوف في حياة اعمامه . وبالتالي يصح ان نقول عنه بدون مبالغة انه كان ولي الامير يوسف ، او كان هو الحاكم العام في لبنـان من بوابة طرابلس الى وابة صيدا باسم الامير يوسف.

اقول ثانياً باني لا استطيع ان اقنع نفسي ، ولا استطيع ان اقنع احـداً

بان الامراء بني الحرفوش المتاولة المشهورين بجورهم يكتبون لرجل نصراني من لبنان « حضرة الاخ العزيز » ، وكذلك لا اقدر ان اقنع نفسي بذلك من قبل بيت حمادي الذين بلغ بهم الجور والغطرسة والبغي على النصارى ان لا يحترموا لهم مطراناً ولا بطريركاً ولا مالاً ولا عرضاً . ويكفي ان نذكر من هذا القبيل ما تجاسر به احدهم على الطيب الذكر البطريرك اسطفان الدويهي سنة ١٧٠٣ ، اذ صفعه على وجهه ورمى بضربته طابيته ، مما هو مشهور ولا يجهله من له المام بتاريخهم . ويقال بالتقليد ان قد بلغت بهم الخسة حتى كانوا لا يدعون نصرانياً يلبس برجله حذاء احمر الا اخذوه منه ولبسوه .

اقول ثالثاً باني راجعت كتاب تاريخ الاعيان فوجدته يقول في صفحة ١١٠ عن يوسف الخوري الدحداح ، بان الشيخ اسماعيل « احبه لحسن تصرفه وخطه وانشائه وامانته وجعله شيخاً على العاقورة » وانه مات سنة ١٧٦٢ في الكفور من كسروان . فلا يحصل من هذا الا انه جعله شيخ ضيعة العاقورة لمدة في الوقت الذي كان فيها مشايخ بيت الهاشم من العاديين . والفرق عظيم بين شيخ الضيعة والشيخ الكبير من مشايخ البلاد فليس الشيخ المعتبر في البلاد الا من قلده هذا اللقب الامير الكبير او الحاكم العام بان يكتب له « حضرة الاخ العزيز الشيخ فلان » ، وبهذا يقوم شرف الشيخ الكبير في لبنان . وقد يخلع عليه الامير خلعة او رداء ثميناً ، ويقطع له ضيعة او اكثر من البلاد لتكون ملكاً له ولذريته . وقد يوليه الحكم على مقاطعة بالتبعية للامر الاول اي الانعام بلقب شيخ .

ثالثاً طلب حضرة الشيخ النجيب من باب التعجيز ، او من باب المبالغة بالانكار ، ان ادله على ما يثبت قولي ان الامير يوسف جعل سمعان البيطار شيخاً .

اجيب بان هذا سهل علي لكن اكتفي اولاً بذكر ما كتبه المرحوم والده في هذه المجلة سنة ١٩٠١ في صفحة ٣٩٢ في الحاشية بقوله : « الشيخين المرحومين منصور الدحداح وسمعان البيطار » واظن انه لا يستطيع ان يكذب قول والده ، ولا يقدر ان يضعف شيئاً من قوة كلامه . ثانياً ادله ان يراجع كتاب

تاريخ الاعيان في صفحة ١١٢ من الفصل الخاص بتاريخ بني الدحداح اذ يقول « فتولّى الامير يوسف المقاطعات المذكورة وجعل منصور يوسف الدحداح شيخاً على بلاد جبيل وكتب له صكّاً بذلك برسم عهدة . وسلّم سمعان البيطار مقاطعة البترون وشيّخه عليها وعتّرها » .

ولا ريب بان كاتب هذا الفصل الخاص بتاريخ بني الدحداح هو من كبار مشائخهم ، وله معرفة بتاريخ بني شهاب وبني الدحداح والبيطار . وبالتالي ان هذين النصين الواضحين بيّنة لا شك فيها تكفيني مؤونة ذكر سواهما . ولكن يجب عليّ ان ألفت نظر حضرة الشيخ النجيب الى النصّ الذي نقلته سابقاً في صفحة ٣٦٠ من هذه المجلة من مجموعة « الشماس انطونيوس ابن الشيخ خطار العينطوريني » وهو قوله « ان الامير يوسف اجرى ديوس الجبة سنة ١٧٦٦ وكان معتمد الديوس الشيخ ابو فارس سمعان البيطار الذي كان كاخية عند الامير . وكان اليازجية الشيخ ظاهر الدحداح . . » .

فان حضرة الشيخ النجيب مرّ بهذا النص الشائق مرور العرق ، ولم يلاحظ مضمونه ملاحظة بسيطة مع انه يقدّر صاحبه الشماس انطونيوس قدر شيخ ومؤرخ خاص للمشايخ[1]

والدليل على ان من ذكرت هم من كبار المشايخ سعة املاكهم التي اقطعها لهم الامير يوسف في بلاد جبيل والبترون . فمن اين املاك بيت ابي طربيه في تنورين ، وعليها خراج اكثر من ٤٠٠ غرش ؟ ومن اين املاك بيت الخازن في بلاد جبيل ، وهم من كسروان ؟ ومن اين املاك بيت الدحداح لبساتين العصاة على نهر الجوز في بلاد البترون ؟ ومن اين املاك يعقوب سمعان البيطار

---

١) من نحو ستين سنة ، وانا صغير ، كنت اقرأ بلذة في هذه المجموعة التاريخية في نسخة النسخة الخاصة اليوم بالمكتبة الشرقية اذكانت تخص جارنا ونسيبنا المرحوم حبيب تقولا الباشا . ويظهر ان حضرة الشيخ النجيب لم يطالع من هذه المجموعة الا ما نقله منها المرحوم الاب لويس شيخو في « المشرق » فيما يخص تاريخ بعض المشايخ . لكن لم يلاحظ حضرته ما لاحظه فيما هناك الاب شيخو من النقصان باهمال ذكر كثيرين من كبار مشايخ لبنان مثل بيت الخوري صالح وبيت ابي صعب وغيرهم

في بسنايا في بلاد البترون ؟ ومن ابن املاك اولاد يوسف باخوس في بلاد جبيل ، وهم من غزير كسروان ؟ على ان هذه الاملاك وغيرها في بلاد جبيل والبترون ولاسيا اوقاف الاديرة والمدارس للموارنة وسواهم ، دليلٌ ساطع على الانقلاب المهم الذي جرى في هذه البلاد بتولي الامير يوسف عليها بعد انتزاعها من المشايخ بيت حمادي

اخيرًا وما ضنّ الامير بشير على المعلم بطرس كرامة بلقب شيخ الا لكونه ليس من لبنان ، ولا له فيه عزوة من اهله ، مع انه لحبه واعتباره له جعله معلماً لاولاده ثم كاتباً وكاخية . ولا يخرج من هذا الحكم المعلم نقولا الترك شاعر الامير ، اذ هو اسطنبولي الاصل كما يدل على ذلك لقبه « الترك » . وكذلك المعلم الياس اذّي ، كاتب الامير ، فانه بيروتي الاصل . ولا اعلم ان الامير بشير المشهور بكرمه ومحبته لهؤلاء المعلمين اقطع لهم ضيعة من الاراضي الكليك او الاملاك الاميرية في لبنان .

هذا ما اقتضى ايضاحه بالجواب على ملاحظة حضرة الشيخ النجيب ، وأرجو ان يرضيه هذا الجواب ، والسلام .

الخوري قسطنطين الباشا

حول « الشواذ الحلبيّة » في الطقس الماروني

في مقالنا المدرج في الجزء السابق من « المشرق » . وعنوانه : « في الطقس الماروني » ، نقلنا نتفاً من رسالة للاب فروماج اليسوعي ، عن بعض امور جرت في اوائل القرن الثامن عشر في كنيسة حلب . فجاء اليوم حضرة القس غالي يكذب في مجلة « المنارة » هذه الامور العائدة الى ابعد من مائتي سنة ، وحجته قوله : « من كوننا احد كهنة الطائفة المارونية الحلبية ، بل (؟) ادرى من غيرنا بطقوسها . . . »

على ان ما ذكره الاب فروماج يتفق تماماً مع ما نعرفه من اعمال المجمع اللبناني وتاريخه[1] ، وقد لمحنا اليه في مقالنا .

١) لا بدّ من الاشارة بهذه المناسبة الى انه لا يصحّ تسمية السيد السماني : « القاصد

قال القس غالي مناطلاً . « راجعنا المجمع المذكور فلم نرَ فيه ما يشير الى ان الحلبيين غيروا الطقس وابدلوا اللغة » . أفلا يعلم حضرته ان للمجامع الكنسية اساليب ومجاملات يحسن تقيدها بها ، ولكن يقبح تسربها الى التاريخ وحواشيه ؟

نقلنا استناداً الى كتابات متبادلة بين الرهبان ، والحلبيون آنئذٍ كثيرون بينهم ، « انه شاع عن المطران جرمانوس ... » والجملة موجودة بحرفيتها في الكتاب المستند اليه وقد اوردها القس غالي نفسه ؛ فكيف ساغ له ان يكتب : « راجعنا فرأينا بالعكس (؟) ... » . اما اذا كان حضرته يقصد ان الكتاب يكذب الاشاعة ، فليعلم اننا لم نتحرَّ البحث في مقالنا عمّا اذا كان ما شاع حقيقة ام بهتاناً ؛ على انه حقيقة ، بشهادة ما جاء في رسالة الاب فروماج . على ما ذكرناه .

نقلنا كذلك : « واليه (المطران جرمانوس) انفذ البطريرك والاساقفة ورقة حرم ... » . وهاك ما جاء في الكتاب المستند اليه : « ان السيد البطريرك والاساقفة كتبوا ورقة حرم للمطران جرمانوس » . ومن لا يدري ان كلمة « كتب له » معناها انفذ وارسل اليه . يؤيد ذلك هنا ما يعقب هذه الجملة : « وحتى ذاك الحين لم يأتِ خبر من حلب ليعرف مـا كان من امر الحرم هل تبلغه المطران جرمانوس ام لا » . اما القس غالي فلم يقع نظره على هذه الجملة بل تعداها الى الجملة التالية : « وقد شاع ان ورقة الحرم لم ترسل الى حلب » نثيرها على هذا النحو : « لكنه (البطريرك) لم يتجرأ ان يرسلها الى حلب . » ذلك لكي يتمكن من اتهامنا بما اقترفه عمداً وقصداً ، حيث قال : « راجعنا ايضاً الصفحة التي اشار اليها حضرته واذا هي بالعكس ايضاً » . فتأمل !

على اننا لم نتصدَّ في مقالنا للبحث عمّاً اذا كان عمل المطران قد استوجب الحرم ام لا . ولا يفهم الا ذو النية الملتوية اننا ، ونستغفر الله ، اردنا

الرسولي المطران يوسف السماني » ، كما قال القس غالي ، لانه لم يكن بعدُ قد رقي الى الاسقفية في زمن قصادته .

الاستخفاف بهذا الحبر الجليل ، مفخرة الحلبيين والموارنة كافة ، حين نعتناه « بالعلامة الشهير ».

وما عدا ذلك مما جاء في ردّ حضرة القس غالي عن مقام الحلبيين في تنظيم الطقوس ، وعن اللغة الطقسية وعلاقتها باللغات الحالية ، وعن طقس ماروني منظم قديم في طائفتنا ، وعن فضل الحلبيين على الدويهي ، وما الى ذلك ، فلا نتصدى له ، خشية ان ننغص عليه هناءه به.

نختم هذه الكلمة – ونأمل الّا يجدها القس غالي طويلة – بايضاح ما جاء في صدر ردّه من اننا دعونا الى التجزئة والتقسيم في الطائفة وطقوسها ، حين ناديناً متمنّين ، سنة ١٩٢٠ ، ان يبقى ما لحلب لحلب وما للبنان للبنان. فهذه العبارة يفسرها ما يسبقها ويلحقها من عبارات ، ويبين معناها موضوع المقال الموما اليه باجمعه . وحكايته ان كتاب القداس الحبري قد وُضع آنئذ في حلب وعُزم على طبعه فيها . فانتقدنا وضعه ، واعتبرناه بمثابة تجزئة للطقس الماروني الواحد ، ورجونا من السلطة الحَزول دون طبعه (ولم يُطبع). وقد قلنا ، في جملة ما قلناه ، ما ملخصه : « اما اذا كان لا بدّ من طبع هذا الكتاب حباً لموارنة حلب وكرامة ، فجلُّ ما نتمنى من هذا القبيل ان يبقى ويستمر ما لحلب لحلب وما للبنان للبنان » .

فهل في ذلك من حرج علينا ؟ ان الحرج كل الحرج على من نعوا آنئذ ولا يزالون حتى اليوم ينعون علينا هذا الكلام ، بعد ان اوردوه على عكس ما وُضع له ، وأوّلوه على غير المقصود منه .

الخوري مخايل الرجي

مطبوعات شرقية جديدة

P. Seraphin A. Loiano O. M. **Institutiones Theologiae moralis ad normam Juris Canonici.**

Vol. I, Theologia fundamentalis. In-8°, VII + 492 pp. Prix : Lib. ital. 20.

Vol. II, Theologia specialis : Pars I, De virtutibus theologicis. Pars II, De praeceptis Decalogi. Pars III, De quibusdam Ecclesiae praeceptis. In-8°, 689 pp. Prix : Lib. ital. 25. Turin, M. E. Marietti. 1935

أصول اللاهوت الادبي وفقاً للحق القانوني

لقد جرت العادة في أكثر المعاهد العلمية ان يترك الاساتذة ، في درس اللاهوت الادبي كما في درس غيره من العلوم، تلك الكتب القديمة التي لم تخلُ، على قِدَمها ، من فوائد مهمة ، ليستبدلوا بها كتباً جديدة يرونها اوفق لروح العصر واكثر انطباقاً على تطوّرات الحياة . بيد ان الافضل ، في نظرنا ، ان يُعاد النظر في تلك الكتب القديمة فيحتفظ بما فيها من صفات حسنة برّرت شهرتها المتتابعة ، ويُضاف اليها ما يجعلها موافقة لحاجات الحياة الحاضرة ، ويُحذف منها ما طوته الايام بطيّ الدوافع اليه .

هذا ما قام به المؤلف الفاضل ، بعد ان قضى ثلاثين سنة يدرّس اللاهوت الادبي ، فحوّر كتاب الاب ثرسينو القديم ، واخرجه تأليفاً جديداً مهماً يشمل اربعة مجلدات ، ظهر منها اثنان فقط حتى اليوم .

اما الاول فيختص باللاهوت الاساسي محتوياً على الابحاث الاربعة التي تكوّن اساس اللاهوت الادبي ، وهي :

١ – البحث في الاعمال البشرية وقد توسع فيه المؤلف توسعاً ظهر جزيل الفائدة للمعرّفين اذ يرون فيه درساً دقيقاً للعنصر الشخصي في المسؤولية البشرية ، حتى في الاعمال التي يأتيها الانسان عن مرض او عارض طارئ .

٢ – البحث في الشرائع ، وفيه درس الشريعة عامة ، ثم تحليل الشرائع

المختلفة الدينية : الطبيعية منها والوضعية ؛ والبشرية من كنسية ومدنية.

٣ - البحث في الضمير ، يدلنا على اي ضمير ينبغي للانسان ان يتخذه مقياساً شخصياً لاعماله ، واي ضمير ينبغي له ان يتبعه. ثم يطلعنا هذا البحث على انه من الممكن للانسان ، وقد اخذ بالشك النظري ، ان ينتقل حتى يكوّن لنفسه ضميراً قويماً في مظاهره التطبيقية وبما يجدر بالذكر ان المؤلف يظهر، في هذا البحث، من فريق القائلين بالسلوك حسب الرأي المحتمل.

٤ - البحث في الخطيئة ، وهو بحث متصف بالوضوح التام.

اما المجلد الثاني فصفاته صفات الاول ، وموضوعه حياة المسيحي العملية : يتناول قسمه الاول الفضائل اللاهوتية ، باحثاً في جميع الاعمال التي ينبغي قياسها بالايمان والرجاء والمحبة ، مميّزاً بدقة بين ما يأمر به الله ، وما تفرضه الكنيسة في سبيل المحافظة على الامر الالهي.

حتى اذا انتقل المؤلف الى القسم الثاني عرض للوصايا العشر ، منظمة الاعمال البشرية ، فدرسها بوضوح تام ، شارحاً المبادئ ، مطبقاً اياها على مختلف مظاهر الحياة ، غير متراجع عن البحث في الصعوبات والعمل على حلها.

وفي القسم الثالث ، وهو الاخير من المجلد الثاني ، يبحث الكاتب في بعض وصايا الكنيسة كالصوم ، والقطاعة ، ومراقبة التآليف الجديدة.

اما الصفة المميّزة للكتاب فهي انه لا يكتفي بالنظريات ، على كونه يعرضها عرضاً وافياً ، بل انه يتجاوز الى المجال التطبيقي متبعاً المبادئ واحداً واحداً في تطبيقاتها المختلفة . واذاً فهو يقوم بالفوائد الجلّى ، لا للاساتذة وحدهم ، بل للمعرّفين ايضاً ، فيغنيهم عن كثير من الكتب الخاصة. ي.م.

F. Cappello, S. J., **Tractatus canonico-moralis de sacramentis.** Vol. II, Pars III, De sacra ordinatione. Accedit appendix de jure Orientalium. In-8°, 710 pp. Torino, Casa editrice Marietti, 1935. Prix : 27 l. ital.

في اسرار البيعة : بحث قانوني ادبي

هو المجلد الرابع من البحث القانوني الادبي في اسرار البيعة ، خصه المؤلف بسر الكهنوت على مختلف مظاهره ، واردفه بملحق في نحو ثلاثين صفحة ، عن

السر المذكور عند الشرقيين. وقد جمع سعة الاطلاع الى دقة البحث في موضوع يتعلق بالعقائد ، والآداب ، والحق القانوني ، والتاريخ ؛ فنجح بفضل ضبطه العلمي ، وترتيبه الواضح . وظهرت مقدرته خاصة في موضوعات الاسقفية ، وسلطة الكنيسة ، ومادة السر وصورته ، وتعاليم البابا اوجين الرابع بشأن الارمن . . .

ونشير الى ان المجلدات السابقة اتصفت بملحقات عن الحق القانوني الشرقي بشأن المعمودية ، والتوبة ، ومسحة المرضى ، والزواج. ج. ل.

Edmund Kalt, Biblische Archaeologie. 2te, vermehrte Aufl. In-8°, XII + 147 pp. ; 23 fig. sur 8 pl. Freiburg im Breisgau, Herder, 1934. Prix, broché : M. 2, 70.

علم الآثار الكتابية

هذه طبعة جديدة لكتاب الدكتور كلت ، الاستاذ في اكليريكية مانس في علم الآثار الكتابية ، وفقاً لحاجة طلاب اللاهوت . وقد احتفظ المؤلف بمظهر الطبعة الاولى ، مستفيداً مما توبلت به من ملاحظات وانتقادات ، ومن التقدم الظاهر في مجال الاثريات العام . فأمكن القول ان المؤلف نجح في تحقيق غايته اجمالاً ، كما نجح في اقسام الكتاب تفصيلاً : فلسطين وسكانها ، الآثار الخاصة ، الآثار العامة ، الآثار الدينية وما يتفرع عنها. وكذا القول عن مصادر الابحاث الكثيرة ، وعن الجداول المفيدة.

بقي ان نتمنى الاطلاع ، باللغة العربية ، على مثل هذا الكتاب مزداناً بخارطة حسنة ، في سبيل طلاب الاكليريكيات العالية. س. ر.

Kurth Galling, Biblisches Reallexikon. [*Handb. z. A. T. 1te Reihe*] Lief. 4. Tübingen, Mohr (P. Siebeck) 1935. Prix : M. 3,30.

معجم الاشياء الوارد ذكرها في الكتاب المقدس : الجزء الرابع

ان معجم الكتاب المقدس الذي تكلمنا عنه غير مرة ، بلغ جزءه الرابع ولا يزال القائم به وحيداً ، وهو من كبار الاختصاصيين يندر ان نجد من يقوم مقامه في تأليف معجم مادي لشؤون العهد القديم . وسوف يُلحق بالمعجم جدول صور لم نر منه راموزاً بعد

وقد وفق المؤلف في هذا المجلد ، ولاسيا في ابحاثه في صور الالهة والالاهات ، وفي القبور والمنازل ، وفي حيرون ، واريحا ، واورشليم ؛ وكلها حافلة بالمعلومات وبعض الرسوم الضرورية . بيد ان قراءة المعجم تظهر متعبة لوفرة ما في الابحاث من معلومات ، ولشدةٍ ما اخذ به المؤلف نفسه من ايجاز دقيق ، حتى ان ما ذكره من الالهة والالاهات جدير بان يؤلف مجلداً كاملاً يُقرأ بلذة ورغبة اذا ما زانته الصور ، بدل ان يُدفع قارئ المعجم الحاضر الى الرجوع ، في البحث نفسه ، الى عدد وافر من الرسوم والتآليف المشار اليها بكل اقتضاب . واننا نؤمل ان المؤلف يفكر يوماً بان يهيّئ لنا هذا المجلد ، بل بان يكتب لنا بحثاً جامعاً في علم الآثار الكتابية ، وفقاً لما وصلت اليه الاكتشافات الحديثة . س. ز.

F.-X. Kortleiner, O.P., **Commentationes biblicae. Fasc. X. Quo tempore codex sacerdotalis exstiterit.** In-8°, VIII+95 pp. Innsbruck, Verlag F. Rauch, 1935. Prix : 3 M.

شروح الكتاب المقدس: الجزء العاشر

يختص هذا الجزء بنقطة كانت مثاراً للمشاحنات والتأويل بين شرّاح العهد القديم ، وهي زمن الشرائع المتعلقة بالعبادات . هل ترقى الى زمن الجلاء ؟ واذاً فلا يمكن البرهان عن اصلها الموسوي ؛ او انها اسبق عهداً من ذاك العصر ؟ هذا موضوع البحث الذي جال فيه المؤلف ، فنجح نجاحه في التسعة الاجزاء السابقة ، وذلك في لغة سهلة تجعل استعمال الكتاب ميسوراً على جميع الطلاب الكاثوليكيين في العالم كله . ج. ل.

C. Carbone, **Circulus philosophicus seu objectionum cumulata collectio. Vol. II, Ontologia.** In-8°, 600 pp. Torino, Marietti, 1935. Prix : l. ital. 18.

مناقشات فلسفية

من المعلوم ان طلاب كليات اللاهوت والفلسفة يجرون على طريقة للتمرين العقلي تتناول بعض الاعتراضات في الموضوعات المختلفة ، فيتناقشون فيها رداً ودفاعاً ، بعد ان يدرسوا مجمل النظرية . وقد رأى المؤلف ان يجمع ، في كلّ من

الموضوعات الفلسفية المهمة ، ما يمكن ابرازه من الاعتراضات ، فألف من ذلك مجلدًا اول خصه بالاعتراضات الجدلية ، ووصفناه في « مشرق » السنة الماضية (٣٣ [١٩٣٥] ١٥٠) . وهـا هو يتحفنا اليوم بالمجلد الثاني محتويًا على مجمل الاعتراضات المثارة حول علم الكائن . وسيردفها بمجلدين يخصص الاول منهما بعلم تكوين العالم ، والثاني بالنفسيات. ج. ل.

P. Pierre Raphael, **Le rôle des Maronites dans le retour des Eglises Orientales. In-12, 200 pp. Beyrouth, Imprimerie Khalifé, 1935. Prix : 6 fr.**

دور الموارنة في ارتداد الكنائس الشرقية

« لقد اتى الموارنة بجرمهم ، وان وضيعًا ، في إعادة بناء الكنائس الشرقية » (ص ١٨٠) ، هذا ما قاله المؤلف ، وقد ادرك قمة بنائه في هذا الكتاب المتراص المعلومات ، المرصوف بالاسانيد والوثائق والشهادات . بيد ان المطالع ، اذا مـا رافق الكاتب فصلًا فصلًا ، لا يحجم ان يقول عن حجر الموارنة ذاك المخضب بدمائهم احيانًا ، انه كان « حجر الزاوية ». رأى الموارنة الحق في كنيسة رومة ، وشعروا بالانحطاط الديني في ما حولهم من الكنائس الشرقية ، وقتهوا محبة القريب السامية ، فاندفعوا لا يألون جهدًا في العمل على هداية اخوانهم الشرقيين ، ارشادًا ، ومساعدةً ، وحفظًا في جبالهم المنيعة ، كما انهم اندفعوا في معاونة المرسلين الغربيين، في سبيل العمل نفسه. وكما اننا نرى اسماء مقدَّميهم ومشايخهم واعيانهم وبطاركتهم واساقفتهم تملأ حوليّات الارساليات الكبوشية والفرنسيسية واليسوعية والكرملية منذ مجيئها الى لبنان (ص١–٢١) كذلك نرى هـذه الاسماء بارزة في اول عهود الطوائف الشرقية بارتدادها الى حظيرة الكثلكة ، من الارمن (ص ٢١) ، الى الكلدان والقبط (ص٢٥) ، الى الملكيين (ص ٨٢) ، الى السريان (ص١٤٣) . وليس في ذلك شعر ، ولا خيال . انما هي معلومات ، راهنة يعرضها المؤلف ببرودة العالم ، ويسندها الى مصادرها المفصّلة في اسفل الصفحات ، والمجموعة في جدول واضح خُتم به الكتاب . فغدا اثرًا دقيقًا من آثار التاريخ الكنسي الشرقي ، يجدر بجميع

الكاثوليك فينا ان يطالعوه، ويتأملوا بمحتوياته، ويستخرجوا منها عبرًا تقوى على تقلّبات الصر، وطغيان المصالح الذاتية، وعمل النسيان.

ف. ١٠ ب.

Rev. Peter F. Sfeir, **The Syrian Maronite Mass in English.** In-16, 52 pp. Detroit, Mich., McDevitt Co, 1935.

القداس السرياني الماروني باللغة الانكليزية

كتيب لطيف الحجم، صقيل الورق، جميل الصور، خصه الاب بطرس فرج صفير بابناء رعيته المارونية في ديترويت مشيغن (الولايات المتحدة)، والكثير منهم لا يعرف الا اللغة الانكليزية. فشرح لهم، بهذه اللغة، القداس الالهي، وترجم الصلوات المختلفة، وختم بذكر قسم من التسابيح والتراتيل المارونية، اوردها بالسريانية والعربية مكتوبتين بالحرف اللاتيني، مردفتين بالترجمة الانكليزية. فافاد فائدة جزيلة.

Lemonnyer, O. P., **Sainte Catherine de Sienne (1347-1389).** [*Les Saints*]. In-16, 224 pp. Paris, J. Gabalda et Cie. Prix : 9 fr.

القديسة كاترينة السينية

من اعجب الشخصيات في القرون الوسطى شخصية هذه القديسة التي جمعت بين الروحانية السامية، والسياسة البصيرة، والادارة الروحية بوسائلها، وتدخلها الفعّال في ارجاع البابوية من افينيون الى رومة. فلا عجب ان يكون المؤلف اللاهوتي العالم، اهتم بها، ولا عجب ان تكون المجموعة المعروفة افسحت المجال لكتابه الذي يمتاز بثبات العقيدة، وعمق البحث، والتدقيق العلمي الرصين يزينه اسلوب شائق جذّاب. بيد اننا وددنا لو فُسح في اجل المؤلف فيسر بثمرة جهوده وانجاله !

Daniel Sargent, **Thomas More**, trad. de Maurice Rouneau. In-8°, 349 pp., 4 illustr. Paris, Desclée de Brouwer et Cie, 1935. Prix : 18 fr.

توماس مور

توماس مور او موروس، من اشهر رجال الشرع والسياسة في انكلترة

على عهد هنري الثامن. ولد في لندرة، سنة ١٤٧٨. وبدأ حياته العامة في حاشية الكردينال مورتون، رئيس اساقفة كنتربري. ثم اشتغل بالمحاماة والقضاء الى ان اتصل بهنري الثامن، فاخذ يتخطى مناصب الدولة حتى اصبح وزيرًا اول. وقد اشتهر ببلاغة جذّابة تسندها العاطفة القوية والعقل البصير. حتى ان اشهر صفاته، كانت تلك البصيرة الواضحة الدقيقة الحكم، التي كانت تسهل عليه تفهم الاخلاق، وقدر الرجال، وتمييز الخير من الشر، مهما اكتنفها من الرغبات، ومهما حام حولها من الشبهات. فعرف قدر نفسه، وسبر عمق مواهبه، وعرف كذلك قيمة مَن كان يحيط به من الناس: حتى اذا طلب منه مليكه ان يحلف يمينًا رآها مور مجحفة بالحق، متنكبة عن العدل، اخذ يحاول التخلص من هذا المأزق. فلا ضميره القويم يجيز له هذا الحلف، ولا هو يشعر من نفسه بفضيلة الاستشهاد. وما كانت تلك اليمين الا بيعة دينية لهنري الثامن واقرارًا بسلطته على الاكليروس، وموافقةً له على خروجه عن طاعة الحبر الاعظم في طلاقه المعروف لامرأته كاترين داراكون وتزوّجه باحدى وصيفاتها حنة دي بولين. حاول موروس مدةً ان يصرف عنه تلك الكأس، فيبقى امينًا لمليكه دنيويًا، ولربّه وخليفته على الارض دينيًا، فلم ينجح. لان الملك خيّره بين اليمين والموت. فلم يتردد، مختارًا اتباع الحق على متابعة الحياة، مصرّحًا، وقد اتهم بخيانة مليكه: «اني اموت امينًا لله وللملك، ولكن امينًا لله اولًا!» فقُطع رأسه في ٦ تموز ١٥٣٥. وقد عُدَّ بين الشهداء، فرفعته الكنيسة الى مقام الطوباويين. ولما كانت السنة الفائتة، وفيها تذكار مرور اربعة قرون على قتله، اعلن الحبر الاعظم قداسته. فكان من الضروري ان يطّلع الناس على حياة هذا الرجل الذي جمع بين نزاهة المشترع، ودهاء السياسي، وعمق الفيلسوف[1]، وجرأة الشهيد. وهو ما توفّق اليه مؤلف الكتاب.

ف. ا. ب.

---

١) من آثار موروس بحث اجتماعي دقيق عُرف بعنوان «رحلة الى جزيرة الطوبى». وقد درسناه في «المشرق»، وقابلنا بينه وبين «المدينة الفاضلة» للفارابي. اطلب: فؤاد افرام البستاني: الفارابي وتوماس موروس (المشرق ٢٦ [١٩٢٨] ٢٦ – ٣٤).

ولا يسعنا اليوم ان نعدّد محتويات الكتاب في فصوله الاثنين والعشرين ، ولا ان نصفها الوصف الشامل. انما نشير الى ان المؤلف يعرض الديانة المصرية في مظاهرها الاساسية المهمة منذ اقدم العصور حتى انتصار المسيحية.

ولا يسعُ بالنا عن الاشارة الى حسن المظهر واتقان الطبع ، مما يظهر مفخرةً للطابع.

س. ر.

ALFRED POHL, S. J., Neubabylonische Rechtsurkunden aus den Berliner Staatlichen Museen. [*Analecta Orientalia*, 8]. In-4°, 47+85 pp. Roma, Pontificio Istituto Biblico, 1933.

نصوص حقوقية من العصر البابلي الحديث

لقد طلبنا الى مدير المعهد الكتابي البابوي في رومة ، مثالاً من منشوراته في المجموعة « *Analecta Orientalia* » الحديثة بين المجموعات العديدة التي ينشرها المعهد المذكور ، فارسل الينا هذا الكتاب الاتي ، الجزيل الفائدة بما فيه من جداول ، ومن نسخ للنصوص المسمارية ، صوّرها المؤلف العالم بخطه عن الاصول المحفوظة في متحف برلين ، وكلها تتعلق بوثائق حقوقية ترقى الى العصر البابلي الحديث . هي ثمرة علمية لا يقدرها حق قدرها الا المشتغلون بالعلوم الاشورية ، بل كبار الاختصاصيين فيهم ، فيشكرون للمعهد الكتابي البابوي اهتمامه العريق بهذه المباحث . وليس في بلادنا الشامية عالم واحد، لا من الاوربين ولا من الشرقيين ، يختص بهذه العلوم الوافرة الفائدة على درس التاريخ القديم في آسية الغربية . هي ثغرة واهية نتمنى ان تُسدّ في مستقبل قريب !

س. ر.

Reallexikon der Assyriologie. 2ter Bd, 3tte Lief. *Datenlisten - Duniagga (na)*. Berlin-Leipzig, Walter de Gruyter u. C°, 1935.

معجم الاشوريات : القسم الثالث من المجلد الثاني

تكلمنا ، غير مرة ، عن هذا المعجم الفريد من نوعه في العالم ، والمتابع الظهور، بفضل العالمين ابلنغ وميسنر الاستاذين في جامعة برلين. وها اننا نتناول اليوم القسم الثالث من مجلده الثاني. وفيه تتمة مقال انكناد (Ungnad) ، في لوائح التاريخ ، وهو طويل يتناول ثلث الكراس . وهناك عدة ابحاث

مهمة كابحاث الاستاذ أنكر (Unger)، المقيم حالياً في استامبول، في « إكليل » الالهة والملوك » وتاجهم » ، وفي مدينة دِلبات المشهورة ، وفي « التنين » ، وعراكه . ولا يفوت المؤلفين شيء في هذا المعجم الجامع ، حتى انهم ذكروا ، بين تراجم حياة علماء الاشوريات ، ترجمة الاب دلاتر (P. Delattre) ، وقد عرفه غير واحد من قرائنا ، دون شك .

بيد ان لاسابيع ، بل الشهور تتابع مسرعة ، ونحن لم نصل بعد الى آخر الحرف D . ولا نذكر هذا مستعجلين ولا متبرمين ، فان المساهمين في تأليف المعجم كلهم من الالمان . ومع كون المانية تفتخر اليوم بان فيها اكثر علماء الاشوريات ، فان هؤلاء العلماء لا يمكنهم العمل في التأليف المشترك الا في اوقات فراغهم من واجباتهم وفروضهم الخاصة . فوجب اذاً ان نتوقع عدداً كبيراً من الزيادات ، عندما ينتهي المعجم ، بعد عشر سنوات تقريباً .

س . د .

Comte du Mesnil du Buisson, **Le site archéologique de Mishrifé-Qatna.** [*Collection de textes et documents d'Orient.* I]. In-4°, 175 pp., 6 fig. Paris, E. de Boccard, 1935.

الموقع الاثري لمشرفة - قطنا

لقد وصفنا هذا الكتاب القيّم في جريدة البشير (٢١ ايلول ١٩٣٥) وصفاً مستفيضاً لما لمسنا فيه من فائدة لشرقنا السوري . وقد رأينا ان لا حاجة في تحوير شيء . من ذاك الوصف لقرّاء « المشرق » فها هو ، مع مخطط موقع قطنا .

اما الكتاب فعنوانه : « الموقع الاثري لمشرفة — قطنا » وضعه العلامة النبيل الكونت دو منيل دو بويسون ، وقد حظي بمعرفته عدد من اللبنانيين والسوريين ، اذ يكاد يزور بلادنا كلّ سنة قصدَ الاشراف على حفريات اثرية باشرها فيها منذ عشرة اعوام . وهوَ اليوم احد اعضاء البعثة الاميركية الفرنسية لحفريات دورا ، التي اكتشفت عدداً عديداً من الآثار القديمة ، ولا يُنتظر ان تنتهي من اعمالها هناك قبلَ انقضاء شطر صالح من الزمن .

وكان الكونت من قبل ، لدى جولاته الاولى في البلاد السورية ، قد حاول سبر بعض الاماكن داخل بيروت . لكن دون اجراء الحفريات في

عاصمتنا مصاعبَ جسيمة ، وقد وقفتُ على ما عاناه منها ، فنصحتُ له بان يمدّ الى تحريات يقوم بها في « مشرفة » ، وقد كنتُ قبل الحرب وقفتُ على ما لها من المكانة الاثرية ، فاخذت عنها مخططاً تقريبياً نشرته في مجموعة « ابحاث الكلية الشرقية » ، وأتبعته بوصف بعض عاديّاتٍ أصلها لا محالة من هناك .
فعمل الرجل بمشورتي ، فجاءت النتيجة تثير نشاطه الى حدّ انه قام ثمّة بسلسلة من الحفريات متواصلة ، آلت به بادئَ ذي بدء الى وضع تقرير مفصّل عن كل مرحلة من مراحلها ، كان يرفعه الى « مجمع الرقم » الفرنسي ثم ينشره تباعاً في مجلة « سيريا » ، واخيرًا الى تصنيف الكتاب الآنف الذكر ، وهو يقع في ١٧٠ صفحة من الحجم المربّع ، محتوية على رسوم عديدة ، وخمسين لوحة تصويرية أُثبتت خارجاً عن المتن ولم يسبق نشرها . ويقوم المصنّف هـذا بالاطروحة التي زفها واضعه الى الجامعة الفرنسية لنيل شهادة الدكتورية في الآداب ، مضافةً الى ما كان قد احرزه سابقاً من لقب دكتور في الحقوق وشهادتي معهدَي اللوثر والدروس العليا ، وقد تخرّج فيها . وله غير مؤلفات في الآثار القديمة وفي وصف الحفريات ، مما يدلّ باجمعه على طول باعه في العلوم الاثرية .

والقرية بما لها من الاطراف هي ملك السيد جورج ثابت ، وقد شيّد فيها مصيفاً يقيم فيه شطرًا من الصيف .

اما « المشرفة » نفسها فهي عبارة عن معقل مسوّر يكاد يكون مربّعاً ، توازي اضلاعه الخوافق الاربعة ، وقد بُنيت جدرانه من البرقة تدخل في تركيبها حتى تبلغ بعضاً من الارتفاع فوق الارض . وقد استخرجت البرقة هـذه من جانب السور الخارجي ، فتكوّن حوله خندقٌ يكتنفه باجمه . ويبلغ ارتفاع اعلى حدّ للجدران فوق الارض ، في حالتها الحاضرة ، عشرين مترًا بل ينيف على ذلك . وتستد القرية الحالية الى الجانب الغربي من المعقل ، وفيها ، خارجاً عن نطاقه ، عينٌ يتفجّر منها الماء طول السنة .

ولم يعهد القوم كثيرًا الى تعهّد المعقل ، فضلّوا تماماً عن حقيقة اصله ، اذ ليس فيه من شيء البتة ينمّ عن الطراز الروماني ، كما هي الحالة مثلاً في المعقل المعروف « بسفينة النبي نوح » ، الواقع قريباً من بحيرة حمص الى جانبها القبلي .

اما طول كلٍّ من اضلاع قاعدة المشرفة فيبلغ كيلومترًا ، مما يدل على ما كان للموقع من المكانة في الازمنة العريقة في القدم . والحق يقال ان ليس في سورية طولها وعرضها من موقع يضاهيه ، فحسبه بسعته وحدها ما يجعله جديرًا بان يخصّ بزيارة في موسم الاصطياف .

وانما القصد من تسطير هذه العجالة لفت انظار المصطافين والسياح الى مشرفة . فهي آيةٌ بين الآثار السورية القديمة ، يرتقي عهدها الى العام ٢٠٠٠ قبل المسيح . والغريب ، مما يكاد لا يُصدَّق ، ان ما من احد يقصد اليها .

اما وقد اتحفنا الكونت دومنيل بكتابه الرائع ، فمن السهل الآن ان يضع احد العلماء السوريين « دليلًا لمشرفة » يضاهي ما كُثر من نوعه في ما يتعلق ببعلبك ، فان الآثار المشرفية يروق المرء الاطلاع عليها اكثر من آثار العهد الروماني ، لما تكشف لنا عنه من الازمنة القديمة للغاية ، وقد عاش فيها الشومريون والبابليون والميتانيون والحثيون والسوريون .

ولئن حسن لدى « جمعية تنشيط السياحة والاصطياف » نصحنا لها بان تُعنى بنشر الدليل المذكور ، ولا شك انه يصادف رواجاً اكيدًا ، بل قد يُهيب بالبعض الى تشييد فندق في تلك القمة ، حيث تهبّ الريح لطيفة منعشة طول النهار ، والماء زلال ، والارض خصبة ، وموسم العنب من اطيب المواسم .

س . ر .

Xénophon, Helléniques - Apologie - Mémorables. Trad. nouvelle de Pierre Chambry [*Classiques Garnier*]. In°-12, 510 pp. Paris, Garnier Frères, 1935. Prix : 15 fr.

ثلاثة كتب من آثار كزينوفون

من المعلوم ان كزينوفون لم يختصَّ بنوع واحد من الآداب . انما كتب في التاريخ ، وفي الاخلاقيات ، وفي السياسة ، وفي الفلسفة . وقد جمع له ، في المجلّد الحاضر ، ثلاثة كتب يختصّ ثالثها بالتاريخ متتبعاً الحوادث من السنة ٤١١ الى ٣٦٢ ق . م . وهو اهم المصادر لتاريخ تلك الحقبة . اما الكتابان الاولان فقد دفعت المؤلف الى كتابتهما ذكرى سقراط ، فجمع فيها احاديث وآراء تدور حول الفلسفة على تنوّع تشعباتها .

ومظهر المجلد انيق تزينه خارطة في اوله ، وتعاليق وشروح في آخره ، مع جدول بالاعلام الواردة في الكتاب التاريخي.

M. M. Moreno, **La dottrina dell'Islam.** Manuale coloniale. In-12, 191 pp. Bologna, L. Cappelli, 1935.

عقيدة الاسلام

يبدأ هذا الكتاب مجموعةً جديدة من المنشورات الايطالية مختصة بدرس المستعمرات . وهي مجموعة سيكون لها اثر قيم دون شكٍّ ، اذا استندنا الى عناوين المجلدات المقبلة ، بل الى قيمة الكتاب الحالي . وقد درس فيه المؤلف الدين الاسلامي، كما يظهر في مختلف الشيع المعروفة في العالم الاسلامي الحاضر، من حيث العقائد والمؤسسات الرسمية المقررة ، مهتمًّا اهتمامًا خاصًّا بشؤون المسلمين في المستعمرات الايطالية . الا ان هذا الاهتمام لم يصرفه عن النظرات الشاملة التي تجعل لكتابه فائدة عامة ، فيقرأه ويستفيد منه كل من شاء الاطلاع على مبادئ الدين المذكور . والكتاب حسن المظهر ، لطيف الحجم ، متصف بالوضوح والدقة ، مستند الى كثير من المصادر والمآخذ . يبدأ بمقدمة واسعة (١٥ صفحة) في اصل الاسلام وتطوره . وينتقل الى الموضوع في ستة اجزاء فيدرس العقيدة الاسلامية ، والعبادة ، والشريعة ، والصوفية ، والبدع ، والاسلام العصري. ج. ل.

Rudi Paret, Zur Frauenfrage in der arabisch - islamischen Welt [*Veröffentlichungen des orientalischen Seminars der Universität Tübingen.* Heft 8]. In-8°, 70 pp. Stuttgart, Verlag Kohlhammer, 1934.

المرأة في البيئة العربية الاسلامية

غاية مؤلف هذا الكراس ان يعرض حالة المرأة الحاضرة في البيئات الاسلامية. فيكتفي بتحليل ما ظهر من الكتب والمقالات سواء أكانت داعية الى انهاض المرأة وايقاظها ام معاكسة للحركات النسوية . فيحلل مثلًا كتاب الآنسة نظيرة زين الدين، وما كتب عليه من ردود . ولا شك في ان المطالع يذكر اننا توسعنا في وصف الكتاب المذكور (المشرق ٢٦ [١٩٢٨] ٣٦٦- ٣٧٥) فأشرنا الى ما فيه من نقاط مهمة اثارتها الآنسة المؤلفة. وقد اتبع صاحب

الكرّاس النقاط نفسها تقريباً ، فتقسم بحثه الى اجزاء اهمها ما يختصّ بالحجاب ، وملازمة المنزل ، وتعدّد الزوجات ، والطلاق. على ان المؤلف لا يتجاوز عرض آراء المتناظرين المسلمين ، فلا يذكر رأيه هو ، ولا يفيدنا عمّا يراه في حلّ المشكل المذكور . ثم انه من المعلوم ان النبي لم يكتفِ لنفسه باربع نساء ، كما يجيز لابناء دينه ، يورد المؤلف هذا ، ويدعمه برأي احد ارباب الكلام من المسلمين ، قائلاً ان النبي اكثر من النساء كي يسهّل نشر الاحاديث المتعلقة بشخصه. ه. ل.

AVERROÈS, **La Bidâya,** Manuel de l'Interprète des lois et traité complet du Juriste.

Du Mariage et de sa Dissolution. Traduit par AHMED LAÏMÈCHE. In-8°, 311 pp., Alger, 1926.

Des Donations, des Testaments, des Successions, des Jugements. Traduit par AHMED LAÏMÈCHE. In-8°, 124 pp., Alger, 1928.

اقسام مترجمة من كتاب البداية لابن رشد :

١ — في النكاح وفسخه

٢ — في الهبة ، والوصية ، والارث ، والاحكام

رأى المترجم ، وهو استاذ الشرع الاسلامي في مدرسة تلمسان ، ومحامٍ لدى محكمة الاستئناف في مدينة الجزائر ، حاجة طلّاب الشرع ، بل اساتذة الحقوق من الغربيين الى ان يطلعوا على اصول الحقوق الاسلامية باللغة الفرنسوية ، فلم يرَ اوفق من ان ينقل لهم اقساماً من كتاب «البداية» للفيلسوف الاندلسي الكبير ، ابي الوليد محمد بن رشد . ونعمّا فعل اذ اخرج لنا مجلّدين حافلين بالموضوعات المهمّة . وها انا نفصّل عليها الكلام في ما يلي :

يتضمّن المجلّد الاول مقدمة تحتوي على قواعد شرعية عامة ، غايتها اعداد القارئ لفهم الفصول التابعة.

ثم يليها كتاب النكاح الذي يقسمه المؤلف الى خمسة فصول : في الفصل الاول يذكر بعض الرسوم الخارجية المتعلّقة بالنكاح ، كالاصول المشروطة لطلب المرأة ، وحقّ الزوج في مشاهدة المرأة قبل النكاح ، وابو حنيفة يرى ان للرجل الحق بذلك . ثم يتكلّم في الفصل الثاني عن شروط صحة النكاح ،

فيأتي على ذكر الرسوم والاصول الشرعية لعقده ، ويتوسع في شرط القبول والرضى ، ومن يجب ان يصدر هذا الرضى ، وطريقة صدوره ، وفي اختلاف آراء الائمة فيما يتعلق بوجوب رضى الفتاة البكر لصحة النكاح . ثم يطرق المؤلف شروط العقد الداخلية ، فيتكلم عن الوصاية كشرط لصحة النكاح ، ويأتي بآراء كبار الائمة ، فيذكر اختلافها ، ويفند بعضها ، ويورد الشروط التي يجب ان تتوافر في الوصي واهمها ان يكون الوصي مسلماً وراشداً ، وان يكون من الذكور . ثم يتكلم عن درجات الوصاية وعن رأي الشافعي القائل : ليس لاحد ان يقوم بالوصاية مع وجود الاب . ولا يجوز للوصي الزواج بالموصى عليها وذلك قياساً لتحريم جاء عن القاضي والشاهد . فالاول لا يستطيع ان يحكم لنفسه ، والثاني ان يكون شاهداً وخصماً وفي كلامه عن الشهادة وانواعها يقول انه لا بد من حضور شاهدين على الاقل لصحة النكاح .

اما الصداق فيتوسع في التعليق عليه ، ويسرد آراء الكثيرين من الائمة الذين يجمعون على ان القسم الاعلى منه غير محدد ، اما القسم الادنى فقد اختلف فيه . اما نوعية هذا الصداق فيجوز ان يكون من كل ما هو صالح للتملك . وللمرأة الحق به في الاصالة ، ولكن الفقهاء لم يتفقوا على تعيين زمن تسلمها اياه ، ودخوله في ملكيتها . فمنهم من قال : يكون ذلك عند دخولها دار الرجل ، ومنهم بعد اتمام الزواج . ثم يطرق المؤلف ايضاً فساد الصداق اذا كان مثلاً من الخمر او لحم الخنزير ، او كان غير محدد . ويتبعه التعليق على الخلاف بين المرأة والرجل فيما يتعلق بالصداق وتسليمه ونوعه وكيته .

وفي الفصل الثالث من الكتاب نفسه يتكلم ابن رشد عن الاسباب التي تعطي احد الزوجين حقّ الخيار في طلب فسخ النكاح ، واهمها العيب الخفي ، وعدم قيام الرجل بدفع الصداق المترجب عليه وبتقديم الطعام واللباس للمرأة ، وجهل محل اقامة الرجل . ويختم الكتاب بالكلام عن النكاح المحرم من لدن الشارع ، والنكاح الفاسد . ثم يأتي كتاب الطلاق فيقسمه المؤلف الى اربعة اقسام . في القسم الاول يتكلم عن الطلاق البات ، وعن الطلاق المتضمن حقّ الرجوع والعودة بعد الهجر . ويذكر ايضاً الطلاق المعهود والشائع منها

العصور الاولى ، والطلاق الحديث . ويورد العلامات الفارقة بين الطلاق وفسخ النكاح ، وتخويل الرجل المرأة حقّ الخيار في طلب الطلاق ، وجعلها آمرة حاكمة فيما يتعلق بالعلاقات الزوجية.

وفي القسم الثاني من كتاب الطلاق يتكلم عن الاسباب الحائلة دون الطلاق ، وعن الشروط التي يجب ان تكون متوافرة في طالب الطلاق ، وعن النساء اللواتي هنّ موضوع طلاق . وفي القسم الثالث عن استرجاع المرأة بعد الطلاق . وفي الفصل الرابع والاخير عن الهبة للمرأة بعد الطلاق .

ويخصص فصلًا في الختام « لشرع ارسال المحكّمين » .

ثم بعد انتهاء الكتابين المارّ ذكرهما . يأتي الكتاب الثالث ، وفيه يدرس المؤلف اليمين في الامتناع عن مباشرة الزواج . والكتاب الرابع ، وفيه يبحث في الآيـة الرابعة من سورة « المجادلة » : « والذين يُظاهرون من نسائهم ثم يعودون ، فتحرير رقبة من قبـل ان يتماسا . » ويليه كتاب اللعان . ويختم المؤلف مصنفه الواسع بكتاب الحداد الذي يقضي على كل امرأة في الاسلام بالحداد مدة تومئها الشرعية . والكتب الاربعة الاخيرة على كثير من الايجاز بالنسبة للكتابين الاولين اللذين استغرقا معظم المصنف .

اما المجلد الثاني فيدرس فيه الفيلسوف بعض الامور الشرعية المشابهة كالهبة ، والوصية ، والارث ، والاحكام ، مسندًا اقواله الى آراء كبار الائمة ، والى الاحاديث النبويّة ، والقواعد الشرعية المطبّقة في العالم الاسلامي .

يستهل درسه بلمحة عن الهبة ، فيحدّدها حسب عرف الائمـة ، ويتكلم عن مواضيعها المختلفة ، وعن شروط صحتها ، ذاكرًا تشعّب آراء الفقهاء واختلافها في الموضوع . ثم ينتقل الى انواع الهبات ، فيقسمها الى هبات عينيّة ، وهبات منافع ؛ ومن حيث غايتها الى هبات لنيل ثواب ، وهبات لارضاء الله عزّ وجل ، وهبات غايتها الموهوب له نفسه . ولا ينسى ان يذكر التناقض عند اصحاب الرأي ، ففي هبات المنافع مثلًا اختلافهم ناجم عما اذا مات الموهوب ، وكانت الهبة متعلقة على شرط حياته ، هل ترجع الى الواهب وورثته بعد موت الموهوب له ، ام تبقى في ميراث هذا الاخير ؟

ويختم هذا الفصل بالكلام عن حقوق الواهب في استرجاع الهبة . وهنا ايضاً يلفتنا المؤلف الى اختلاف الآراء بين اصحاب المذاهب الاسلامية . فالشافعيون يعترفون بهذا الحق للواهب في كل حال . لكن الامام احمد ينكره عليه . اما ابو حنيفة فيقرّ له به ، على شرط ان لا يكون الموهوب له من ذوي القرابة المحرمة . وعلى كل فقد تتفق التعاليم المنتشرة في الاسلام فتمنع الواهب استرجاع هبة غايتها البر والاحسان . ويرينا صاحب الكتاب بحق ان الائمة يدعمون آراءهم بالحجج والبراهين المستمدة من الاحاديث ، والاقوال الواردة على لسان الصحابة .

وفي درسه للوصية يبدأ بتعدد انواعها ، فيقول انها تصح ان تكون مالاً عينياً ، او من المنافع . واما كيتها فلا يجوز ان تتجاوز الثلث ، اذا كان للموصي ورثة . واذا لم يكن له من وارث ، فيجوز ان تزيد عن الثلث وللموصي الحق بالرجوع عن الوصية ، الا اذا كانت تحتوي على اعتاق . اما الموصى له فلا يصبح مالكاً للموصى به الا بعد موت الموصي . وهنا يذكر اختلاف الامامين الشافعي وابن مالك فيما اذا كان قبول الوصية من الموصى له شرطاً اساسياً لصحة الوصية . ثم بعده ينتقل المؤلف الى قواعد أخرى تتعلق بالوصية كالزكاة ، ووفاء النذور ، والقيام بالحج ، المشروطة في متن الوصية ، ويوقفنا ايضاً هنا على الآراء المتضاربة عند العلماء .

وفي تحليله للوراثة يكتفي باعطائه آراء الائمة ، وذكر اختلافهم واسباب هذا الاختلاف . اما رأيه الخصوصي فلا يبديه الا عند كلامه عن حصة والد الوالد اذا اتى مع الاخوة . وابن رشد يعتبره كأب ويحجب الاخوة ، ويورد تبريراً لهذه الفتوى البراهين العديدة واقوال الرسول . ثم يتوسع في الشرع عن توريث اولاد الزنى ، وعن حقوقهم في الارث . كل ذلك تدعمه آراء الائمة التي من النادر اتفاقها في موضوع واحد .

اخيراً يطرق الموضوع الاخير المتعلق بالاحكام . فيستهل بكلامه عمن يحق لهم ان يتولوا زمام القضاء ، وعن الصفات التي يجب ان يتحلوا بها . ونقف معجبين اذ نسمعه آتياً على ذكر امر هام غدا موضوع ابحاث واسعة تراع

عصرنا ومفكري ايامنا ، وهو : أيحق للمرأة ان تتعاطى القضاء ؟ وجواب ابن رشد ان الائمة لم يتفقوا على نفي او ايجاب . فابو حنيفة مثلاً يجيز للمرأة تولي القضاء ، ولكن لتحكم فقط في الاشياء العينية . ثم يتكلم عن القاضي الأمي ، وعن الصلاحية التي هي واسعة في نظره اذ ان القاضي « يفصل في حقوق الله وحقوق عباده » . وعن وجدان القاضي ، واسباب هذا الوجدان . وعن الشهادة والشهود ، وصفاتهم ، وعددهم . وعن اليمين وصورتها ، والنكول عن اليمين وتأثيره . ثم يطرق الاقرار ، فيذكر صفاته وشروطه . وعن صلاحية القاضي فيما يتعلق بالاشخاص الذين يجوز له ان يفصل في خلافهم ، فترى مع المؤلف اتفاق الائمة على اعطاء القاضي حق النظر في امور المسلمين الغير المجهولي الاقامة ، واختلاف هؤلاء الائمة فيما يتعلق بصلاحية القاضي تجاه الغير المسلمين ، والمجهولي الاقامة .

اخيراً يتكلم امامنا الكبير عن الاصول التي على القاضي ان يحافظ عليها عند اعطائه الحكم . فيجب على القاضي مثلاً أن لا يتحيّز لاحد من المتداعين ، وان يسمع دفاع الثاني اذا سمع دفاع الاول ، وان يبني حكمه عندما يكون سليم العقل خليّ البال ، لا تحت الضغط والتأثير . او كما يقول الامام مالك ان « لا يضنكه الجوع والعطش والحزن » . ولا يحق للقاضي ان يسمع احد المتداعين بعد اعلان الحكم ، الا في الامور المتعلقة بالعتق والاتفاق .

وهكذا نرى ان المؤلف ، على ما اتصف به كتابه من جزالة التعبير وحصر الموضوع في مصنف صغير الحجم ، اتى على ذكر عدد غفير من المسائل الشرعية القيّمة المفيدة التي كانت ولم تزل موضوع ابحاث الشرّاع وتآليفهم .

وكذلك يجب ذكر ما امتاز به المترجم من سعة اطلاع ووضوح اسلوب في عمله هذا ، فاستحق شكر جميع المشتغلين بالحقوق الاسلامية . بيد اننا وددنا لو اطال ، في المقدمة ، فتوسّع في درس شخصية ابن رشد الفقهية ، وحلل كتابه الكبير .

ح . ف .

Pierre Bazantay, **La pénétration de l'enseignement dans le sandjak autonome d'Alexandrette.** In-8°, IX+221 pp., 24 pl., 11 graphiques et 1 carte hors texte. Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1935.

تقدّم التعليم في سنجق اسكندرونة المستقل

قضى مؤلّف الكتاب ست سنوات في سنجق اسكندرونة يطلع عن كثبٍ على تقدّم التعليم وتطوّر الثقافة، بفضل مركزه الرسمي في ادارة المعارف، وبفضل ميله الى درس المظاهر الثقافية على تنوّعها. فجمع معلومات كثيرة دقيقة قدرنها، واستنطقها على مختلف دلالاتها، ورتّبها ترتيب العالم الاحصائي، بل ترتيب المهذّب الاجتماعي المهتمّ بمستقبل ذاك السنجق، المتخذ من حاضره عبراً وعظات في تسيير التعليم وفقاً لحاجات السكان في طبقاته المتباينة وفي مناطقه المتنوعة. فأتى من كل ذلك كتاب نفيس لا نخطئ اذا قلنا انه مثال لما يمكن تأليفه في نوعه. يؤيد هذا القول نظرة سريعة نلقيها على محتوياته فصلاً فصلاً.

يمهد المؤلف بفصل واسع في تقسيم السكان، في سنجق اسكندرونة، بحسب عناصرهم القومية، وطوائفهم الدينية، ولغاتهم. وينتقل الى احصائهم ذكوراً واناثاً وتلامذةً في كل طائفة، متعلّمين وأميين، مدنيين وقرويين، مردفاً بنص القانون الاساسي للسنجق المذكور. ثم يخص الفصل الثاني بالتفتيش عن اسباب التفاوت الثقافي بين عناصر السكان فيتكلم عن هجرة تلك العناصر القومية من مسيحيين ينطقون بالعربية، وارمن، وترك، وعلويين، وشركس. حتى اذا وصل الى الفصل الثالث اخذ بوصف حالة التعليم الحاضرة ذاكراً جهود المدارس الخاصة من وطنية واجنبية، وجهود الحكومة، في كل من طبقات التعليم الابتدائية والثنوية؛ منتقلاً في الفصل الرابع، الى ذكر مديرية المعارف وكيفية سيرها، ومديرية الآثار، مشيراً الى اعمال البعثات الاميركية والفرنسوية.

ولما كان لا بدّ من تتبع اولئك المتعلّمين، بعد خروجهم من المدارس، افرد المؤلف اربعة فصول جامعة صوّر فيها تهافت المجتمع الحاضر على العلم،

وحالة المعلّمين الاجتماعية مستنداً الى الاحصائيات النسبية ، محدّداً نصيب كل طائفة من المراكز العاليـة في المجتمع سواء اكانت المراكز رسمية كوظائف الحكومة ام غير رسمية. ثم انتقل الى اعتبارات عامة في ثقافة الطبقة الراقيـة ومظاهرها ، مقابلاً ، بين الاجيال السابقة والجيل الحاضر . من السنيين ارباب اللغة التركية ، والعلويين ، والمسيحيين المتكلمين بالعربيـة ، والارمن ، والشركس ، مشيراً الى تأثير البلاد المجاورة في تطوّر ثقافة السنجق : تأثير عربي من ناحية سورية ومصر ، وتأثير تركي من ناحية تركية . وجرّه ذلك الى القاء نظرة على حالة حملة الشهادات وما ينتظرهم من مراكز في المجتمع : من المحيط الزراعي الى الصنـاعة ، الى التجارة ، الى المهن الحرّة من طب وصيدلة ومحاماة . ولم يسهُ عن الاشارة الى تأثير الحركة الاقتصادية في توجيه المعلّمين والتعلم فافرد لذلك الفصل الثامن ، درس فيه نظام ملكية الارض في مختلف المناطق ، وما لهذا النظام من تأثير في الزراعة ، متتبعاً موارد الثروة من المحصولات الزراعية كالحبوب ، والتبغ ، والكرمة ، والحرير ، والزيتون ، والدفلى ، والفواكه ، والغابات ، وما يلحق بها من موارد تربية الحيوانات ، ومن الصناعات التابعة لها كالصابون ، والزيت ، والطواحين... منتهياً الى ذكر الحركة التجارية والسياحة...

وكان من لوازم البحث ، وقد وصف الحالة الحاضرة هذا الوصف الدقيق ، ان يعرض لذكر الثلم ، وما يراه في سدّها ، والعمل على تحسين الحالة اجمالاً . وهو ما قام به في الفصل الاخير ، مشيراً الى ضرورة اصلاح التعليم الثنوي ، والاهتمام بالتعليم المدني والتعليم التربوي ، مع الحاجة الى تنظيم موافق في كل ذلك ينمي اولاً في حسن اختيار المعلّمين ، وفي تحسين التعليم الصناعي ، والاخذ بطريقة معقولة موافقة للبيئة وحاجات السنجق في تعليم النساء ايضاً .

هذا ملخص الكتاب ، وهو كافٍ للدلالة على قيمته ، اثراً نفيساً في درس موضوعه الخاص درساً دقيقاً واضحاً بتفصيله وبما ازدان به من صور ، ولوائح احصائيـة وتصميات رقمية ملوّنة ، ومثالاً في هذه الدروس العنصرية الاجتماعية من الحسن ان يقتدى به .

ف . ا . ب .

J. VILENCIK, Zur Genesis der arabischen Zweisprachigkeit [OLZ, XXXVIII, 12] Dezember 1935.

في ازدواج اللغة العربية

يجتهد مؤلف هذا المقال في ان يشرح ازدواج اللغة العربية: اللغة المكتوبة، واللغة الدارجة في الحديث. وهو يميّز لغتين كتابيتين: لغة القرون الاولى للاسلام، واللغة المكتوبة في عصرنا الظاهرة في الصحف. وهو يميّز كذلك لغتين دارجتين في الحديث: لغة الحضر، ولغة البدو. وهذه وافرة الغنى بالمفردات المتعلقة بالحياة البدوية ومرافقها، ولكنها ظاهرة الفقر بالمفردات المعقولة. وهي، على اي حال، تختلف عن مفردات لغة الحضر باللهجة والنبرات. ومما يجدر بالذكر ان المؤلف يؤكد ان اوربة الرأسمالية هي التي تحول بين اللغة الدارجة واتساعها فتمنع ازدهارها وتضيق عليها. اما الحقيقة فنراها تعاكس مزاعم المؤلف. ذلك ان النزعة العربية القومية هي وحدها الحائلة دون ما يريده الكاتب من ازدهار اللهجات العامية واستقلالها، ولا يخفى ان ارباب تلك القومية يرون في استقلال اللهجات حواجز لتحقيق آمالهم في الوحدة. م. ل.

CONSTANTIN VII PORPHYROGÉNÈTE, Le livre des Cérémonies. t. 1, comprenant un volume de texte et sa traduction et un volume de commentaires, par ALBERT VOGT. In-12, Paris, Société d'édition Les Belles Lettres. 1935 Prix : 60 fr.

كتاب الاحتفالات

لقد ازدانت المجموعة البيزنطية التي تنشر تحت رعاية جماعة غليوم بودي (G. Budé)، بتحفة جديدة، هي كتاب الاحتفالات للامبراطور قسطنطين السابع، الذي كان ينتظر، منذ عهد مين (Migne)، طبعة عصرية. وليس للكتاب الا نسخة واحدة في ليبسك، فدرسها الناشر وضبطها، وترجمها الى الفرنسوية، فعانى صعوبات جمة يعرفها له العلم الحديث دون شك عندما يطلع على الكتاب وترجمته وشروحه الطويلة، فتظهر له المدنية البيزنطية في القرن العاشر على مظهر واضح. اما موضوع الكتاب فتعيين الحفلات الرسمية الدينية التي تجري في البلاط في الحوادث المهمة، والتي ينبغي للامبراطور ان يحضرها. وفي هذا المجلد الاول ٣٨ فصلاً تمثل الفصول ٤٦ الاولى من المخطوطة. ج. ل.

الفن الاسلامي في مصر

الجزء الاول : من الفتح العربي الى نهاية العصر الطولوني

للدكتور زكي محمد حسن ، الامين العلمي لدار الآثار العربية

١٣٣ ص من القطع الاكبر ، مع ٣٧ لوحة

القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥

هذا كتاب نفيس اهدته الى مكتبتنا الشرقية ، ادارة مطبعة دار الكتب المصرية ، فوصلت به سلسلة الهدايا التي اتحفتنا بها منذ سنوات ، فلها الشكر المجدّد منا ومن روّاد المكتبة الشرقية.

درس الدكتور محمد زكي في جامعة باريس ، وحاز دبلوم آثار الامم الاسيوية والاسلامية من مدرسة اللوفر ، وشهادة اللغات الشرقية بفرنسة ، وليسانس الآداب من الجامعة المصرية ، وشهادة مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة ، وساعد ، سابقاً ، على ترتيب متحف برلين العلمي فله من معرفته اللغات الاوروبية وسعة اطلاعه واستعداده للكتابة على الفن الاسلامي ما يشوّق الى مطالعة كتابه ، ويدفع الى الطمأنينة في درسه.

ان البحث في الفن الاسلامي مستحدث بيننا ، ولا نغالي ان قلنا ان هذا الكتاب هو الاول في نوعه ، ومصداق لذلك قلة ما يُعرف من صنفه باللغة العربية . بين أنَّ للافرنج مؤلفات واسعة عديدة سبقونا فيها الى التفتيش عن آثار ذلك الفن في سائر الاقطار الاسلامية ، على مدى الايام ، منذ العهد السابق للاسلام الى عهدنا . فالفضل كل الفضل للدكتور زكي محمد حسن ، في تعريفه قراء العربية ، هذه الناحية المجهولة من الكثيرين.

صدّر الكتاب باسطر بسط فيها موضوع الكلام ، وبين عنوانه من تقسيم دراسة الفن في مصر الاسلامية الى مراحل ثلاث : فخص الكتاب باولاها ؛ وحدّد عمر الآثار وبلادها في مقدمة تاريخية تناول فيها خلاصة الوقائع التي ادّت بولاة مصر ، منذ الفتح العربي سنة ٦٤١ الى انقراض الدولة الطولونية في اواخر القرن التاسع للميلاد ، الى احياء الفن وانمائه : « لان الفن الاسلامي

فن ملكي ، وهو مدين بكل شيء للسلطان، فالمثالون والمصورون والمهندسون وغيرهم من رجال الفن انما كانوا يشتغلون اجابة لطلبه » وليس للفنون الجميلة رعاة الا من بلاط السلطان او في الاسر القليلة التي تسكن العاصمة وتعتمد في معيشتها على السلطان ؛ ولذا فقد تنتسب الى السلطان ، فيقال الفن الاموي ، والفن العباسي ، والفن الطولوني الخ (ص ١٩).

وتناول المؤلف الكلام على نشأة الفن الطولوني وقد استوحى اصوله مما رآه احمد بن طولون في سامرّة عاصمة الخليفة المعتصم الجديدة؛ ثم اخذ المؤلف يوصف وتحليل ذلك الفن في العمارة الدينية ، والعمارة المدنية والحربية ، وفي الصناعات اليدوية الفنية كالمنسوجات والحفر والخزف والتصوير.

وذيّل الكتاب بمراجع عديدة عربية وافرنجية « وكشّاف » (هذه الكلمة نرى استعمالها للمرة الاولى تعريباً للفظة اندكس index) فيه فهارس الاعلام والمواد . واخيراً وضع في آخر الكتاب ٣٧ لوحة ، ابرز فيها نماذج الفن الاسلامي من زخارف جصية ، واروقة ، ومحاريب ، ومنارة ، والواح خشبية واقمشة الخ . وليس للفن الاسلامي قبل الدولة الطولونية الا آثار زهيدة .

وفيما نحن نطالع هذا الكتاب ، يتردد على ذهننا ما سمعناه في الامس من المحاضرات التي القاها في « معهد الدروس الشرقية » من جامعة القديس يوسف ، الاستاذ غاستون ڤيات (Wiet) ، مدير المتحف العربي في القاهرة ، واليه يرجع مؤلف هذا الكتاب في مراجعه . وقد يتفق الاثنان في الحكم على الفن الاسلامي انه ليس عربياً الا على سبيل التوسع والمجاز ، لان البلاد الاسلامية التي ازدهر فيها الفن ، ليست عربية باهلها . وما ذلك الفن الا ثمرة جهود الفنانين الموالي من فرس او بيزنطيين او سريان او اقباط ، وقد عملوا في سبيل الفن ، تحت رعاية السلطان « ولذا كان خطأ كبيراً ان يطلق على هذا الفن اسم الفن العربي » (ص ٢٠).

ف.ت

عمر بن ابي ربيعة

الجزء الاول : عصر ابن ابي ربيعة

بقلم جبرائيل سليمان جبور

٢٢٤ ص. متوسطة – بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٥

لقد تقدّمت الدروس الادبية في زمننا هذا تقدّماً محسوساً ، فاصبح من العسير ان نرضى اليوم بما كنا نرضى به من عشرين سنة ، بل من عشر سنوات. وان يكن « لكل اجل كتاب » ، فلا يمكن ان يكون كتاب اليوم ، في الابحاث الادبية ، احد تلك المجاميع من الاحكام والروايات التي كان ينسقها مؤلف القرن التاسع عشر – واوائل القرن العشرين – فيرضي نفسه ويرضي قرّاءه ، ويتصوّر الفريقان انها في فنّ البحث الادبي ومجال النقد الشعري ... حاجتنا اليوم الى تآليف يمتزج فيها النقد الادبي بالدرس الاجتماعي والبحث التاريخي ، جارياً على الاسلوب العلمي الدقيق بما يفرضه من تمحيص روايات ، وتجريح احكام ، وتعديل آراء ، وتحفّظ واحتياط في ذلك كله . ونحن لا نعدم ، بحمد الله ، من وقت الى آخر ، ظهور كتاب يتصف ، ان لم نقل بكل هذه الصفات فبالمهمّ منها ، وهو كافٍ للدلالة على التطوّر المحمود في دروسنا الادبية . من هذه الكتب ما اهداه الينا الاستاذ جبرائيل جبور في « عصر عمر ابن ابي ربيعة » ، مقدّمةً لمجلدين تالين في « حياة عمر » وفي « شعره » .

لقد درس الاستاذ موضوعه مدة ستّ سنوات . وليس بكثير على شاعر كعمر يمثل عصرًا بكامله ، بل فنًا برأسه من فنون الشعر العربي ، ان تُخص بدرسه ست سنوات – على ما نعرف من ان السنوات هذه لم تكن بتمامها وقفاً على درس عمر – ولا بكثير عليه ان تدوّن نتائج هذا الدرس في ثلاثة مجلدات ! واذًا فقد احسن المؤلف « باضاعة » ذلك الزمن في درس شاعر واحد ، كما احسن في افراد هذا الجزء لعصر عمر ، دارساً نواحيه المختلفة من حياة سياسية واقتصادية اوجز فيها – وحق له الايجاز – ليصل الى الموضوع المهم ، وهو الحياة الاجتماعية وما اتصفت به من مظاهر جديدة للحياة مصطبغة بالوان

من الترف والرخاء ، مروية بأنواع من الشراب المحلل والمحرّم ، واقصة على طوائف من الانغام العربية والفارسية ، عابثة بفنون من الالعاب والملاهي حتى في المواسم الدينية ، بل في المواسم الدينية؛ وكان لا بدّ من الحاق وصف تلك الحياة بوصف الحياة الدينية والعلمية ولاسيا الادبية ، فقام المؤلف بذلك في ثلاثة فصول ، وُفق فيها الى عرض الكثير من المعلومات في ظواهر الحركة الدينية ، واهتمام بعض الناس بالعلم الديني خاصة ، ثم في مجالي الحياة الادبية من نثر وشعر ، وشيوع الشعر في الطبقات المختلفة حضرية وبدوية . حتى اذا اتمّ وصف تلك البيئة التي نشأ فيها عمر وحدّد خطوطها على اتمّ ما يمكن في حالة العلم الحاضرة ، ختم كتابه ، واعداً المطالع بالجزء الثاني في حياة عمر .

وها هو يُنجز الوعد، ناشراً ، في هذا العدد من « المشرق » ، الفصل الاول من الكتاب الجديد . وهو يتصف بما اتصف به الكتاب السابق من اخلاص في التفتيش ، وتقصٍّ في البحث ، وعرضٍ للمصادر ، واحتياط يمنعه الاستبداد في عرض الاحكام . هذا شأن الادب الصحيح .

ف . ا . ب .

الاسر العربية المشتهرة بالطب العربي
واشهر المخطوطات الطبية العربية

بقلم عيسى اسكندر المعلوف

٦٠ ص . متوسطة – المطبعة الادبية ، بيروت ، ١٩٣٥

هي محاضرة كان المؤلف قد القاها في المؤتمر الطبي في الجامعة الاميركية ببيروت ، مختصراً فيها اجلّ ما يُعرف عن الأسر الطبية التي نسبها الى العرب تجوّزاً منه ، على ما نرى ، وقد كان الكثير منها ، ان لم نقل اكثرها ، من السريان اليعاقبة والنساطرة ، ومن اليهود ، ومن القبط ، ومن الموالي — مرتباً ذلك على ثلاثة اقسام : الأسر الطبية في الشرق ، الأسر الطبية في الغرب والاندلس ، اشهر المؤلفات الطبية ولاسيا المخطوطات ، مزيناً هذا القسم الاخير بصور بعض الاعضاء ورسوم بعض الآلات الجراحية القديمة . وقد اعاد النظر فيها وطبعها،

على نفقة الدكتور سامي حداد ، معمما فائدتها على كل من تهمهم هذه الابحاث، فيشكرون للاستاذ عنايته وجلده . ف. ا. ب.

الزراعة العملية الحديثة

تأليف مصطفى الشهابي

قطع ٨ ص ٥١٥ ، مطبعة الاعتدال ، دمشق سنة ١٣٥٤ هـ . و١٩٣٥ م ، ثمن النسخة ٢٠٠ مل.

مؤلف الكتاب عضو المجمع العلمي الدمشقي ، ووزير المعارف ، ومهندس زراعي ، فله من دروسه ووظائفه التضلّع والخبرة والكفاءة لوضع الكتاب ، فاتى به مجارياً خيرة ما ظهر من امثاله اخيرًا في الاقطار الناطقة باللغة العربية .

يحبّ المؤلف التغني بامجاد العرب في فن الزراعة ، ومبرّرٌ لكلامه المثل السائر : « ان ما يعشقه الفؤاد لا يملّه العقل » ؛ ومن المعلوم ان كل نظرة اجمالية في تاريخ بلاد امتدت اراضيها من الصين الى الاندلس الجأت الى التمييز بين عناصر وشعوب لم تمتّ الى العنصر العربي متًا يمكّن من نسبة اعمالها الى العرب... ولكن لا لوم علينا في تشجيع الزراعة بشيء من المبالغة، والكتاب ليس تاريخياً ، وانما غايته تقريب العلوم الزراعية الحديثة من فهم ارباب الصناعة والزراعة .

قسمه المؤلف الى دروس في الزراعة العامة ، اتى فيها بالبحث عن تكوّن الاتربة الزراعية وتركيبها وخصائصها ، وعن الاقاليم الزراعية السورية ، ثم عن حياة النبات والاعمال الزراعية والاسقاء والاسمدة ، وعن جيولوجية الشام ، وعن الدورة الزراعية وتعاقب الزروع ، ثم انتقل الى الكلام في الزراعة النوعية ثم الزراعة في الارض اليابسة ، وله في الكتابة على البلاد الشامية صفحات شائقة ممتازة ، فيحبب الى القارئ مطالعتها . وراقنا في الكتاب تقطيع البنود وتفصيل المواد بتخطيط عناوينها ، فيهتدي اليها القارئ بسرعة . فنرغب له الرواج في دور التعليم وبين ايدي المزارعين خاصةً .

ف. ت.

الخواطر

خطب ومقالات في الاجتماع والسياسة ، بقلم ابراهيم ابي خاطر

٢٨٦ ص ، قطع ٨ - طبع لحساب جريدة زحلة الفتاة ، زحلة ، ١٩٣٥ - ثمن النسخة : ليرة ل .

جمعنا بيتٌ كريم في احدى مدن البقاع ، منذ سنوات ، باحد الادباء . فسمعناه يتحدث الينا عن ذكريات صباه ، وعن كبار رجال تلك البلاد . فلما انتهى الكلام الى اسم المرحوم ابراهيم ابي خاطر قال : كان ذلك الرجل من اهل الزعامة المعدودين في زمانه بين المسيحيين من اهل زحلة .

ولما ظهر هذا الكتاب بهمة وعناية الاستاذ يوسف ابي خاطر ، نجل الفقيد ، وأهدي الى المكتبة الشرقية ، وجدنا فيه ذكرى الخلف الصالح السلف النبيل . يحوي الكتاب بياناً اتى فيه الجامع الاديب على بسط الاسباب التي دفعته الى نشر آثار ابيه ؛ وهي ، مع العاطفة البنوية المقدسة ، الرغبة في افادة القراء ، باطلاعهم على ما كتبه المرحوم من خطب وابحاث في السياسة والادب ، كانت الايام قد حالت دون نشرها . اما اليوم ، ويتمتع الناس بحرية النشر والكتابة ، فما هي مدوّنة ، وعناوينها الشائقة تدعو الى مطالعتها . وحسبنا ذكر اسماء الجريجيري وفرنكو باشا، وغورو ، لنفهم ان مواد الكتاب تشمل المواضيع الخطيرة الجديرة بان تؤرخ .

اضف الى ذلك ترجمة الفقيد ، بقلم الاستاذ عيسى المعلوف ، ومقدمتين : الاولى لخليل بك مطران ، والثانية للاستاذ شبل دموس ، فترى الكتاب شاهداً على حياة جيل جاهد في سبيل البلاد العزيزة .

– ابراهيم بن يوسف ، الملقب بابي خاطر ، من آل لطيف الحاج نعمة ، وُلد في زحلة في ٢٢ حزيران ١٨٦٩ . درس العلوم في المدرسة الاكليريكية في بلدته ، ثم في المدرسة البطريركية في بيروت على الشيخ خليل اليازجي . دخل عضواً في جمعية طلب المعارف الزحلية التي اسسها الجريجيري ١٨٨٦ ، للتمرن على الانشاء والخطابة . تكلم امام جمال باشا ، سنة ١٩١٦ ، ودافع عن السوريين ، وخدم البلاد مفتشاً في المجالس البلدية في لبنان ، وقائمقاماً في زحلة ، اولاً ١٩٠٣ ، وثانياً ١٩١٣ ، وثالثاً ١٩١٨ ، وعضواً في لجنة لبنان الكبير الادارية ١٩٢٠ . وفي السنة ١٩١٢ انشأ جريدة « الخواطر » ، واسس لها مطبعة . وتوفي رحمه الله ، في ٣ اذار ١٩٣٢ .

ف . ت .

نهاية الارب في فنون الادب

تأليف شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري

السفر الحادي عشر ص ٣٣٠ قطع ٤ ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥

هو الجزء التابع لما نشرته دار الكتب ، ووصفه « المشرق » سابقاً ، من هذا المؤلف الجليل ، وحسن اتقان طبعه والعناية به ، فكان لائقاً باصله الكريم وبالدار التي استحقت لقب « مركز الثقافة العربية العصرية »

ان النسخ التي طبع عنها هذا الكتاب أُخذت بالتصوير الشمسي . الاولى نسخة (ا) كتبت سنة ٩٦٦ هـ . والثانية (ب) نسبت الى خط المؤلف سنة ٩٢٢ . اما الثالثة (ج) فناقصة . و«ليس التحريف والطمس والنقص في احدى هذه النسخ الثلاث باقل من الاخرين » ، فكان من مهمة الناشر ان يصلح التحريف ويكمّل الناقص ، ويضبط الملتبس ، ويفسر الغريب ، واعتمد في العمل كتباً عديدة ذكر مصادرها ، وهي تشمل المؤلفين منذ الكتبة المصريين الى عهد ابن وحشية والفلاحة النبطية .

للفن الرابع الذي خصصه النويري بالنبات اربعة اقسام : الاول يتناول اصل النبات وما تختص به ارض دون ارض والخضروات والبقولات . والثاني الاشجار فيقسمها فيما لثمره قشر لا يؤكل ، وفيما لثمره نوى لا يؤكل ، وفيما ليس لثمره قشر ولا نوى . والثالث الفواكه المشمومة . والرابع الرياض والازهار والصموغ والامنان والمصائر . ويعالج المؤلف مواضيعه طبقاً للاسلوب التي وصفناه مسهباً (المشرق ٢٨ [١٩٣٠] ١٣٢ . . .) . فيروي اقوال القرآن والحديث وغير ذلك من اقوال حكماء العرب وعلمائهم وشعرائهم ، وكثيراً ما يستشهد بابن سينا في وصف الطب والعقاقير ، وبالثعالبي في تسمية الاشياء ، ويروي الخبر في موضعه ، ولا يستوحش المستغرب .

والكتاب مفيد جداً لارباب التاريخ الطبي ، وهو مرجع لا بدّ من التعويل عليه في وضع قاموس اللغة العربية العلمي .

ف . ت .

زراعة الاشجار المثمرة

تأليف متري صائغ مهندس زراعي وعضو شرفي في اكادمي ارديش

قطع ٨ ص ٢٧٣ ، مطبعة العرفان ، صيدا

هذا كتاب علم وتاريخ وزراعة ، قال مؤلفه (ص ٨) :

« لما كانت بلادنا من احسن البلاد للزراعة نظراً لخصب تربتها وغزارة مائها وطيب هوائها واعتدال اقليمها ، وكانت حاوية على السهول الواسعة والاراضي الشاسعة ، كان تقدمها الحقيقي يتوقف على استخدام تلك البقاع واستخراج كنوز الثروة من احشائها . غير ان هذه الكنوز كامنة في تلك البقاع كون النار في الحجر . فلا تخرج منها الا بالعمل ، كما ان النار لا تخرج من الحجر الا بالقدح ».

فكانت غاية كتابه معالجة المشكل الزراعي في بلادنا من وجوه متنوعة ، واخصها العملية ، ومن اجل ذلك اكثر من التمثيلات التاريخية، والصور المساعدة على فهمها ، واردف الالفاظ الفنية والاصطلاحات العلمية بحرفها الأفرنجي ، وتعريبها ، وغرضه اصابة المقول ممن تعلموا وتثقفوا ورغبوا في احياء اراضيهم واستثمار غلاتها بالبركة . وهذه الفئة الراقية من سكان البلاد وملاكيها سوف تسيغ كتاب الزراعة هذا وتستفيد منه خير الفوائد ، فتنتبه بمطالعته الى كيفية اكثار الاشجار المثمرة بالبذر والتعقيل والترقيد والتطعيم ، والى انشاء المدارس والبساتين وغرس الاشجار والتقليم ؛ وتفطن الى اسباب قلة المحصول وطرائق جني الاثمار وحفظها ، ومن ثم تنتقل الى درس البستنة الشجرية الخاصة من اشجار ذات العجم والاشجار ذات البذور الصغيرة والاشجار ذات الثمار العنبية واللحمية ، وذات الثمار اليابسة ؛ واخيراً تتعلم من هم اعداء الفلاح ومن هم اصدقاؤه من حيوانات ضارة او نافعة . فنشكر للمؤلف همته الشماء وغيرته على مصلحة البلاد، ونتمنى لكتابه ان تتداوله ليس فقط ايدي المزارعين والملّاكين، ولكن ايدي الطلاب في المدارس ايضاً .

ف . ت .

اوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية

جمعها وعلّق عليهـا ووصفها بالانكليزية ادولف جروهمان ، استاذ اللغات السامية وتاريخ الثقافة الشرقية بجامعة پراغ التشيكوسلوفاكية ؛ واشترك مع المؤلف في نقل الكتاب الى العربيـة الدكتور حسن ابراهيم حسن ، استاذ التاريخ الاسلامي المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية ؛ وراجع الترجمة الاستاذ عبد الحميد حسن ، المفتش بوزارة المعارف.

السفر الاول: يشتمل على بعض الطرز والوثائق الفقهية ، وبه ٢٠ لوحة
القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٦

من الاسماء المذكورة في عنوان الكتاب ، دليل على العنـاية البليغة التي ابرزت الى العالم العربي هذا السفر الجليل ، وهو يضاهي خير ما ينشر الافرنج من امثاله في هذا الصنف.

كان الدكتور برنهارد موريتس ، مدير دار الكتب المصرية سابقاً ، قد اقتنى للدار مجموعة اوراق بردى لها من القيمة الاثرية ، مع ما كان في المكتبة من الآثار ، ما لاق بالقاهرة مركز الثقافة الاسلامية ؛ فنشر العلماء شيئاً منها ، ولكن لم تُنشر تلك الاوراق كلها بالصور الشمسية ، وليس لنصوصها مؤلف خاص.

فكانت الغاية من هذا الكتاب القيام بذلك العمل الخطير ، ونشر ٣٦ قطعة بالطبع مصحّحة ، و٢٠ لوحة بالتصوير الشمسي . ولم يتمّ ذلك الا بمساعدة من وفاهم الناشر حقهم من الثناء ، ومنهم الاستاذ مزاريك ، رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكية ، ومحمد اسعد براده بك ، مدير دار الكتب ، والدكتور شخت ، وغيرهم.

يُقسم الكتاب الى طُرُز ، والى وثائق فقهية . فالطرُز منها مؤرخ باللغتين اليونانية والعربية ، ومنها بالعربية فقط ، واقدمها سنة ٨٦ — ٩٦ هـ . (٧٠٥ — ٧١٥ م .) ، في عهد الوليد بن عبد الملك الاموي ؛ اما الوثائق الفقهية ففيها ١٠